آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم في مصر

أحمد أبو كف

الطبعة الثالثة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

اللهم صل وسلم وبارك دائمًا أبدًا على حبيبك خير الخلق كلهم، سيدنا محمد مجلى الذات وجلاء مظهر الشريعة من النور المحمدى، سيد ولد آدم ولا فخر، من نوره عرفت الخلائق سلوكها إلى طريق ربها وهدى به الحق تعالى خلقه إليه، وتشرفت بإمامته ﷺ كل الأنبياء والرسل وعلى عهده قامت كل الرسالات وجاء فرقانه مهيمنًا على كل الكتب والصحائف، فرطنا «سابقنا» على الحوض، من ورد حوضه شرب ومن شرب لم يظمأ أبدًا، ولن يرد هذا الحوض فيدخل الجنة ويحظى بأعظم المنة إلا كل من أحبه وأجلّه وصان عهده وذمته ونصر حزبه ودعوته واتبع هديه وسنته وحفظه ووقره فى آل بيته ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة فى القربى﴾.

وقد علمنا ﷺ أن ندعو ـ فى التشهد ونحن بين يدى الرحمن، وبعد إقرارنا بوحدانيته ـ أن نقول: «اللهم صل على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وآل سيدنا إبراهيم» فجعل الله تعالى الصلاة على نبيه وأهل بيته من كمال التجلى الإلهى على عبده فى أسمى مقام العبودية فى المعراج الأسمى وأنطق بها ملائكته وهم شهود لهذا المقام: مقام الخصوصية لنبينا ﷺ وآل بيته، ولم يصل على نبى وآله قط بهذه الصيغة العلية فى الحضرة القدسية إلا على سيدنا محمد وآله، وكان الجمع بين الصلاة على سيدنا محمد وآله وعلى سيدنا إبراهيم وآله، إشارة لأهل البصائر وعرفان الشىء بالشىء. فأول الأنبياء وخاتمهم وسيدهم محمد

من أبى الأنبياء إبراهيم وإبراهيم منه وبه شرف وراثة وبشارة وامتداد دعوة وكمالها. ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ كالإشارة فى الحديث الشريف عن سيدنا الإمام الحسين: «حسين منى وأنا من حسين» وما يتذكر إلا أولو الألباب. ونبه صلوات الله وسلامه عليه وآله إلى هذا المشرب الروحى العرفانى بصلة القرابة الدائمة فحذر أمة المؤمنين من نسيان ذكر آله عند الصلاة عليه فقال: «لا تصلوا على الصلاة البتراء».

وتخير الله تعالى لحبيبه وصفيه ـ منذ مطلع إشراق رسالته صلى الله عليه وآله وسلم ـ أخًا له فى الله كان مولده فى بيت الله الحرام، كعبة المؤمنين وعباد الله الصالحين من الخلق والملائكة أجمعين، وكرم الله تعالى وجهه فلم تحن أمه سيدتنا فاطمة بنت أسد، وهى تحمله جنينًا ـ جبينها لغير الله، كما لم يحن جبهته هو بعدها لغير الله. تربى فى حجر النبوة وكان ـ بعد أم المؤمنين السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها وأرضانا بها ـ أول من سجد قانتًا لله وعابدًا مع النبى وصلى معه فى الكعبة فكان وقتها ثلث الإسلام وجمع المسلمين ذلكم هو على بن أبى طالب، أسد الله الغالب، ابن أبى طالب عم النبى ﷺ وشيخ بنى هاشم والمدافع عنه وحامى حماه.

لقد افتدى على النبى بنفسه ليلة الهجرة وخافته قريش كلها منذ ذاك المقام حتى استشهاده إذ كان الضارب بالسيفين والطاعن بالرمحين بل كان سيف الله الذى علا فى وجه العدا فى بدر وسائر المغازى، فقهر، وما سل صارم من غمده لوجه الله فى الحق إلا وذكر، وفى كل تكبيرة على طول البيداء وعرضها انتصر أعطاه النبى رايته العقاب وعممه بعمامته السحاب فثبت الله به راية الإسلام، اعتز به دومًا النبى ودعا الله له قائلا: «رب لا تذرنى فردًا وأنت خير الوارثين» فانفرد علىّ بهذا المقام؛ إذا أيده الوحى على لسان الروح الأمين جبريل عليه السلام مبشرًا محمدًا بأن الله تعالى قد اختار عليًّا لك صهرًا وللزهراء زوجًا وسيخرج منهما ذريتك وعصبتك وقرة عينك، وقضى الأمر فكان الإمام علىّ كرم الله وجهه أخا الرسول وبعل البتول وأبا السبطين، وارث المختار والفارس الكرار، إمام أرباب الفتوة وكنز أسرار النبوة.

قال له النبى ﷺ: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى» وقيل فى حقه «لا فتى

إلا عليّ» لقد قام على المرتضى لمحمد المصطفى مقام هارون من موسى فكان وارثًا للعلم النبوى، بل كان باب مدينة العلم ومن أراد العلم فليأته من بابه وأصبح بهذا يعسوب الدين وإمام العارفين وقدوة الأصفياء العابدين والزاهدين، وثبت صلى الله عليه وآله فى أمة المؤمنين قدره ورفع له من بينهم ذكره فقال له: تختصم الناس بسبع ولا يحاجك أحد من قريش : « أنت أولهم إيمانا وأدناهم بعهد الله وأقومهم بأمر الله وأقسمهم بالسوية وأعدلهم فى الرعية وأبصرهم بالقضية وأعظمهم عند الله مزية».

أما وقد تخير الله ورسوله لعلى المرتضى سيدة نساء العالمين، فاطمة الزهراء البتول، ريحانة الرسول العابدة الزاهدة زوجًا وقرينة، فلا غرو أن ينجبا الذرية الشريفة والعترة الطاهرة، فهى بقية الله الباقية لنبيه وحبيبه من ذريته، وأحبهم إلى نفسه وأقربهم به شبهًا فى خلقه، والنسمة الطاهرة الطيبة الميمونة التى جعل نسله ﷺ منها ومن نسلها أئمة الأمة وخلفاء الله فى أرضه وصلة الرحم وشيجة القربى بسيد الخلق إلى يوم الدين. هى كما يقول إقبال رحمه الله «فالمجد يشرق من ثلاثة مطالع فى مهدها» فمن ذا يدانيها فى مجدها؟. «هى بنت من؟ هى زوج من؟ هى أم من؟ هى ومضة من نور عين المصطفى، وزوج لعلى المرتضى من له تاج بسورة هل أتى وأم الحسنين السبطين» سبطى الهدى والتقى وزينب عقيلة بنى هاشم ذات المكارم والعلا، من تتبلج أنوار النبوة من مشاهدهم سناء وسنى لتفيض على محبيهم سكينة وضياء وأمنا.

وكانت ذرية الإمام والزهراء خيرة الأخيار من الخلق وأعلاها قدرًا عند الحق، ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ لم يجتمع فى نسل أحد من العالمين من يقارب آل البيت وذريتهم ـ عند الله ورسوله والمؤمنين ـ مقامًا أو يدانيهم أخلاقًا وأحلامًا، فهم الأصدقون قبلا، المهديون سبيلا أقطاب الجلالة وشموس النبوة والرسالة، برأ الله أرواحهم صلة متصلة دائمة بالملكوت الأعلى ووقاها شح وأدران الحياة الدنيا، وجعل حياتهم أداء للأمانة وخلفة لمن أراد الحق وقدوة لمن أحب الله ورسوله وأقباسًا من نور جدهم ﷺ كما رأته ووصفته السيدة عائشة للفاروق عمر رضى الله عنها عندما سألها: «هل رأيت الرسول حقًا؟ «فقالت:رأيته نورًا يصل الأرض

بالسماء» وأحسن ختامهم فاصطفاهم بالشهادة وخصهم بالسبق دومًا فى مواقف اليأس والاختيار بين الدنيا ومادتها وزهرتها وما عند الرفيق الأعلى فكانوا حقًّا المصطَفَيْن الأخيار الذين يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون.

وقد وجهنا ﷺ ـ فأحسن توجيهنا ـ إلى التزام حسن الأدب تجاه آل البيت مع تمام الحب والإعزاز لهم، فجمع عليًّا والزهراء وحسنًا وحسينًا معه وجبريل وأظلهم بعباءته فكانوا أهل بيته الذين أفردهم بمقام الخصوصية منه صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال فيهم « إنما فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها وينصبنى ما أنصبها». و«يا فاطمة إن الله عز وجل يغضب لغضبك ويرضى لرضاك» ما شاء الله.. وقال لعلى: «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق» فجعله ميزان قسط يفرق به بين الإيمان والنفاق وقال فى الحسنين: «اللهم إنى أحبهما فأحب من يحبهما» فلا إيمان لمن لا محبة له فى آل البيت.

وقد أعلى الحق سبحانه وتعالى ذكرهم ونزههم عن كل نقيصة وأنزل فيهم ذكرًا يتعبد به وقرآنا يتلى فقال: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾ وإذا أراد الله تعالى فلا رادَّ لإرادته، وإذا أراد سبحانه أن يختبر عبدًا ليحبه ابتلاه واختاره إلى جواره فكان أهل البيت ـ بفضل الله ـ مصونين عن رجس الدنيا وقذرها بالجهاد الدائم والعبادة الحقة والتجرد للحق تعالى. ولن يضاف إليهم ـ وهم عين الطهر ـ إلا كل طاهر مطهر يشبههم، فهم على بصيرة ويقين واختيار وتطوع العابدين الزاهدين الراكعين الساجدين والعلماء المجاهدين والشهداء الأحياء عند ربهم يرزقون وما زالو ـ على مدى الزمان ـ قبلة العرفاء السائحين فى ملكوت الله جل وعلا وأئمة الأولياء الصالحين مقبلين فى كل الأحوال على الله، مؤيدين بفضل الله وإرادته ورحمته وبركاته ووراثتهم للنور المحمدى.

ومن ثم، فلا عجب أن يحث النبى المبعوث رحمة للعالمين أمته على حب آل بيته حتى تفوز ـ بمحبتهم ـ بمحبته، وتسعد ـ بموالاة أخص قرابته ـ بشفاعته، فهم معدن الرحمة الجامعة ومهبط البركات الشاملة، وفيهم سر صلة الأرحام على مدى الزمان وفى كل مكان كما قال الحق عز وجل ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل

البيت﴾ فمن فى الورى يصدف عن الرحمة والبركة مجتمعين؟ ومن ذا الذى لا يرجو نفحة من رحمة الله وبركاته عليه؟ ومن ذا الذى لا تهفو روحه إلى نسمات القرب والحب؟ ليحشر معهم يوم يحشر، فالمرء مع من أحب يوم ينقطع كل سبب ونسب إلا سنبه ونسبه صلى الله عليه وآله وسلم. فشرف المحبة أشرف الأنساب ولقد سبقت لسيدنا سلمان الفارسى من الله الحسنى، فتبوأ المكانة الزلفى بشرف الإضافة إلى آل البيت جزاء وفاقًا لخالص ولائه وصادق وفائه ومحض طهره وصفاته للنبى وآل بيته الأطهار، فكان سلمان بحق، كما قال الرسول ﷺ: «سلمان منا أهل البيت».

إن هذا الكتاب عن آل بيت النبى ﷺ الذى اعان الله بتوفيقه تعالى عبده «الأستاذ أحمد أبو كف» مؤلفًا وكاتبًا ومحبًّا لآل البيت، لهو نسمة من النسمات الروحية التى تطوف بأرواح المؤمنين المحبين؛ ليذكروا فضل الله على العالمين إذ جعل فيهم وبينهم آل بيت النبى الكريم، يعيشون بالروح فى ذكراهم، وبالعقل فى سيرتهم العطرة، وبالوجدان فيما أظهروا لنا من القدوة الحسنة، فيتعلق أولئك الذين يعرفون مناقبهم - على ما هم فيه من شرف ونسب وزهد فى متاع الدنيا الزائل - بتلك السيرة العطرة التى تبعث منها وتتجلى فى كيانها ووجودها الأنوار والأسوار التى أودعها الحق تعالى فى خلقه من البشر عندما كان الإنسان موضع سجود الملائكة ومحمل تقديرهم وتقديسهم، وآل بيت النبى أولى البشر بهذا التقديس الملائكى منذ أن سجدت الملائكة لآدم فى الملأ الأعلى فى حضرة رب العزة، فلا غرو أن تذكرهم الملائكة فى التجلى الأعظم فى معراج سيدنا رسول الله وهم شهود ذلك التجلى فيقولون اللهم «صل على سيدنا محمد وآل محمد» ولا غرابة إذن أن يكون آل بيت النبى محل توقير واحترام ومحبة أهل مصر وأهل السنة والجماعة فى كل أقطار الأرض.

وإنى إذ أقدم هذا الكتاب العزيز للكاتب المحب لآل البيت عن علم وتقدير، لأرجو الله أن نكون قد وفينا جزءًا من أمانة انتسابنا إليهم وهم السابقون بالفضل الذين قضوا لنا أن نكون فى شرف القرب منهم روحًا وعقلاً ووجدانًا وتسليمًا بفضل

الله على مصر وأهل مصر، كما أرجو الله أن ينفع بهذا الكتاب المؤمنين ويشرح به صدور المحبين ويفتح به قلوب السالكين.

والله تعالى أسأل أن يجمعنا معهم على الحوض - إن شاء الله وبإذنه الكريم - يوم الشفاعة وهو على ما يشاء قدير.

محمد حسن محمد التهامى

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد للّه رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلق اللّه ، الصادق الآمين محمد بن عبد اللّه وعلى اله وصحبه ، ومن اتبع هداه وبعد .

يعتز ويفتخر كل مسلم ومسلمة فى أرجاء العالم (بآل البيت) وهذا شرف عظيم لمكانتهم عند اللّه سبحانه وتعالى .

ولقد خص اللّه تعالى مصر ضمن ما خص أرض الكنانة بمجموعة من لآلئ آل بيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . جاءوا وعاشوا على أرضها ، ودفُنوا فيها وشرّفوا ترابها ، وصارت مشاهدهم وأضرحتهم مهبط بركات ومشاعل أنوار . وهذه اللآلئ التى تترصع بها أرض الكنانة صارت مزارات للمحبين ، وكثر الذين يترددون على مشاهد وأضرحة آل بيت الرسول صلى اللّه عليه وسلم يذهبون بدافع الحب الجارف للرسول صلى اللّه عليه وسلم ولآل بيته الأطهار دون أن يعرفوا من تاريخها أو سيرها الشيء الكثير .

والكتاب الذى بين أيدينا يتناول بعض اللآلئ المدفونة فى مصر أو التى رَجْحَ أنها دُفنت فيها ، والذين نتناول سيرهم العطرة هنا ، هم جميعا من النسل الشريف الذين ينتمون فى نهاية المطاف إلى سيدنا على بن أبى طالب وإلى سيدتنا الزهراء (فاطمة) بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مباشرة ، وبعضهم من نسل الحسن والحسين السبطين .

من يقرأ هذا الكتاب يجد الكثير والكثير من الأسماء الشريفة المدفونة فى مصر المعروفة منها ، وكذلك القليلة الشهرة ، كما سيجد القارىء بعض التصحيحات لأخطاء وقرت فى الأذهان بمرور الأيام ، وقد وفقنا اللّه لتصحيح بعض الوقائع وبعض الانتماءات ، فلهذا نترك القارئ والقارئة للاستمتاع بهذا العمل .

واللّه الموفق ..

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ. ونحن نكرر أنفسنا لو أننا سطرنا كلمات تقديم للطبعة الثانية. ولكننا فى هذا المقام نشكر القائمين على النشر فى دار المعارف. الذين تحمسوا لهذه الطبعة من الكتاب إنه موضوع، فى الحقيقة، مبارك.

ولذلك، فإننا ندعو الله أن يبارك فى كل فكر وكل عمل بذل من أجل أن تصدر هذه الطبعة الثانية فى صورتها القشيبة.

ولا أقول شيئًا سوى دعوتى أن يبارك الله من أحب آل البيت.

أول رمضان ١٤٠٣ هجرية

١٢ يوليو ١٩٨٣ ميلادية

أحمد أبو كف

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله من بعثه الله بالحق بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا. شرفه الله جل جلاله على سائر خلقه، وجعل من ذريته بيتًا طاهرًا مجد ذكره القرآن الكريم فقال عز من قائل ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**﴾ اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد.

وبعد.

سعيد من شرفه الله جل شأنه، ووفقه فى أن يخوض بحار أهل البيت الأطهار، وأن يحاول الاقتراب من سيرتهم الطاهرة، وأن يحمل أمانة ومسئولية اجتلاء أنوارهم الربانية التى تظهر على مشاهدهم وأضرحتهم. وأسعد السعداء من يأتمر بأمر الله. وأن يخط بعض أسطر عن هؤلاء القوم أهل بيت النبى ﷺ:

هم القوم من أصفاهم الودَّ مخلصًا   تمسك فى أخراه بالسبب الأقوى
هم القوم فاقوا العالمين مناقبًا   محاسنهم تحكى وآياتهم تروى
موالاتهم فرض وحبهم هدى   وطاعتهم وُدّ، وودّهم تقوى

وآل بيت الرسول ﷺ - فى كل مكان من أرض الإسلام - هم مسئولية وأمانة فى عنق كل مسلم. لا بد من إظهار حياتهم الخصبة الثرية، حتى تتضح الرؤية القدوة أمام كل شاب مسلم وكل شابة مسلمة، خاصة ونحن نعيش فى عصر شديد المراس مملوء بالتيارات والعواصف التى تهب من كل اتجاه تحاول أن تنال من هذا الدين، وأن تنال من البشير المنذر سيدنا محمد صلى الله عليه وأهل بيته الأطهار.

إن حياة آل بيت النبى ﷺ، حياة خصبة ثرية، حياة إيمان وصدق وتقوى، حياة كفاح ودفاع عن العقيدة مهما تصل إلى حد الاستشهاد. حياة كلها علم وخلق وزهد وعبادة وجود وسخاء ويقين.

ولقد خص الله مصر ـ ضمن ما خص أرض الكنانة ـ بمجموعة من لآلئ آل بيت رسول الله ﷺ. جاءوا، وعاشوا على أرضها، ودفنوا فيها، وشرفوا ترابها، وصارت مشاهدهم وأضرحتهم مهبط البركات ومشاعل أنوار، وحدائق نبوة زاهرة وارفة الأغصان عطرة الأريج، كما يقول الكثيرون من مؤرخى آل البيت.

وهذه اللآلئ التى تترصع بها أرض الكنانة، صارت مزارات للمحبين لآل البيت، ومشارق أنوار يستضىء بها الكثيرون، الذين يستنشقون فى رحابها عطر النبوة وأريجها.

وأغلب الذين يترددون على مشاهد وأضرحة آل بيت الرسول ﷺ، يذهبون بدافع الحب الجارف للرسول رأس الدولة النبوية المباركة ولآل بيته الأطهار.. دون أن يعرفوا من تاريخها أو سيرها الشىء الكثير.

لكن أن يكتمل الإيمان والحب، هو أن تعرف وتعرف الكثير عن حياة هذه اللآلئ المباركة، وعن دفاعها عن الحق، وصمودها أمام الشدائد، وسيرتها العطرة الطاهرة.

لقد قال رسول الله ﷺ، كما فى ذخائر العقبى: «لا يحبنا أهل البيت إلا مؤمن نقى، ولا يبغضنا إلا منافق شقى».

وأهل مصر ـ بحمد الله ـ محبون عاشقون لآل بيت رسول الله ﷺ. وأعتقد أن هذا الحب لن ينمو ويكبر إلا بالإيمان النقى. وهذا الإيمان لا يأتى إلا عن علم وتفقه، وعن معرفة جيدة بهؤلاء الذين شرفهم الله بالانتساب إلى عبده ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ.

وهذا بالطبع لن يأتى إلا إذا تضافرت الجهود، وصدرت الأبحاث والكتب عن اهل بيت الرسول الذين شرفوا مصر ودفنوا فيها، والذين لم يدفنوا فيها أيضًا.

وهم والحمد لله كثير تتناثر أضرحتهم ومشاهدهم فى أرض الإسلام من مشرقه إلى مغربه، فى العراق، وفى إيران، وفى سورية. ثم داخل أرض الحرمين الشريفين، وبالأخص فى المدينة المنورة، حيث الحرم النبوى الشريف، وحوله أغصان الدوحة المباركة فى «البقيع» وبالقرب منه.

وهناك الكثير من الكتب القديمة والمخطوطات التى تناولت السيرة العطرة لآل بيت الرسول ﷺ، وألقت عليهم الكثير من الأضواء، وتناولت سيرهم وحياتهم. لكن هذه الحياة الخصبة الثرية لأهل البيت، تحتاج إلى جهود كبيرة مؤمنة من علماء المسلمين، لتضفى على هذه السيرة العطرة الكثير من الأضواء والظلال، كى تكون عبرة وهدى فى مثل هذا العصر الذى نعيش فيه، ونفتقد فيه إلى النماذج والأمثلة الصادقة. كما قلنا.

* * *

ونطرح هنا تساؤلا:

من هم أهل بيت الرسول الطاهرون المتطهرون؟

هذا تساؤل كثر حوله الجدل، وتعددت فيه الآراء.

لكن أرجح الآراء التى نميل إليها ويميل إليها الكثير من أهل العقل والعلم، أن المقصود بأهل البيت الذين جاءوا فى الآية القرآنية: ﴿**رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد**﴾ هم بالإضافة إلى رأس الدوحة الطاهرة الإمام على ابن أبى طالب كرّم الله وجهه، وفاطمة البتول، ثم الحسن والحسين رضى الله عنهم جميعًا.

وهذا التحديد يستدلون عليه بما أخرجه الترمذى، وصححه أبو جرير وابن المنذر، والحاكم، وابن مردوية، والبيهقى، والكثير من مؤرخى الشيعة، عن أم سلمة زوجة النبى ﷺ أنها قالت: فى بيتى نزلت آية ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت**﴾. وكان فى البيت وقتئذ فاطمة وعلى والحسن والحسين، فجللهم - أى غطاهم - رسول الله ﷺ بكساء كان عليه، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**هؤلاء أهل بيتى، فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا**».

وفى رواية أخرى عن أم سلمة أيضًا، قالت: «إن النبى ﷺ كان فى بيتها على منامة له. وعليه كساء خيبرى، فجاءت فاطمة رضى الله عنها ببرمة ـ أى قدر من الحجارة ـ فيها خريزة ـ صنف من الطعام فقال لها رسول الله ﷺ: ادع زوجك وابنيك حسنًا وحسينًا، فدعتهم، فبينما هم يأكلون، إذ نزلت على النبى هذه الآية الكريمة، فأخذ النبى بفضلة كسائه، فغشاهم إيَّاها، ثم أخرج يده من الكساء وألوى بها إلى السماء، ثم قال: «**اللهم هؤلاء هم أهل بيتى وخاصتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا**» وقالها ثلاث مرات.

قالت أم سلمة فأدخلت رأسى فى الستر، فقلت: يا رسول الله وأنا معك، فقال: «إنك إلى خير».

* * *

هؤلاء هم أهل البيت، الذين أذهب الله عنهم الرجس.

هؤلاء هم أهل البيت الطاهرون المتطهرون.

وبالطبع فإن نسل هؤلاء قد جاء طاهرًا متطهرًا.

أما وقد جددنا ـ على قدر اجتهادنا ـ من هم أهل بيت النبى ﷺ، فإن هناك الكثير من أحاديث النبى التى جاءت إلينا، والتى تحضنا وتدفعنا إلى حبهم ومحبتهم. فهو حب، وهى محبة للرسول ﷺ. ومحبة الرسول وأهل بيته هى من صادق الإيمان، وصدق العقيدة. قد روى الديلمى والطبرانى وابن حبان، والبيهقى، أنه ﷺ قال: «**لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه، وتكون عترتى أحب إليه من عترته، وأهلى أحب إليه من أهله وذاته**».

وقال الرسول ﷺ: «**مثل أهل بيتى كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تعلق فاز، ومن تخلف عنها زج فى النار**».

وعنه ﷺ أنه قال: «**إنى أوشك أن أدعى فأجيب، وإنى تارك فيكم الثقلين، كتاب الله حبل ممدود من الأرض إلى السماء، وعترتى أهل بيتى. وإن الله**

اللطيف الخبير أخبرنى أنهما لن يفترقا حتى يـردا على الحـوض يوم القيـامة، فانظروا بما تخلفونى فيهما».

وهناك حديث يؤكد أن عترته هم أبناؤه، فقد قال ﷺ. «**كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببى ونسبى، وكل ولد أم فإن عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة، فإنى أنا أبوهم وعصبتهم**».

وعنه ﷺ أنه قال: «**حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتى، وآذانى فى عترتى، ومن اصطنع إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها، فأنا أجازيه عليها غدًا إذا لقينى يوم القيامة**».

وعن أبىّ بن كعب أنه قال: قال الرسول ﷺ: «**أدبوا أولادكم على ثلاث خصال، حب نبيكم، وحب أهل بيته. وعلى قراءة القرآن، فإن حملة القرآن فى ظل الله، يوم لا ظل إلا ظله، مع أنبيائه وأصفيائه**».

وأخيرًا، وليس آخرًا، يقول الرسول الكريم ﷺ: «**أربعة أنا شفيع لهم يوم القيامة: المكرم لذريتى أو القاضى لهم الحوائج، والساعى لهم فى أمورهم عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه**».

* * *

حب آل بيت النبى إذن فرض وواجب.

ويتأكد هذا الحب بالتعبير عنه.

والكتابة عن أهل بيت النبى ﷺ شىء من هذا الحب. نعبر به نحن عن هذا الحب.

وهذا الكتاب لا يزعم أنه يحتوى الكثير من لآلئ آل البيت. وإنما هو يتناول بعض اللآلئ المدفونة فى مصر، أو التى رجح أنها دفنت فيها. وهو يعتبر بداية للكتابة عن مجموعة أخرى طاهرة شريفة سواء أكانت فى مصر، أم فى غير مصر، خاصة فى العراق وإيران، إذا أتيح لنا المجال.

والذين نتناول سيرهم العطرة هنا هم جميعا من النسل الشريف الذى ينتمون فى نهاية المطاف إلى سيدنا على بن أبى طالب، وإلى سيدتنا الزهراء فاطمة بنت رسول الله ﷺ.. هؤلاء الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا. بعضهم من نسل الإمام على وسيدتنا فاطمة الزهراء مباشرة. وبعضهم من نسل الإمام الحسن والإمام الحسين، السبطين. وأغلبهم من نسل الإمام على زين العابدين. الذى نجاه الله من مدلهمة «كربلاء» ليبقى نسل الإمام الحسين متصلا.

إن مصر تترصع أرضها بالكثير من لآلئ آل بيت النبى ﷺ. من أبناء الرسول.

ولذلك فسيجد القارئ الكريم كثيرًا من الأسماء الشريفة المدفونة فى مصر، المعروفة منها، وكذلك القليلة الشهرة.

كما سيجد القارئ بعض التصحيحات لأخطاء وقرت فى الأذهان بمرور الأيام وقد وفقنا الله لتصحيح بعض الوقائع، وبعض الانتماءات.

* * *

وبعد.

فالإطالة غير مرغوبة فى هذا المقام.

وأترك القارئ الكريم مع تلك الصفحات، ومع جهد أرجو الله تعالى أن أكون فيه قد وفقت.

وحسبى أن يكون هذا الكتاب فاتحة خير وبركة، وأن يكون دافعًا للكثير من المحبين أن يكتبوا مثله أو أحسن منه، حتى تجتلى تلك اللآلئ المباركة الشريفة أمام كل مؤمن كنماذج إسلامية فى هذا العصر الذى نحتاج فيه إلى القدوة والسلام على من اتبع الهدى...

أحمد أبو كف

الجيزة: فى ٢٢ من شعبان ١٣٩٧ هـ
٧ أغسطس ١٩٧٧ م

الإمام الحسين
سيد شباب أهل الجنة

وقفة عند مقامه الذى يضم الرأس الطاهر ـ كما تؤكد المصادر ـ تحت قبة الباب الأخضر.

ودخول إلى غرفة المخلفات الشريفة، مخلفات النبى عليه الصلاة والسلام، حيث العين تتساقط منها العبرات، والقلب يوشك أن يقفز من الصدر، والحواس تتدغدغ وتتبارك بنفحات من آل بيت الرسول الكريم. بل العيون تكتحل بمرأى شعرات كريمة من شعر نبى البشر، والمكحلة والمرود، وجزء من عصا، وقميص يمنى كان يلبسه الرسول. ثم مصحفين منسوبين لخليفتى رسول الله: عثمان بن عفان، وعلى ابن أبى طالب رضى الله عنهما.

رائحة عطر تملأ الأنف. رائحة عطر النبوة، لا يميزها إلا من تشرف بزيارة القبر الشريف لنبى هذه الأمة، وصلى فى الروضة المطهرة، وسلم على الرسول ﷺ.

الجسد يهتز ويرتج، فى الرحاب، حيث المقصورة الفضية المرصعة بفصوص الجواهر واليواقيت، التى صنعتها وأهدتها طائفة البهرة. والأضواء تنبعث من خارج وداخل المشهد الحسينى وحول المنارات حيث تحول الليل إلى شمس مشرقة، ويتصل النهار بالنهار، إن جاز التعبير، وهذه كلها تلفها قلوب عامرة بالإيمان، عاشقة ومحبة لآل البيت «رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت» الذى أذهب عنكم الرجس وطهركم تطهيرًا.

رأس سيد الشهداء، تشدك إلى رحابها، محبون وعاشقون، على موعد وغير موعد. أنت تجد دائما الحى الذى شرف باسم الحسين عامرًا بكل ألوان الناس من

مختلف الجنسيات تجذبهم جميعًا المحبة والعشق لآل بيت الرسول ﷺ إلى ريحانة الرسول، و «سبطه». مئات الألوف من المحبين والمتشيعين لآل البيت، حتى وإن اختلفت المذاهب، فالكل فى حب آل بيت النبى سواء.

ولماذا الحسين؟ وحى الحسين بالذات، هو مبتغى الناس فى مصر ومن خارجها. ولماذا يستأثر سيد الشهداء بمثل هذا الحب والإقبال؟

السؤال سهل. والجواب أكثر سهولة وصعوبة فى الوقت نفسه!

إنها قصة البطولة والعبرة، وقصة الإيمان، الذى ميز آل بيت الرسول وقصة الدفاع عن المبدأ والعقيدة إلى آخر مدى، ومهما كانت التضحيات.

الإمام الحسين سبط الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم السلام. ولد فى بيت النبوة، من ابنته البتول فاطمة الزهراء رضى الله عنها. وهو أخو الإمام الحسن، ابنا الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

يقول الإمام أحمد فى «مسنده» والبخارى فى «الأدب المفرد». والترمذى وابن ماجه، والحاكم فى «المستدرك».. قال رسول الله ﷺ:

«حسين منى، وأنا من حسين، أحبَّ الله من أحبَّ حسينًا: الحسن والحسين سبطان من الأسباط».

وهناك حديث مروى، يقول إن النبى ﷺ قال:
«أحشر أنا والأنبياء فى صعيد واحد، فينادى: معاشر الأنبياء، تفاخروا بالأولاد، فأفتخر بولدى الحسن والحسين».

وقال أحد مؤرخى الرسول ﷺ، إنه ذهب للحسين وأخوته، كل ما فى فؤاد النبى ﷺ من محبة البنين، وهو مشوق الفؤاد إلى الذرية من نسله. فكان عليه الصلاة والسلام لا يطيق أذاهما ولا يحب أن يستمع إلى بكاء أحد منهما فى طفولته على كثرة ما يبكى الأطفال الصغار.

وقيل كذلك إن النبى ﷺ خرج من بيت عائشة يومًا، فمر على بيت فاطمة الزهراء، فسمع حسينًا يبكى، فقال: «ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى»؟

كما ذكروا أيضًا أنه ﷺ قام يخطب فى المسلمين فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل عليه الصلاة والسلام من فوق المنبر، فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله: «إنما أموالكم وأولادكم فتنة»، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر، حتى قطعت حديثى ورفعتهما».

لقد أحب النبى ﷺ، السبطين ـ الحسن والحسين ـ حتى احتار الصحابة أيهما أحبه الرسول أكثر. وقد قيل إن الرسول ﷺ كان يضم الحسن والحسين، ويأخذهما إلى قلبه ويمسك دمعه، وخفقات قلبه الشريف تدق ألما للمصير الذى أحس أنهما سيلقياه دفاعًا عن دين الله. هذا المصير، هو أن يموت الحسن ـ كما قيل ـ مسمومًا، ويذبح الحسين وتجز رأسه فى «كربلاء». ولا يهم رأى من يقول إن هذا الكلام من وضع الشيعة لزيادة المأساة.

* * *

كان الحسين، كما رووا تشبه صورته صورة النبى ﷺ، وقيل إن من رآه كمن رأى النبى.

والحسين من مواليد الخامس من شعبان فى السنة الرابعة للهجرة، فى المدينة المنورة. وكان استشهاده فى كربلاء، يوم الجمعة، وهو يوم عاشوراء، من المحرم سنة ٦١ هجرية. بمعنى أن الحسين عاش عمرًا يربو على السبعة والخمسين عامًا..

وقد تأثر الإمام الحسين فى طفولته ـ كما يقولون ـ بحياة جده الرسول المتواضعة، وبكل ما تزخر به من قيم سامية. وفى صباه كانت تعاليم أبيه ـ على ابن أبى طالب ـ والصحابة والأنصار هى سبيله لفهم الإسلام على أنه دعوة الحق والعدل. وخلال رحلة حياة الحسين لم يتخلَّ مطلقًا عن هذه المثل والتعاليم.

وقد روى مؤرخو آل بيت النبى ﷺ: أن الحسين حين ولد، سر به جده الرسول، ذهب إلى بيت فاطمة، وحمل الطفل، ثم قال: ماذا سميتم ابنى؟ قالوا: حربًا «على عادة العرب فى تسمية أبنائهم بأسماء البطولة والشجاعة» فسماه الرسول «حسينًا».

ولقد تربى الحسين فى حجر جده رسول الله، وأدرك من عصر النبوة ست سنوات، وسبعة أشهر، وسبعة أيام، كان فيها موضع الحب والحنان من أعظم جد عرفه التاريخ. وضرب أكرم الأمثال فى رحمة الأبوة وحدبها، فأحب الحسن، كما أحب الحسين سواء بسواء، ولكن الرسول كان يفرط فى حب الحسين، ويختصه

بمزيد من العطف والبر، فكثيرًا ما كان يخالطه ويداعبه ويضمه ويقبله، لأنه أصغر الحفيدين. كان يلقاه فى بعض الطرقات مع بعض لداته، فيتقدم الرسول أمام القوم ويبسط للغلام يديه، والغلام يفرها هنا وها هنا، والرسول يمازحه ويضاحكه، ثم يأخذه، فيضع إحدى يديه تحت قفاه، والأخرى تحت ذقنه، ويقبله وهو يقول «حسين منى وأنا من حسين». كما كان يفعل ذلك مع أخيه الحسن حين كان صغيرًا.

وكان الرسول ﷺ يدخل فى صلاته، حتى إذا سجد جاء الحسين فركب على ظهره. وكان ﷺ، يطيل السجدة، فيسأله بعض أصحابه، إنك يا رسول الله سجدت سجدة بين ظهرانى صلاتك، اطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك فيقول النبى: «كل ذلك لم يكن، ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته».

وقد شاء الله أن ينتقل النبى إلى أكرم جوار، والحسين لم يزل صبيًّا صغيرًا وبويع أبو بكر بالخلافة، ولم يـزل الحسين غض الأهاب ثم ماتت أمه فاطمة الزهراء، فأنساه عطف أبيه وبره حزنه على أمه. ولما آل الأمر إلى عمر بن الخطاب، لم يكن الإمام الحسين قد بلغ الحلم من العمر، ولكن لما بويع عثمان بن عفان كان الحسين قد جاوز العشرين، فأضحى فتى مكتمل الخلق، واسع الأفق، عابدًا فى زهد، وعالما فى وقار. شابًّا فى حكمة الشيوخ. شجاعًا لا يهاب الموت فى سبيل الله.

كان الحسين فى طليعة المجاهدين الصابرين فلما سير عثمان بن عفان جيشًا لفتح طبرستان بقيادة سعيد بن العاص، اشترك الحسين فى الجهاد، ليبذل دمه إعلاءً لكلمة الله. وقاتل مع أبيه أصحاب الجمل، واشترك فى موقعة صفين، وقاتل الخوارج، وتنقل مع جيوش المسلمين لفتح أفريقية، وغزو جرجان وقسطنطينية ويؤكد المؤرخون أن الإمام الحسين قد زار مصر فى عصر عمر بن الخطاب مع جيش الفتح الإسلامى.

* * *

قصة استشهاد الإمام الحسين، هى قصة ذات جذور، لابد من الخوض فيها

والرجوع إلى أصولها وهى قصة العصبية والقبلية فى بنى أمية، التى لم يستطع الإسلام أن يذيبها تمامًا..

لقد آلت الخلافة إلى معاوية بن أبى سفيان، وحولها إلى ملك وراثى فى دمشق. وكان الإمام الحسن، أخو الإمام الحسين، يستطيع أن ينقلب على معاوية، لكنه حقنًا لدماء المسلمين لم يفعل ذلك رغم أن الحسين لم يرض بما حدث. ولكن الحسين ماذا يفعل وقد قطع أخوه الأكبر وعدًا وعهدًا، لا يمكن أن ينكصه.

ولذلك، فبعد موت الإمام الحسن، أصبح الحسين فى حل من الاتفاق، ووضع أمامه نصيحة أبيه التى أوصاهما بها قبل أن يموت. إذ جمع على بن أبى طالب الحسن والحسين وقال لهما: «أوصيكما بتقوى الله، ولا تطلبا الدنيا وإن طلبتكما، ولا تأسفا على شىء منها زوى عنكما. افعلا الخير، وكونا للظالم خصمًا، وللمظلوم عونًا».

ولم يقبل الحسين أن يخلف معاوية ابنه يزيد، وأن يكون على رأس الإسلام فتى فاسق وظالم. ولذلك، فإن الحسين لم يبايع «يزيد» ولم يعترف به، رغم أن يزيد كان يعتبر بيعة الحسين له شيئًا هامًّا.

كان الحسين فى المدينة المنورة، حين طلب يزيد وألح على واليه هناك، الوليد ابن عتبة، أن يأخذ له البيعة من الحسين وأصحابه. وعلى رأسهم عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر فمبايعة الحسين فى رأى يزيد كانت تساوى مبايعة الملايين من المسلمين، الذين أرهبهم بالسيف والوعد والوعيد أو الذين لم يرهبهم. ولذلك طلب يزيد من واليه على المدينة المنورة «أن يأخذ الحسين وعبد الله بن الزبير وعبد الله ابن عمر أخذًا شديدًا، ليس فيه رحمه»، إذا لم يبايعونه.

وقد التقى الوليد بالحسين، وطلب منه بيعة يزيد. ورفض الحسين. بينما فر عبد الله بن الزبير إلى مكة لاجئا إلى بيت الله الحرام، وبايع عبد الله بن عمر.

وفى المدينة بعد أن رفض الحسين مبايعة يزيد، ذهب مروان بن الحكم شيخ الأمويين إلى الوليد ولامه، لأنه أذن للحسين بالانصراف من مجلسه ولم يشدد عليه، ولم يحبسه «حتى يبايع أو تضرب عنقه». وهنا يقول الحسين لمروان: «أأنت تضرب

عنقى؟». ثم يلتفت إلى الوليد، ويقول: «يا أمير، إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، بنا فتح الله وبنا ختم. ويزيد فاسق فاجر، شارب الخمر، قاتل النفس المحرمة معلن بالفسوق والفجور.. ومثلى لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أينا أحق بالبيعة والخلافة»..

* * *

خرج الحسين من دار الوليد بن عتبة، وقد عزم على الهجرة من المدينة إلى مكة المكرمة. وفى مكة المكرمة ذاع خبر ما قاله الحسين للوليد ومروان، ورفضه بيعة يزيد. وهنا تتقاطر عليه الرسل من المسلمين عامة، وأهل الكوفة يبايعون الحسين بالخلافة. وتقول رسائلهم التى نشرتها مصادر كثيرة بتوسع: «.. الناس ينتظرونك، لا رأى لهم غيرك فالعجل العجل، يا ابن رسول الله. فقد أخضر الجناب وأينعت الثمار، وأعشوشبت الأرض، وأورقت الأشجار، فأقدم إذا شئت، فإنما تقدم على جنود مجندة لك. والسلام».

هنا يعتزم الحسين أمرًا. بعد أن بقى فى مكة أربعة أشهر لقد اعتزم الخروج من مكة المكرمة إلى الكوفة.

ويستشير أصحابه فيما عتزمه، فيحاول الكثير أن يثنيه عن عزمه. ويقول له ابن الزبير «لو أقمت بالحجاز، ثم أردت هذا الأمر - أى الخلافة - هنا لما خالفناك، وإنما ساعدناك وبايعناك ونصحناك».

ويرد الحسين على ابن الزبير بوجهة نظره قائلا: «إن أبى حدثنى أن لها - أى مكة المكرمة - كبشًا تستحل به حرمتها، فما أحب أنا أن أكون هذا الكبش».

لكن الحسين، قبل أن يشد رحاله إلى الكوفة، يرسل ابن عمه مسلم بن عقيل، ليمهد له ويتحاور مع أهل الكوفة ويرى إن كانوا جادِّين. ويذهب مسلم ابن عقيل، ويرسل من يقول للحسين أن تعال إلى الكوفة، فالكل على بيعتك. بل تقول المصادر التاريخية إن مسلم بن عقيل أبلغ الحسين، أن المبايعين له بلغوا ١٨ ألفًا فى تقدير ابن كثير، و٣٠ ألفًا فى تقدير ابن قتيبة.

وما بعث به مسلم بن عقيل إلى الحسين. جعله يصمم على السير إلى الكوفة لكن أعوان وعيون يزيد كان لهم شأن آخر مع مسلم.

ففى كربلاء، كانت جواسيس يزيد بن معاوية تعرف أن مسلم بن عقيل أرسل للحسين ليأتى إلى الكوفة. وهنا تتغير الأمور. كما يجرى تغيير والىِّ الكوفة النعمان ابن بشير، ليأتى بدله عبد الله بن زياد وتضم البصرة إليه. وكان عبد الله بن زياد من أم مجوسية تدعى مرجانة، وكان ألكن اللسان، وهو من أعوان يزيد الذين وصفهم العقاد فى كتابه «أبو الشهداء الحسين بن على». «جلادين وكلاب طراد، فى صيد كبير».

وقد استخدم عبد الله بن زياد مع أهل الكوفة من صنوف الإرهاب والقتل والصلب، حتى انفضوا عن مسلم بن عقيل. وبانت لمسلم حقيقة الموقف. وهنا يسارع بإرسال الرسل إلى الحسين ليرجوه ألَّا يأتى للكوفة لكن أعوان ابن زياد تقبض عليهم، ولم تصل رسالة مسلم إلى الإمام الحسين.

لقد استنصر مسلم أهل الكوفة لكنهم خذلوه وأصبح فى مواجهة أعوان يزيد، الذين بدءوا يطاردونه. فلجأ إلى بيت سيدة، لكن ابنها وشى به عند عبد الرحمن ابن الأشعث من أنصار يزيد. فأرسل ابن زياد سبعين رجلا إلى الدار التى بها مسلم، واقتحموها عليه ودارت معركة. وأخذ مسلم يضرب بسيفه، وأخرجهم من الدار مرارًا، إلا أنه أثخن بجراحه، وعجز عن القتال، وأخذ أسيرًا، ثم ضربت عنقه فى قصر ابن زياد، فلقى وجه ربه فى التاسع من ذى الحجة عام ٦٠ الهجرى. بينما سار الحسين قاصدًا الكوفة فى الثامن من ذى الحجة، أى قبل استشهاد مسلم بيوم واحد.

وفى الطريق إلى الكوفة، لقى الإمام الحسين الفرزدق، الشاعر المعروف المشهور بالتشيع لآل البيت. فسأل الحسين الفرزدق عن الموقف فى الكوفة، فقال له: «من خبير سألت: قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بنى أمية عليك، والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء». فقال الحسين: «صدقت على الأمر، يفعل ما يشاء، وكل يوم ربنا فى شأن، إن نزل القضاء بما نحب، فنحمد الله على نعمائه، وهو

المستعان على أداء الشكر؛ وإن حال الرجاء دون القضاء، فلم يعتد من كان الحق نيته والتقوى سريرته».

وقال مجمع بن عبيد العامرى تقديرًا للموقف «أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غرائرهم فهم ألب واحد عليك. وأما سائر الناس بعدهم فإن قلوبهم تهوى إليك، وسيوفهم غدًا مشهورة عليك».

* * *

سار الحسين وصحبه فى الطريق إلى الكوفة، ورأوا على البعد ألف فارس، على رأسهم الحر بن يزيد الرياهى، الذى بعث به عبد الله بن زياد بتعليمات محددة.

ولما دنا الجند، هب أصحاب الحسين، وهم ٧٢ أو ٨٢ كما يقولون ليدافعوا عن الحسين اعتقادًا منهم أن الحر بن يزيد جاء للقتال لكن الحر قال للحسين: «إنى لم أومر بقتالك، وإنما أمرت ألا أفارقك، حتى أقدمك إلى الكوفة على ابن زياد. فإذا أبيت فخذ طريقًا آخر لا يقدمك للكوفة، ولا يردك للمدينة».

ثم أخذ الحر يحذر الحسين، ويقول له «لئن قاتلت لتقتلن».

المهم أن الركبين سارا، ينظر بعضهما إلى بعض، كلما مال الحسين بأصحابه نحو البادية، أسرع الحر، فرده.

ثم إذا براكب يقبل يحيى الحر، ولا يحيى الحسين.

ويسلم الراكب الحر كتاب عبد الله بن زياد، يقول له فيه: «لا تنزل الحسين إلا بالعراء فى غير حصن، وعلى غير ماء. وقد أمرت رسولى أن يلزمك، فلا يفارقك، حتى يأتينى بأنك نفذت أمرى».

ولما بدا من الحر، أنه ينفذ أمر عبد الله بن زياد، قال أحد أصحاب الحسين: «يا ابن بنت رسول الله، إن قتال هؤلاء أهون علينا من قتال يأتينا بعدهم» لكن الحسين أعرض عن هذه المشورة. وقال: «إنى أكره أن أبدأهم بقتال» وهكذا أخلاقيات بيت النبوة.

ولكن الأمر بدأت خيوطه تتضح. وهو قتل الحسين.

ولذلك فإن الحر بن يزيد الرياهى، حين وصل ركب الحسين إلى كربلاء، ورأى من معه يهم بقتل الحسين، ولا يقنعون بحصاره، سأل عمر بن سعد، قائد الجيش: «أمقاتل أنت هذا الرجل؟». فلما قال: نعم. ترك الحر جيش يزيد، وذهب يقترب من الحسين حتى داناه، فقال له: جعلت فداك يا ابن رسول الله. أنا صاحبك، منعتك عن الرجوع، وجعجعت بك فى هذا المكان. وما ظننت القوم يردون عليك ما عرضته عليهم. ووالله لو علمت أنهم ينتهون بك إلى ما أرى، ما ركبت مثل الذى ركبت، وإنى تائب إلى الله مما صنعت، فهل ترى لى من توبة؟»

فقبل الحسين توبته.

وهذا الرجل - الحر - قاتل مع الحسين حتى قتل، فى الثانى من المحرم سنة ٦١ هـ.

وكان جند عبد الله بن زياد، قد أخذوا يضيقون على الحسين ومن معه، حتى أوصلوهم إلى مكان على بعد ٢٥ ميلا إلى الشمال الغربى من الكوفة. والمكان هو «كربلاء» وكربلاء كما يرى العقاد، عرفت قديمًا باسم «كور بابل» ثم صحفت إلى كربلاء، فجعلها هذا التصحيف عرضة لتصحيف آخر يجمع بين الكرب والبلاء كما وصفها بعض الشعراء.

* * *

أقام الحسين ليلته الأخيرة فى «كربلاء» وهو لا ينتظر من عاقبته غير الموت العاجل بعد سويعات. فأذن لأصحابه أن يتفرقوا عنه تحت جنح الليل، إن كانوا لا يستحبون أن يفارقوه فى ضوء النهار. فأبوا إلا أن يموتوا دونه. وكان مما قاله لهم الحسين، وجاء فى كتاب عبد الكريم الحسينى القزوينى بعنوان «الوثائق الرسمية لثورة الإمام الحسين»: «أما بعد.. فإنى لا أعلم أصحابًا أولى ولا خيرًا من أصحابى، ولا أهلا خيرًا من أهل بيتى، فجزاكم الله عنى جميعًا خيرًا، ألا وإنى أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدًا. ألا وإنى قد أذنت لكم فانطلقوا جميعًا ليس عليكم

من ذمام هذا الليل قد غشيكم، فاتخذوه جملا، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتى، ثم تفرقوا فى سوادكم وعدائكم، حتى يفرج الله، فإن القوم إنما يطلبوننى، ولو قد أصابونى سهوا عن طلب غيرى».

وقال له مسلم بن عوسجة الأسدى: «أنحن نتخلى عنك، ولم نعذر إلى الله فى أداء حقك، أما والله لا أفارقك، حتى أكسر فى صدورهم رمحى، وأضربهم بسيفى، ما بقى قائمه بيدى، ولو لم يكن معى سلاحى لقذفتهم بالحجارة حتى أموت معك».

وقد بر مسلم بقسمه، وبقى، ومات.

ثم دنا من الحسين حبيب بن مظاهر، يقول له:

«لولا أنى أعلم أنى فى أثرك، لا حق بك، لأحببت أن توصينى حتى أحفظ بما أنت أهل له».

وأقبل الفتى الصغير على بن الحسين - على زين العابدين - على أبيه، وقد علم أنهم مخيرون بين الموت والتسليم فسأله:

- ألسنا على الحق؟

قال الوالد:

- بلى والذى يرجع إليه العباد.

فقال الفتى:

- يا أبه! فإذن لا نبالى.

وهكذا، أصحاب الحسين وأهله كانوا جميعًا لا يبالون ما يلقون. ما علموا أنهم قائمون بالحق، وعليه يموتون.

وفى ليلة القتال أيضا جلس الحسين فى خيمته يعالج سهامًا له بين يديه، ويرتجز، وأمامه ابنه العليل على، يقول:

يا دهر أفٍّ لك من خليل　　كم لك بالإشراق والأصيل

من صاحب وماجد قتيل والدهر لا يقنع بالبديل
والأمر فى ذاك إلى الخليل وكل حى سالك سبيلى

وتسمعه أخته السيدة زينب، وتخرج إليه من خبائها حاسرة، تنادى:

«واثكلاه! اليوم مات جدى رسول الله، وأمى فاطمة الزهراء، وأبى على، وأخى الحسن فليت الموت أعدمنى الحياة يا حسيناه! يا بقية الماضين وثمالة الباقين.

وتبكى. ويبكى الحسين لبكائها، ويقول لها:

«يا أخت. لو ترك القطا لنام».

كان موضع معسكر الحسين، بحيث لا يبلغ الماء. يحول بينه وبين ذلك أربعة آلاف مقاتل يكثر فيهم الفرسان وراكبو الإبل، ويحملون صنوفًا من السلاح.

وأصبح الصباح، وبدأ اليوم الأغبر فى كربلاء.

وبينما الحسين أمام جند ابن زياد يبحثون عن شربة ماء، إذا بمجموعة من الفئة الظالمة تصيح به: «ألا ترى الفرات كأنه بطون الحيّات، والله لا تذوقه حتى تموت ومن معك عطشان». وكان هذا اليوم من الأيام الشديدة الحرارة.

ويشتد عطش الحسين، وعطش من معه من الصبية والصغار.

ويدعو الحسين على الظالمين: «أرجو أن يكرمنى الله بهوانكم. أنسيتمونى من أنا؟.. هل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى؟ ألست ابن نبيكم. أو لم يبلغكم ما قاله رسول الله لى ولأخى: هذان سيدا شباب أهل الجنة؟ ويحكم أتطلبوننى بقتيل لكم قتلته أو مال لكم استهلكته؟!».

ثم أخذ الحسين ينادى بأسماء أهل الكوفة الذين استدعوه من خلال رسالة مسلم بن عقيل الأولى: «يا شيت بن الربعى، يا حجار بن أبحر، يا قيس بن الأشعث، يا عمر بن الحجاج ألم تكتبوا إلى أن قد أينعت الثمار، واخضر الجناب. وإنما تقدم على جند لك مجندة؟!».

وهنا أوشك الحسين أن يزلزل أقدام العدو، وأن يضعف من حماس جنده فى الدفاع عن مولاهم يزيد. وتأكد له أنهم يخدمون ابن زياد رهبة منه، ورغبة فى ماله.

وقد خشى عمر بن سعد، قائد جيش ابن زياد أن يخرج الأمر من يده، فغذ بسهمه معلنًا بدء القتال، وتبعته السهام من كل جانب.

وهنا ينظر الحسين إلى أصحابه الذين بلغوا ٣٢ فارسًا و٤٠ راجلا، ويقول: «قوموا يا كرام، فهذه رسل القوم إليكم».

وهنا أيضًا ـ يوم الجمعة ـ تبدأ المأساة. مأساة كربلاء، التى وصفها ابن طباطبا مؤرخ آل البيت فى كتابه «الفخرى فى الآداب السلطانية».

ويقول خالد محمد خالد فى كتابه «أبناء الرسول فى كربلاء»:

«إن كربلاء ليست مأساة وفاجعة، ومناسبة للبكاء والعويل، ولكنها فى جوهرها ومضمونها الصحيح، مهرجان للحق وعيد للتضحية، ويوم فريد فى تاريخ الآلام والبطولات، وفى تاريخ المجد والعظمة. وإن أعظم ما صنع الحسين وأهله وصحبه فى ذلك، هو أنهم جعلوا الحق قيمة ذاته ومثوبة نفسه. فلم يعد النصر مزية له، ولم تعد الهزيمة ازدراء به. وان الاقدار لم تدع رءوس أبناء الرسول تحمل على أسنة رماح قاتليهم، إلا لتكون مشاعل على طريق الأبد للمسلمين، يتعلمون فى ضوئها الباهر، أن الحق وحده هو المقدس، وأن التضحية وحدها هى الشرف».

* * *

تفاصيل معركة كربلاء دقيقة بدقيقة منشورة فى كتب كثيرة، وخاصة كتاب «مقاتل الطالبيين». بالإضافة إلى كتاب محمد أحمد عاشور بعنوان «سيد شباب أهل الجنة»، وكتاب توفيق أبو علم: «أبو الشهداء، أبو عبد الله الحسين بن على». وكتاب عباس العقاد «أبو الشهداء، الحسين بن على» وعشرات وعشرات الكتب التى تناولت من قريب أو بعيد «مأساة كربلاء»، بالإضافة إلى مئات من كتب الشيعة التى الفت على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمان.

فى كربلاء حبسوا عن الحسين وأصحابه الماء ثلاثة أيام أو يزيد.

والحسين نفسه لم يبال بالعطش، لكن ماذا عن الأطفال؟.

لقد رأى ولده عبد الله يتلوى من ألمه وعطشه، وقد بُحّ صوته من البكاء، فحمله على يديه يهم أن يسقيه، ويقول للظالمين: «اتقوا الله فى الطفل، إن لم تتقوا الله فينا».

فأوتر رجل من نبالة الكوفة قوسه، ورمى الطفل بالسهم، وهو يصيح ليسمعه العسكران : «خذ اسقه هذا».. فنفذ السهم إلى أحشاء الطفل، وهو بين يدى والده.

واشتد عطش الحسين، وحاول أن يدنو من الفرات ليشرب، فرماه حصين ابن نمير بسهم وقع فى فمه، فانتزعه الحسين، وجعل يتلقى الدم بيديه، فامتلأت راحتاه بالدم، فرمى به إلى السماء وقد شخص إليها ببصره، وهو يقول: «اللهم إن تكن حبست عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير منه، وانتقم لنا من القوم الظالمين».

وقتلوا القاسم بن الحسن بن على بن أبى طالب. فإذا الحسين ـ كما يقول كتاب (مقاتل الطالبيين) ـ على رأس الغلام، وهو يفحص برجليه، والحسين يقول: «بعدًا لقوم قتلوك، خصمهم فيك يوم القيامة رسول الله». ثم قال الحسين: «عز على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك ثم لا تنفعك إجابته، يوم كثر واتره وقل ناصره». ثم احتمله على صدره وسار به.

أما عبد الله بن مسلم بن عقيل بن أبى طالب، فكان يمسح جبينه بيده، فأصابه سهم، فثبت يده فى جبهته.

وأما على الأصغر ابن الحسين، وكان أشبه الناس برسول الله ﷺ، فكان يخرج للقتال، ثم يعود لأبيه قائلا: يا أبت العطش. فيقول له الحسين: (اصبر يا حبيبى، فإنك لا تمسى حتى يسقيك رسول الله بكأسه). فينصرف للقتال، حتى أصابه سهم فى حلقه، فأقبل يشجب دمًا، ويقول: (أبتاه عليك السلام، هذا جدى رسول الله

يقرئك السلام، ويقول عجل القدوم إلينا). وشهق شهقة فارق فيها الدنيا.

وجعل الحسين يطلب الماء، فيقولون له: (والله لا تذوقه أو تموت عطشًا).

وخرج الحسين بزى جده النبى ﷺ، متقلدًا سيفه، لابسًا عمامته ورداءه، وخطب فى الناس وردد فى يوم شديد الوطأة ليقول:

(أنسيتمونى من أنا؟ هل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى؟ ألست ابن بنت نبيكم؟ أو لم يبلغكم ما قاله رسول الله لى ولأخى: هذان سيدا شباب أهل الجنة؟ ويحكم اتطلبوننى بقتيل لكم قتلته، أو مال لكم استهلكته؟)

لكن هذا لم يفعل فيهم شيئًا فبعد أن قتلوا اثنين وعشرين من شباب وشيوخ وصبية آل البيت، بدءوا يحاولون قتل الإمام الحسين، بل لم يهز أوتار قلوبهم القاسية كالحجارة الصلبة حينما سمعوا الحسين يقول: «اللهم إنا عترة نبيك محمد، قد أخرجنا وطردنا وأزعجنا عن حرم جدنا، وتعدت بنى أمية علينا. اللهم فخذ بحقنا، وانصرنا على القوم الظالمين».

ويأتى استشهاد الحسين، حين أمر شمر بن ذى الجوشن الكريه الأبرص، الرماة أن يرشقوا الحسين بالنبل. وكان الحسين يحمل على الأعداء وحده، فيتفرقوا تحرجًا من قتله، وكل منهم يخشى أن يصاب على يديه. حتى صاح فيهم شمر بن ذى الجوشن فاندفعوا نحو سيد الشهداء. فضربه زرعة بن شريك التميمى على يده اليسرى فقطعها، وضربه غيره على عاتقه فخر على وجهه. ثم جعل سيد الشهداء رحمه الله، يقوم ويكبو، وهم يطعنونه بالرماح، ويضربونه بالسيف، حتى سكن حراكه. فجاء من جز الرأس، ورفعها على رمح.. وسار بها إلى ابن زياد، ثم إلى يزيد فى دمشق. وقد وجدت بعد استشهاده ـ رضوان الله عليه ـ ثلاث وثلاثون طعنة فى جسده الشريف، وأربع وأربعون ضربة غير إصابة النبل والسهام. وأحصاها بعضهم فى ثيابه، فإذا هى مائة وعشرون.

وبعد استشهاد الحسين، وجز رأسه الشريف، أسرع أتباع يزيد إلى النساء من

بنات رسول الله ﷺ ينازعوهن الحلى والثياب، لا يزعهم عن حرمات رسول الله ﷺ وازع من دين أو مروءة.

ثم انقلبوا إلى جثة الحسين يتخطفون ما عليها من كساء تخللته الطعون، حتى أوشكوا أن يتركوها على الأرض عارية، لولا سراويل لبسها رحمه الله ممزقة. ثم ندبوا عشرة من الفرسان يوطئون جثته بحوافر الخيل، كما أمرهم ابن زياد، فوطئوها مقبلين ومدبرين، حتى رضوا ظهره وصدره.

وهكذا قتل الذكور من آل بيت النبى فى كربلاء.

ولم يبق غير الصبى على زين العابدين. يقول الشاعر سراقة الباهلى، حزنًا على الحسين.

عين جودى بعبرة وعويل　　　واندبى ما ندبت آل الرسول
سبعة منهم لصلب على　　　قد أبيدوا وسبعة لعقيل

استشهد الحسين ولما يمض على موت النبى ﷺ خمسون سنة. قطعوا الرءوس ورفعوها على الحراب أمامهم، وتركوا الجثث ملقاه على الأرض لا يدفنونها، ولا يصلون عليها، كما صلوا على جثث قتلاهم. ومروا بالنساء الشريفات حواسر الرءوس، فولولن باكيات، وصاحت السيدة زينب رضى الله عنها تستنجد وتستجير بجدها الرسول:

(يا محمداه! هذا الحسين بالعراء، وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة مسفى عليها الصبا).

وكان ما قالته السيدة زينب أصدق وصف لما بعد كربلاء.

وهكذا ـ كما يقول العقاد ـ ليس فى العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين عدة وقدرة وذكرًا. وحسبه أنه وحده فى تاريخ هذه الدنيا: الشهيد، ابن الشهيد، أبو الشهيد، فى مئات السنين.

* * *

بعد أن جاءوا برءوس آل البيت، وطافوا بها فى مدينة كربلاء نادى واليها ابن زياد إلى الصلاة الجامعة وصعد المنبر، ثم خطب القوم فقال:

(الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل الكذاب بن الكذاب الحسين بن على وشيعته).

فما أتم ابن زياد هذه العبارة، حتى وثب له من جانب المسجد، شيخ ضرير، هو عبد الله بن عفيف الأزدى، الذى ذهبت إحدى عينيه يوم الجمل، وذهبت عينه الأخرى يوم (صفين)، فصاح بالوالى غداة يوم انتصاره وزهوه، يقول له مستهزئًا به:

(يا ابن مرجانة! أتقتل أبناء النبيين، وتقوم على المنبر مقام الصديقين؟ إنما الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه).

فما طلع الصباح على هذا الشيخ الضرير، حتى وجدوه قتيلا مصلوبًا.

لكن العين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم، فما بالك بأبناء الرسول ﷺ.

لم تمض على كربلاء أربع سنوات، حتى مات يزيد، وهو يسابق قردًا فوقع من فوق حصانه.

وخرج من أهل الكوفة جماعة (التوابين)، وداعيتهم المختار بن أبى عبيد الثقفى، وأقسموا ألّا يتركوا واحدًا من قاتلى الحسين.

أما عبد الله بن زياد فقتل وأحرق.

وشمر بن ذى الجوشن القيت أشلاؤه للكلاب.

وكان مجرد شبهة الاشتراك فى كربلاء، كافيًا لذبح صاحبه وسحله وحرقه وصلبه. وقد بلغ من انتقام جماعة التوابين، حدًّا فاق مذابح كربلاء.

وتلاحقت فيما بعد النكبات على أسرة معاوية وعلى الأمويين بصفة عامة حتى خرج لهم السفاح، ونبش قبورهم، وتعقب رجالهم، حتى قضى عليهم جميعًا.

ولم يخطر ببال إنسان أن يومًا واحدًا سيدفع الأمويون ثمنه جيلا كاملا ودولة ضخمة.

وهكذا ـ كما يقول العقاد ـ تشاء مصادفات التاريخ إلا أن ترى هذه البقاع حربًا، هى أولى أن تسمى حرب النور والظلام، من حرب الحسين ومقاتليه. كان الحسين فى دفاعه معنى من الإيمان بالواجب كما تخيله ورآه. ولكن الجيش الذى أرسله عبد الله بن زياد من قبل يزيد بن معاوية لحرب الحسين، كان جيشًا يحارب قلبه لأجل بطنه، أو يحارب ربه لأجل واليه، إذ لم يكن فى جيش يزيد رجل واحد يؤمن ببطلان دعوى الحسين، أو رجحان حق يزيد. فكانوا حقًا فى يوم كربلاء، قوة من عالم الظلام، تكافح قوة من عالم النور.

وهكذا كانت كربلاء، كما يقول مارين المؤرخ الألمانى، نقلا عن كتاب العقاد:

«إن حركة الحسين فى خروجه على يزيد، كانت عزمة قلب كبير، عز عليه الإذعان، وعز عليه النصر العاجل، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذى يبلغ به النصر الآجل، بعد موته، وتحيى به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة».

* * *

حى الحسين فى القاهرة القديمة، اتصل بهذا الحادث الجليل فى كربلاء. وكان هذا الاتصال عن طريق تسلسل تاريخى، تحتويه عشرات من كتب المؤرخين، وتشير إليه الوقائع والأحداث.

فى مكان المشهد الحسينى، بدأت القاهرة القديمة من ألف عام أو يزيد، على يد الفاطميين، نسبة إلى فاطمة الزهراء، أم الحسين، وابنة رسول الله ﷺ، وزوجة على ابن أبى طالب. وقد روى عن الإمام على بن موسى الرضا أنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله فطم ابنتى فاطمة وولديها ومن أحبهم، من النار».

منطقة المشهد الحسينى كانت مقر حكم الفاطميين فى القاهرة. وفى مكان المشهد الحسينى الحالى وحوله كان «قصر الزمرد»، أهم قصور دولة الفاطميين. وهذا القصر كان يشمل منطقة خان الخليلى، ويمتد ربما إلى حافة شارع بورسعيد الآن. وفى مكان

قصر الزمرد ـ وكان أشرف مكان بالقصر تقام به الصلاة ـ جيء بالرأس الشريف ليدفن هناك. ولأن الزمرد لونه أخضر، فقد سميت المنطقة بالباب الأخضر. ومنطقة الباب الأخضر، هي التي تضم مقام الإمام الحسين رضى الله عنه. وهذا المقام يضم الرأس الشريف، وعليه الآن مقصورة من الفضة، تحوى فصوصًا خمسًا من الماس هدية من طائفة البهرة. وكانت المقصورة قبلها من خشب الساج الهندى، المحفور والمعشق.. نقلت إلى متحف الفن الإسلامى. وقبل مقصورة الفضة كانت هناك مقصورة من النحاس نقلت إلى مشهد آخر.

وقد ترددت الآراء حول رأس الإمام الحسين.

رواية تقول: إن الرأس أرسل إلى عمرو بن سعيد بن العاص، وإلى يزيد على المدينة المنورة، حيث قام الوالى بدفنها فى البقيع عند قبر السيدة فاطمة.

ورواية أخرى تقول، إن الرأس وجد بخزانة يزيد بن معاوية بعد موته، فأخذ، ودفن بدمشق عند (باب الفراديس).

ويقول ابن كثير: (وادعت الطائفة المسماة بالفاطميين، الذين ملكوا الديار المصرية أنهم دفنوه بها وبنوا عليه المشهد المشهور بمصر.

ويحصى العقاد عدة أماكن ذكرت بأن رأس الإمام الحسين دفن فيها، وهى المدينة المنورة، كربلاء، الرقة، دمشق، عسقلان، القاهرة، مرو.

وأقرب رواية للتاريخ أنه بعد استشهاد الإمام الحسين على أرض كربلاء جرى التمثيل بالجثة. فقدم الجسد الطاهر خولى بن يزيد الأصبحى، ليجز الرأس، لكنه لم يستطع، وارتعد جسده فتقدم شمر بن ذى الجوشن بنفسه وجز الرأس، ثم أرسله إلى يزيد بن معاوية ليتلقى المكافأة، وهى توليته على إحدى الإمارات الإسلامية.

وترى د. سعاد ماهر.. أن أقوى الآراء هو الذى يقول إن الرأس طيف به فى الأمصار الإسلامية حتى وصل إلى عسقلان حيث دفن هناك. وحينما استولى الفرنجة على عسقلان، تقدم الصالح طلائع وزير الفاطميين بمصر، فدفع ٣٠ ألف درهم، واسترد الرأس الشريف ونقله إلى القاهرة.

ويؤيد هذا الرأى ابن خلكان، الذى يذكر فى تاريخه: (أن رأس الحسين ابن بنت محمد ﷺ، كان مدفونًا بعسقلان قبل نقله إلى مصر، وأن الأفضل شاهنشاه، بنى مشهد الرأس فى عسقلان).

وابن بطوطة، يؤيد الرواية·ويقول بعد زيارته لعسقلان: ثم سافرت من القدس الشريف إلى ثغر عسقلان، وهو خراب، قد عاد رسومًا طامسة وأطلالا دارسة. وبها المشهد الشهير، حيث كان رأس الحسين بن علي قبل أن ينقل إلى القاهرة، وهو مسجد عظيم سامى العلو).

ثم يقول ابن بطوطة عند زيارته للقاهرة: (ومن المزارات الشريفة، المشهد المقدس العظيم الشان، حيث رأس الحسين بن على، وعليه رباط ضخم عجيب البناء، على أبوابه حلق فضة وصحائفها، وهو موفى الحق من الإجلال والإعظام).

ويقول المؤرخ الهروى فى كتابه (الإشارات إلى أماكن الزيارات). «وفيها-أى عسقلان- مشهد الحسين.. فلما أخذتها الفرنج، نقله المسلمون إلى مدينة القاهرة سنة تسعة وأربعين وخمسمائة».

وتفند الدكتورة سعاد ماهر الآراء التى قيلت، من الناحية الأثرية، من خلال كتابيها «مخلفات الرسول فى المشهد الحسينى»، «ومساجد مصر».

فعن القول بوجود الرأس فى المدينة المنورة، هناك ما ينقضه الدليل المادى الذى ذكره المسعودى، وهو أنه كان يوجد حتى القرن الرابع الهجرى شاهد مكتوب عليه العبارة الآتية: (الحمد لله مميت الأمم ومحيى الأمم هذا قبر فاطمة بنت رسول الله ﷺ، سيدة نساء العالمين، والحسن بن على بن أبى طالب، وعلى بن الحسين بن على، ومحمد بن على، وجعفر بن محمد. رضوان الله عليهم أجمعين).

فلو أن الرأس كان مدفونًا فى البقيع، لما أغفل ذكر اسم سيد الشهداء. وهذا النص منقول من كتاب «الإشراف والتنبيه» للمسعودى عن ابن كثير فى «البداية والنهاية».

أما قول غالبية الشيعة الإمامية (الاثنا عشرية)، بأن الرأس مدفون مع الجسد

فى كربلاء، فهو لا تؤيده مراجعة الحوادث. فمن المستبعد عقلا، أن يعيد يزيد ابن معاوية الرأس إلى كربلاء، حتى لا يزيد النار اشتعالا، وهو يعلم بأنها مركز الشيعة والمتشيعين للإمام الحسين، والمؤيدين لمذهبه. هذا بالإضافة إلى ما جاء فى أحداث سنة ٢٣٦ هـ. من أن الخليفة المتوكل أمر (النويريج) بالمسير إلى قبر الحسين وهدمه. فتناول النويريج مسحاة وهدم أعلى قبر الحسين وانتهى هو ومن معه إلى الحفر أو موضع اللحد، فلم يروا أثرًا للرأس. ولا يمكن أن يتصور أحد أن الرأس قد بلى فى ذلك الوقت المبكر، إذا عرف أن أرض كربلاء رملية تحتفظ بالعظام مئات السنين.

أما الرأى الذى يقول إن الرأس موجود فى رباط مرو بخراسان. فهو منقوض من أساسه، لأن أبا مسلم الخراسانى، الذى قيل إنه نقل الرأس من دمشق، لما استولى عليها، وبنى عليها الرباط بمرو، لم يكن أبو مسلم موجودا بالشام وقت فتحها أيام العباسيين، ثم إن العباسيين لو ظفروا بالرأس لأظهروه للناس.

وأقرب الآراء، أن الرأس وضع أول الأمر فى خزائن السلاح بدمشق، ثم دفن فى عسقلان على البحر، وحين استولى الفرنجة على عسقلان تقدم الصالح طلائع ابن رزيك، وزير الفاطميين بمصر، فدفع ٣٠ ألف درهم، واسترد الرأس الشريف، ونقله إلى مصر، حيث جاء الرأس فى حراسة ثلة من الجند، واستقبله الخليفة الفاطمى كما يقول الإمام الشعرانى فى (طبقات الأولياء): هو وعسكره حفاة عند الصالحية وقد وضع الرأس الشريف فى كيس أخضر من الحرير، على كرسى أبنوس، وفرش تحته المسك والطيب، وبنى عليه القبة المعروفة.

والدليل على وجود الرأس الشريف، ما ذكره عثمان مدوخ فى كتابه (العدل الشاهد فى التحقيق المشاهد). وقد ألفه فى القرن التاسع عشر. وقال فيه: «إن المرحوم عباس كتخدا الفزدوغلى لما أراد توسيع المسجد المجاور للمشهد الحسينى، قيل إن هذا المشهد لم يثبت فيه دفن. فأراد تحقيق ذلك، فكشف المشهد الشريف بمحضر من الناس ونزل فيه الأستاذ الجوهرى الشافعى والأستاذ الشيخ الملوى المالكى.. وكانا من كبار العلماء العاملين، وشاهدا مما بداخل البرزخ، ثم ظهرا

وأخبرا بما شهداه. وهو كرسى من خشب الساج عليه طست من ذهب، فوقه ستار من الحرير الأخضر، تحتها كيس من الحرير الأخضر الرقيق، داخله الرأس الشريف).

والذى نريد أن نقوله هنا.. إننا لا نرجح وجود الرأس الشريف فقط؛ بل إننا نؤكد ذلك، ليس مما أوردناه من الأدلة.. وإنما أيضًا من خلال الاهتمام بالمشهد الحسينى قرنًا وراء قرن. ذكرنا بعضًا منه وأغفلنا الكثير من الاهتمامات المتنوعة.

ودليل آخر محسوس ملموس، هو كثرة الإخوة الإيرانيين، الذين جاءوا إلى مصر عبر العصور، واختاروا مقامهم وسكناهم، بل مقار أعمالهم، بجوار الرأس الشريف. حتى أن الكثير من الأسماء الإيرانية كانت إلى فترة قصيرة – وما تزال ـ تنتشر فوق الدكاكين والوكالات وغيرها، وانتشر حول المشهد بالذات بيع السجاد الشيرازى والتبريزى.

ويضاف إلى ذلك تلك المقصورة التى أهدتها جماعة البهرة للمشهد الحسينى. وهذه الجماعة فيها الكثير من العلماء والباحثين الذين درسوا وتأكدوا من وجود الرأس الشريف. وهو السبب فى إهدائهم المقصورة عام ١٩٦٥ والتى تكلفت ٣٠٠ ألف جنيه جمعت من جماعة البهرة أنفسهم. بالإضافة إلى تلك المقصورة التى أهديت إلى مشهد السيدة زينب رضى الله عنها.

والواقع أن لجلال المشهد وبركته، فإن الدولة فى مصر المؤمنة، قد جعلت من المشهد الحسينى المسجد الرئيسى الذى يختص بصلاة العيدين فيه.. كما تقام فيه أيضًا الاحتفالات بالمناسبات الدينية الهامة.

هكذا يثبت وجود الرأس فى مصر.

وعلى أية حال، ففى أى مكان رأس الحسين أو جسده ـ كما يقول سبط الجوزى ـ فهو ساكن فى القلوب والضمائر، قاطن فى الأسرار والخواطر.

والمهم كما يرى العقاد: «أيًّا كان ذلك الموضع الذى دفن فيه الرأس الشريف، فهو فى كل موضع أهل للتعظيم والتشريف. وإنما أصبح الحسين بكرامة الشهادة،

وكرامة البطولة، وكرامة الأسرة النبوية.. معنى يحضره المسلم فى صدره، وهو قريب أو بعيد من قبره).

لكن ماذا بقى من القديم الآن، وقد ثبت أن الرأس الشريف موجود فى مشهد الإمام الحسين بمصر؟!

يقول المقريزى: «نقل رأس الحسين من عسقلان إلى القاهرة يوم الأحد ٨ من جمادى الآخرة سنة ٥٤٨ هـ. (٣١ أغسطس ١١٥٣ م.) وصل الرأس إلى القاهرة يوم الثلاثاء العاشر من نفس الشهر. ثم أنزل بالرأس إلى الكافورى ـ حديقة القصر الفاطمى ـ ثم حمل فى سرداب إلى قصر الزمرد ودفن عند قبة الديلم بباب دهليز الخدمة.

ويضيف ابن عبد الظاهر أن طلائع بن زريك بنى الجامع خارج باب زويلة ليدفن الرأس به ويفوز بهذا الفخار، فغلبه أهل القصر الفاطمى، وعمدوا إلى هذا المكان الموجود به الآن وهو قصر الخلافة الفاطمية فى ذلك الوقت، وبنوه له. وكان ذلك فى خلافة الفائز الفاطمى سنة ٥٤٩ هـ. (١١٥٤ م). وحمل الرأس الشريف فى سرداب طويل حفر تحت الأرض من باب زويلة إلى القبة الشريفة.

ويقول ابن جبير الذى زار مصر فى عصر الأيوبيين وبعد الحريق الذى شب فى المشهد عام ٦٤٠ هـ. فى عهد الصالح نجم الدين أيوب، أنه أنشئت منارة على باب المشهد عام ٦٣٤ هـ. (١٢٣٧ م). أنشأها أبو القاسم بن يحيى السكرى، ولم يتمها فأتمها ابنه وهى مليئة بالزخارف الجصية والنقوش، تعلو الباب الأخضر. وقد قام بترميمها وتوسيعها بعد ذلك القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى. ثم فى عصر الناصر محمد بن قلاوون أمر بتوسيع المسجد عام ٦٨٤ هـ. وفى العصر العثمانى أمر السلطان سليم بتوسيع المسجد لما رآه من الإقبال العظيم من الزائرين والمصلين. ثم بعد ذلك أحضرت للمسجد عمد الرخام من القسطنطينية، وبنيت ثلاثة أبواب من الرخام جهة خان الخليلى ومثلها الباب الأخضر الذى بجوار القبة بالجهة الشرقية.

ولما قدم مصر السلطان عبد العزيز العثمانى عام ١٢٧٩ هـ. وزار المقام الحسينى،

أمر الخديو إسماعيل بعمارته وتشييده على أتم شكل وأحسن نظام، واستغرقت العملية التى أشرف عليها على باشا مبارك ووصفها فى خططه، عشر سنوات.

هذه ملامح مما حدث لسبط الرسول، ﷺ، وحضور رأسه الشريف إلى مصر، وتشريف مصر به. مما يجعل المشهد الحسينى قبلة لمحبى آل البيت، والمؤمنين الصابرين المجاهدين.

* * *

أقيم المشهد الحسينى، لكن الدولة الفاطمية تلاشت.

ومما يثبت وجود الرأس الشريف، أن الأيوبيين الذين انهوا الحكم الفاطمى الشيعى بمصر، اهتموا بالمشهد. فصلاح الدين جعل به حلقة تدريس وفقهاء، وفوض ذلك للفقيه البهاء الدمشقى السنى المذهب. وكان يجلس عند المحراب الذى يقع الضريح خلفه. وفى مكان هذه المدرسة بنى المسجد الحسينى. وزيادة فى الاهتمام - كما يقول الأثرى حسن عبد الوهاب - فإن صلاح الدين الأيوبى أهدى للمشهد مقصورة، تشبه المقصورة التى أهداها للإمام الشافعى عام ٥٧٤ هـ. (وقبل صلاح الدين كان الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذى بنى إيوانًا للتدريس، وبيوتًا خاصة للفقهاء. وقد وصفها ابن جبير فى رحلته. وهذا الرحالة زار مصر عام ٥٧٨ هجرية. وفى عصر الكامل الأيوبى بنيت المنارة على باب المشهد عام ٦٣٤، تعلو الباب الأخضر تهدم معظمها ولم يبق منها حتى الآن إلا القاعدة المربعة وعليها لوحتان تثبتان ذلك.

وفى عصر الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ - ٦٤٧ هجرية)، احترق بناء المشهد فى عام ٦٤٠ هجرية. وقد رممه الصالح ووسعه، وألحق به ساقية وميضأة، ووقف عليه أراضى؛ وظلت العناية بالمشهد الحسينى أيام المماليك. فالظاهر بيبرس حين بيعت قطعة أرض بجانب المشهد من حقوق القصر الفاطمى، رد ثمنها وهو ٦ آلاف درهم ووقفها على الجامع. ثم إن الناصر محمد بن قلاوون وسع المسجد عام ٦٨٤ هجرية.

وفى العصر العثمانى، تم توسيع المسجد نظرًا للإقبال الشديد عليه من جماهير مصر المحمنة، وضعت له مقصورة من أبنوس مطعم بالصدف عليه ستر من الحرير المزركش، ونقلت إلى المشهد الحسين فى احتفال كبير وصفه الجبرتى بأنها حملت وأمامها طائفة الرفاعية والصوفية بطبولهم وأعلامهم، وبأيديهم المباخر الفضية وبخور العود والعنبر، وبأيديهم قماقم ماء الورد يرشونه على الناس.

أما عبد الرحمن كتخدا، فقد أعاد بناء المسجد عام ١١٧٥ هجرية وعمل له صهريجا وحنفية، وخصص رواتب لخدمه وسدنته. ثم إنه فى عهد الخديو إسماعيل كما يقول على باشا مبارك ـ أعاد عمارته وتشييده واستغرق ذلك عشر سنوات وفرش بالفرش النفيسة، ونوّر بالشموع والزيوت الطيبة والأنفاس الغازية فى قناديل البللور ورتبوا له فوق الكفاية من الأئمة والمؤذنين والمبلغين والبوابين والفراشين والكناسين والوقادين والسقايين ونحو ذلك، وأوقفوا عليه أوقافًا جمة بلغ أيرادها نحو ألف جنيه فى السنة.

وكما يقول على مبارك أيضا: إنه فتح بجوار الجامع عام ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨ م) شارع السكة الجديدة.

وعلى مبارك نفسه كمهندس قام بتصميم البناء الحالى. وقد صرف على هذه العمارة ٧٩ ألف جنيه من ميزانية الأوقاف، هذا عدا ما تبرع به الأمراء وعلية القوم.

ويذكر أنه أُحضرت للمسجد الأعمدة الرخامية من القسطنطينية. وقد احتوى صحن الجامع على ٤٤ عمودًا. كما بنى له المئذنة الكبيرة الحالية على الطراز العثمانى، وهى تشبه القلم الرصاص. وعلى هذه المئذنة لوحتان بخط السلطان عبد المجيد خان.

* * *

على أننا لا يمكن أن نتحدث عن المشهد الحسينى، دون أن نتحدث عن غرفة تجاور الرأس الشريف. وهذه الغرفة أنشأها عباس حلمى الثانى لمجموعة من

الآثار النبوية الشريفة، كانت قد نقلت إلى المشهد الحسينى عام ١٣٠٥ هجرية وحفظت فى دولاب فى الجدار الجنوبى الغربى للمزار الشريف.

وهذه الغرفة الآن مفروشة بالسجاد الثمين، وفيها مصابيح وثريات بلّورية نادرة، وجدرانها مكسوة بالرخام المجزع، وبها محراب صغير، كما أنها تحتوى على دولار عبارة عن دولاب حائط، وهو فجوة فى الجدار قُوّى ظهرها بقضبان من حديد، وكسيت بالجوخ الأخضر. ولهذه الفجوة باب من خشب الجوز المطعم بالعاج والصدف والأبنوس، وكتب بأعلى الباب بأحرف من عاج ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾.

هذه الغرفة لها بابان، أحدهما يفتح على المسجد، والآخر يفتح على مشهد الإمام الحسين. وفى داخل الدولاب الآثار النبوية الشريفة، وتشمل قطعة من قميص الرسول ﷺ، ومكحلة ومرودًا، وقطعة من قضيب، وشعرات من شعره الشريف، ثم مصحفين كريمين بالخط الكوفى على رق غزال، أحدهما منسوب لسيدنا عثمان، والثانى لسيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنهما.

وهذه الآثار النبوية الشريفة ـ كما تقول المصادر ـ تداولها آل البيت وتسارع عليها الخلفاء والأمراء.

وقد ذكرت المصادر أيضًا، أن ما تركه رسول الله ﷺ بعد وفاته: ثوبًا حبرة، وإزار عثمانى، وثوبان صحاريان، وقميص صحارى، وقميص سحولى، وسراويل، وجبة يمانية وخميصة أو كساء أبيض، وقلانس.. ومجموعات من شعره الشريف.

أما هذه الآثار الموجودة بالمشهد الحسينى فهى بعض ما خلفه الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد قامت د. سعاد ماهر بدراسة هذه الآثار ويقال إن هذه الآثار فى مصر كانت عند بنى إبراهيم فى مدينة ينبع بالحجاز، وهؤلاء توارثوها وفى القرن السابع الهجرى (١٣ ميلادى) فى عصر الظاهر بيبرس، اشترى هذه الآثار الشريفة من بنى إبراهيم الوزير المصرى الصاحب تاج الدين. لكن اختلف على المبلغ الذى دفع، فمصادر تقول إنه دفع فيها ٦٠ ألف درهم فضة، وقيل مبلغ

٢٥٠ ألف درهم، وقيل كذلك مائة ألف درهم. وهذه الآثار نقلت إلى مصر وحفظت بمكان على النيل سمى «رباط الآثار» أو الرباط الصاحبى التاجى. وعرف مؤخرًا باسم «أثر النبى» فى حى مصر القديمة.

وهذا الرباط لأهميته، كان له شيخ يشغل وظيفة «شيخ الآثار النبوية». وكان هذا الشيخ من القضاة الموثوق بهم. ومنهم من ذكره ابن إياس فى حوادث عام ٨٨٩ هجرية وهو الشيخ ولى الدين أحمد. وفى «الضوء اللامع» للسخاوى ذكر فى عام ٨٧٠ هجرية كان شيخ رباط الآثار هو ولى الدين أبو زرعة أحمد ابن محمد، الذى نقل قاضيًا لدمياط.

والواقع أنه كما اختلف المؤرخون ـ على عادتهم ـ على ثمن شراء هذه المخلفات النبوية من بنى إبراهيم، فقد اختلفوا أيضًا فى نوعها وعددها. ولكنهم يذكرون الكثير عن رباط الآثار، وكيف بُنى ومن بناه، ومهاجمة مياه الفيضان له.. واهتمام الخلفاء والسلاطين به، ومنهم الأشرف شعبان فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى، ومنهم أيضا السلطان برقوق عام ٧٨٤ هجرية.

والمهم أن هذه المخلفات النبوية الشريفة ظلت فى رباط الآثار إلى أن نقلت منه إلى قبة السلطان الغورى عام ٩٢٦ هجرية أو قبل هذا التاريخ، خشية السرقة بعد أن تصدع مبنى رباط الآثار.

ولقد بقيت هذه الآثار بقبة الغورى حوالى ثلاثة قرون، إلى أن نقلت فى عام ١٢٧٥ هجرية إلى المشهد الزينبى، ثم نقلت منه إلى خزانة القلعة، واستمرت بها حتى عام ١٣٠٤ هجرية، وبعدها نقلت إلى ديوان عموم الأوقاف، ثم فى عام ١٣٠٥ هجرية نقلت إلى سراى عابدين، ومن سراى عابدين إلى المشهد الحسينى فى دولاب خاص إلى أن أنشئت لها الغرفة الحالية عام ١٣١١ هجرية.

وعملية النقل من قصر عابدين إلى المشهد الحسينى جرت فى احتفال كبير، تقدمه رجال الطرق الصوفية.. وتقدمه الشيوخ المهدى والبكرى والسادات، وقناصل الدول وغيرهم، وسار الموكب الكبير من قصر عابدين، بشارع

عبد العزيز، فالعتبة الخضراء، إلى شارع محمد على، فميدان باب الخلق، فطريق تحت الربع، فالسكرية، فالعقادين بالغورية، فالسكة الجديدة إلى أن وصلت إلى المشهد الحسينى

ولكن يأتى سؤال هنا: هل هذه المخلفات النبوية الشريفة الموجودة بالمشهد الحسينى، هى المخلفات الموجودة فقط والتى تم توارثها منذ عصر النبوة؟

إن فى المشهد الحسينى ـ كما أحصت د. سعاد ماهر ـ ثلاث قطع من النسيج، وقطعة من القضيب ـ أى العصا ـ والمكحلة، والمسبل، أو المرود ـ وبعض شعر اللحية والرأس الشريف.

وبالطبع فهناك الكثير فى عالم الإسلام فى اسطنبول، وباكستان، وتونس، بل هناك فى المسجد الأحمدى فى طنطا غرفة خاصة وخزانة خاصة بها شعرات من شعر رسول الله ﷺ.

الواقع أنه منذ أن مات رسول الله ﷺ ـ بل وقبل وفاته ﷺ ـ كانت مثل هذه المخلفات الشريفة ـ مطلبًا للمسلمين، يحفظونها بين أحداق العيون. بمعنى أنه لم يكن بنو إبراهيم فى ينبغ وحدهم الذين توارثوا مخلفات الرسول، فالكثير كان لديهم الكثير من المخلفات الشريفة، بل إنه فى مصر أيضًا كانت هناك كثير من المخلفات الشريفة ـ خاصة الشعرات ـ فى الخانقاوات والمساجد. والمقتنيات الخاصة.

وهذا يعنى أن فى المشهد الحسينى قليلاً من كثير من الآثار النبوية الشريفة، بل إنه ـ وهذا ما يثبت وجهة نظرى ـ فى المشهد الحسينى، كما أحصيت، ١٥ شعرة من شعرات الرسول الشريفة، فبعضها اشترى من بنى إبراهيم، وبعضها أهدى للمشهد الحسينى. وهذا يؤكد ما قيل من أن الرسول ﷺ كان يهدى شعره بين الناس.

أما بالنسبة للمصحف المنسوب لعثمان بن عفان، والمصحف الآخر المنسوب لعلى بن أبى طالب فإنهما كما تـؤكد د. سعاد ماهر ـ ليسا هما المصحفين الأصليين، وأنهما منسوخان فى عصر بعد عصر الخليفتين الراشدين رضى الله عنهما وأرضاهما.

السيدة زينب
بطلة كربلاء

وقع النبأ على مصر موقع استحسان وتمن، حتى أنه أثلج الصدور، التى كانت ما تزال خضراء بنور الإسلام.

كان أهل مصر فى نكد وغم، بعد أن وصلهم نبأ استشهاد الإمام الحسين بن على فى كربلاء، وقتل عترة رسول الله وسبطه حيث استشهد اثنان وسبعون من رجال بنى هاشم والصحابة والتابعين.

وسرت همهمات فى مدينة الفسطاط عاصمة مصر بعد الفتح الإسلامى. هل يمكن أن يكون صحيحًا أن أخت الحسين، زينب بنت على بن أبى طالب، حفيدة رسول الله من ابنته فاطمة الزهراء، قد قررت أن تأتى إلى مصر، لتعيش فيها بقية عمرها؟

* * *

والحكاية التى اهتزت لها أوتار قلوب مصر بالتفصيل هى أن السيدة زينب عقيلة بنى هاشم بعد ما جرى لأهل البيت فى كربلاء ودمشق عادت إلى المدينة المنورة. وفى المدينة المنورة، أخذت تعتلى المنابر.. تخطب فى الجماعات، وتكشف عدوان بنى أمية وأعوانهم على أهل بيت النبى. فكان أن هيجت المشاعر، وألهبت الجماهير على بنى أمية. مما جعل عمرو بن سعيد والى المدينة يستنجد بيزيد بن معاوية، خوفا من غضبة الناس. بعث عمرو إلى الخليفة الأموى يقول له: «إنى أخاف على ملك الأمويين من زينب بنت على فقد اجتمع الناس حولها؛ لقوة بلاغتها وفصاحتها فى الحديث معهم»!

وهنا يأمر يزيد واليه بأن تغادر زينب المدينة المنورة، إلى حيث تشاء من أرض الله غير الحرم الشريف فى مكة المكرمة.

وذهب الوالى للسيدة زينب يخبرها بأمر يزيد.

لكنها عظم عليها أن ترحل من أرض الآباء والأجداد، فقالت قولتها الشهيرة:

«لقد علم الله ما صار إليه أمرنا. قتل خيرنا وانسقنا كما تساق الأنعام، وحملنا على الأقتاب ـ قتب الجمل بدون كساء ـ فوالله لأخرجنا، وإن أهريقت دماؤنا».

ويستفحل الأمر.

وهنا تتدخل سميتها السيدة زينب بنت عقيل بن أبى طالب، وتقول لحفيدة الرسول:

«يا بنت عماه، قد صدقنا الله وعده، وأورثنا الأرض نتبوء منها حيث نشاء فطيبى نفسًا وقرى عينًا، وسيجزى الله الظالمين، أتريدين بعد ذلك هوانًا؟ ارحلى إلى بلد آمن».

ثم تجتمع عليها نساء بنى هاشم، حتى تقبل الرحيل. وتختار عقيلة بنى هاشم مصر دارًا لإقامتها؛ لما سمعته عن أهلها من محبتهم لآل البيت وولائهم ومودتهم لذوى القربى، ولما تعرفه من أن مصر كنانة الله فى أرضه. من أرادها بسوء قصمه الله. ولما سمعته مما حدثت به أم سلمة، ورواه مسلم، من أن رسول الله ﷺ أوصى بأهل مصر، فقال:

«إنكم ستفتحون مصر، وهى أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحما».. وفى حديث آخر «ذمة وصهرًا».

وقد اصطحبت السيدة الكريمة ـ كما يقول كتاب السيدة زينب للأستاذ على أحمد شلبى ـ فى مجيئها إلى مصر بعض أهل البيت الكرام. وكان ممن صحبنها من أهل البيت النبوى الكريم ـ كما يروى البعض ـ السيدة فاطمة ابنة مولانا الإمام الحسين، وكذلك أختها السيدة سكينة، قال بهذا محمد بن عبد الله، عن جعفر بن

محمد الصادق عن أبيه، عن الحسن بن الحسين رضى الله عنهم جميعًا.

ونأتى إلى حضور السيدة زينب إلى مصر وتشريفها أرض الكنانة. لقد سارت السيدة زينب من المدينة المنورة إلى مصر، وفى معيتها بعض أهل البيت الكرام.

حين وصل النبأ بقرب وصولها ذهب والى مصر، مسلمة بن مخلد الأنصارى ومعه جماعة من أصحابه ورهط كبير من أعيان الولاية وتجارها ووجهائها وأعيانها ليكونوا فى شرف استقبالها عند قرية شرقى بلبيس، عرفت فيما بعد باسم «العباسة» أيام الطولونيين. والعباسة هى بنت أحمد بن طولون.

وحين وصل ركبها عند العباسة وشاهدت احتفاء أهل مصر بها وعلى رأسهم مسلمة بن مخلد الأنصارى، وعبد الله بن الحرث، وأبو/عميرة المزنى، عزاها مسلمة فبكى، وبكت، وبكى الحاضرون، وقالت فى رباطة جأش: «هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون». كأنه يعزيها ويعزى نفسه بما حدث.

وقد أنزل والى مصر السيدة زينب فى داره بالحمراء القصوى. عند قنطرة السباع، أى فى المكان الذى يقوم فيه ضريحها الآن فى شعبان سنة ٦١ هجرية الموافق ٢٦ أبريل سنة ٦٨١ م وكان قد مضى على استشهاد شقيقها الإمام أبى عبد الله الحسين رضى الله عنه ستة أشهر وعدة أيام. وأقامت فى هذه الدار أحد عشر شهرًا كانت فيها كعبة للزائرين والقاصدين والوافدين، حتى لاقت ربها عشية الأحد فى الرابع عشر من رجب سنة ٦٢ هـ. الموافق ٢٧ مارس ٦٨٢ م. ودفنت حيث أقامت فى دار مسلمة بن مخلد الأنصارى.

ومنذ ذلك التاريخ صار قبر السيدة زينب بنت على جوهرة مرصعة تضىء على أرض مصر، وتشع البركات.

وكان ضريحها أول ضريح لواحدة من آل البيت فى مصر. بل هى غصن طيب من الدوحة المحمدية المباركة، وقبس من أقباس النبوة أنار أرض الكنانة.

وقد قال أحد الشعراء فى اختيار السيدة زينب لمصر دارًا لإقامتها:

لما رجعت من الشام ليثرب	من بعد فاجعة الإمام الحسين
طلبوا إليك الظعن للبلد الذى	تستوطنيه خارج الحرمين
فاخترت مصر فرحبت بك وانثنت	تهتز من شرف على الكونين

* * *

زينب بنت على ولدت فى المدينة المنورة، بعد أخويها السبطين الكريمين: الحسن والحسين، فى شعبان من السنة الخامسة للهجرة «٦٢٦ ميلادية». وأمها هى السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول الكريم ﷺ، وقد شهدت من حياة جدها الأعظم خمس سنوات، أسبغ فيها عليها نور النبوة والحكمة، فنشأت نشأة كريمة صادقة عززها ما ورثته عن أمها من العفاف والتقى والطهارة والهدى، وعن أبيها من الشجاعة والإقدام والفصاحة والعلم وقوة البيان.

وحين ولدت السيدة زينب فى كنف بيت الرسالة، سماها الرسول باسم خالتها السيدة زينب بنت رسول الله من السيدة خديجة حيث جرت عادة العرب بتكرار أسماء أبناء وبنات أجداد العائلة. ولاسم السيدة زينب قصة روتها الكتب. فحين ولدتها الزهراء، قالت للامام على: سمّ هذه المولودة، فقال الإمام على: ما كنت اسبق رسول الله ﷺ.

وهبط جبريل الأمين يقرئ الرسول السلام، ويقول: سم هذه المولودة زينب.

ومؤرخو أهل البيت يقولون إن السيدة زينب فى مبدأ حياتها شاهدت أحداثًا مرت عليها، تحملتها فى إيمان وصدق وصبر. فقدت جدها رسول البشر وهى بنت خمس. وفقدت أمها بعد ذلك بأشهر قلائل لا تتجاوز ستة أشهر فقد ماتت السيدة فاطمة الزهراء ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة ١١ هجرية «٢٢ نوفمبر ٦٣٢ ميلادية». وهى فى نحو الثلاثين من عمرها.

أنضجتها الأحداث وهيأتها لتشغل مكان أمها الراحلة الكريمة فكانت لأخويها الحسن والحسين أمًّا لا تعوزها عاطفة الأمومة بكل ما فيها من حب وإيثار. ثم إنها بدأت ترقب الأحداث السياسية من وراء ستار فى دار الخلافة، فرأت والدها وهو

يخوض المعركة تلو المعركة فى الجمل وصفين ثم مع الخوارج فى النهروان.

ولقد تزوجت السيدة زينب من ابن عمها عبد الله بن جعفر، وولدت له محمدًا الملقب بجعفر الأكبر، وأخوته عونًا الأكبر، وعليًّا الأكبر وأم كلثوم، وأم عبد الله. وجميعهم مات دون عقب إلا عليًّا الأكبر وأم كلثوم، فقد أنجبا ذرية طاهرة. وعبد الله بن جعفر، أمه أسماء بنت خميس الخثعمية، وأبوه جعفر بن أبى طالب، أو جعفر الطيار. وفى كتاب عبد الخبير الخولى بعنوان «الطاهرة السيدة زينب بنت على كرم الله وجهه» يقول:

«لما تزوج عبد الله بن جعفر من السيدة زينب فى المدينة المنورة، كان يومًا عظيًا من أيام انتصار المسلمين على الكفار فى فتوح الإسلام العظيمة بالعراق والشام. وكان ذلك فى أواخر عهد عمر بن الخطاب الذى حضر هذا الزواج الميمون».

وقد عرف عن أبيها الإمام على أنه كان يتهجد ليلا والناس نيام وأنه لم يترك نافلة حتى فى زمن الحرب، وكذلك كانت أمها السيدة فاطمة الزهراء تصلى معظم الليل، فإذا أصبح الصباح أخذت تدعو للمؤمنين والمؤمنات.. ولهذا كانت السيدة زينب فى عبادتها صورة لما رأته من أهلها. صوّامة قوّامة. تقضى أكثر لياليها متهجدة تتلو القرآن الكريم، ولم تترك ذلك حتى فى كربلاء.

والدليل على ذلك أنه يروى أن الإمام الحسين لما ودعها الوداع الأخير ليلة «كربلاء» قال لها:

– يا أختاه لا تنسينى فى نافلة الليل.

كانت السيدة زينب بنت على ـ كما وصفتها المصادر ـ عاقلة لبيبة جزلة. وكانت فى البلاغة والزهد والشجاعة قرينة أبيها الإمام على وأمها الزهراء. اتخذت طول حياتها تقوى الله بضاعة، وكان لسانها رطبًا دائما بذكر الله.

وقد جمعت بين جمال الطلعة وجمال الطوية. وكما يقول الجاحظ فى «البيان والتبيين»:

«إنها كانت تشبه أمها لطفًا ورقة. وتشبه أباها علمًا وتقىً». وقد وصفها عبد الله ابن أيوب الأنصارى بعد ما شاهدها فى كربلاء حاسرة الرأس، بقوله: «فوالله ما رأيت مثل وجهها كأنه شقة قمر».

وللسيدة زينب رضى الله عنها عدة ألقاب وأوصاف.

فكانت عند أهل العزم، «أم العزائم» لأنها كانت ذات عزيمة قوية فى طاعة الله وتقواه.

وعند أهل الجود والكرم، «أم هاشم» لأنها كانت كريمة سخية كجدها هاشم وكثيرًا ما كان يرجع إليها أبوها وأخوتها فى الرأى فسميت «صاحبة الشورى».

كما كانت دارها مأوى لكل ضعيف ومحتاج فلقبت «أم العواجز».

ولما جاءت إلى مصر، كان واليها وعلماؤها يعقدون جلساتهم فى دارها وتحت رئاستها فعرفت «برئيسة الديوان».

ولقد وصفها على ابن أخيها الحسين بقوله: «أنت بحمد الله عالمة غير معلمة، وفهمة غير مفهمة». وهو يقصد بذلك أن علمها هو مما منح وفتح به على رجالات بيتها الرفيع وأفيض عليها إلهامًا.

وقال لها أخوها الإمام الحسن مرة:

«أنعم بك يا طاهرة، حقًّا إنك من شجرة النبوة المباركة ومن معدن الرسالة الكريمة».

* * *

السيدة زينب بالإضافة إلى علمها وفصاحتها وانتسابها إلى آل البيت، هى نموذج حىّ للسيدة المؤمنة الصابرة المتحملة للشدائد مهما كانت.

فقد سبق أن ذكرنا أن جدها الرسول ﷺ لاقى وجه ربه وهى بنت خمس، ثم فقدت أمها الزهراء بعد ستة أشهر من وفاة الرسول ﷺ، ثم مات أبوها على

ابن أبى طالب شهيدًا وهو خليفة للمسلمين عام ٤٠ هجرية، ثم توالت عليها نوائب الدهر بوفاة أخيها الحسن، ومنيت فى العاشرة من المحرم سنة ٦١ هـ. باستشهاد الإمام الحسين ومعه الرجال المؤمنون بربهم وذوو قرباهم ومنهم ولداها أمام عينيها عطشى لا يجدون الماء وهو منهم قريب، بعد خذلان أهل الكوفة لآل البيت وتفرقهم عنهم فى اللحظة الحاسمة خوفًا من بطش الأمويين. ويفصل على أحمد شلبى فى كتابه عن السيدة زينب قائلا:

«إن ما تعرضت له السيدة زينب من أحداث الدهر، لم يكن بالأمر الهين، فقد فقدت جدها العظيم صلوات الله وسلامه عليه وهى بنت خمس، وفقدت أمها الزهراء رضى الله عنها بعده بشهور قليلة لا تتجاوز الستة، بعد مرض شديد وضيق من العيش والاعتكاف فى حزن، فألقى على عاتقها وهى صبية صغيرة عبء إدارة بيت أبيها ورعاية شئون إخوتها. وما إن تقدم بها الزمان نوعًا، حتى صدمت بمصرع أبيها الإمام على، وهو خليفة للمسلمين سنة أربعين من الهجرة إثر طعنة قاتلة من مارق خارج على الدين هو عبد الرحمن بن ملجم. ثم رأت بعد ذلك شقيقها الإمام الحسين رضى الله تعالى عنه حين نزل أرض كربلاء، وهناك منيت باستشهاده فى العاشر من المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة، الموافق العاشر من أكتوبر سنة ٦٨٠ ميلادية.

رأت السيدة زينب كل ذلك بعينيها، رأتهم يستشهدون وهم عطشى محرومون من الماء، ثم ما تبع ذلك من المحن التى حاقت بها من هجوم الأعداء على رحلها ومتاعها.

تحملت كل ذلك فى شجاعة وصبر راضية بقضاء الله، حتى أنها قالت حين وقفت على جسد أخيها الإمام الحسين وهو مقطع الأوصال بعد استشهاده: «اللهم تقبل منا هذا القليل من القربان».

وقد عرفت السيدة زينب ببطلة كربلاء، حتى أن الدكتورة بنت الشاطئ فى كتابها بهذا العنوان ذكر أن يوم كربلاء كان يوم العقيلة زينب. كانت السيدة زينب

تضمد الجرحى، وتسقى العطشى، ترعى أبناء وبنات المقاتلين، وتحمس الأجناد، وقد حفظ لها التاريخ رعايتها لمن فقدوا آباءهم فى معركة كربلاء، فقد وقفت بجوارهم إلى آخر رمق من الحياة.

وتقول بنت الشاطئ: «إن الدور الذى لعبته السيدة زينب بنت على هو الذى جعل من كربلاء مأساة خالدة». والواقع أن السيدة زينب هى أول سيدة فى الإسلام قدر لها أن تلعب فى مسرح الأحداث السياسية دورًا ذا شأن. وهى التى فرضت على التاريخ مأساة منذ أربعة عشر قرنًا من الزمن تتحدى الزمن، إلى أن يشاء الله».

وحقًّا، لقد كانت السيدة زينب بطلة، فاقت الكثير من الرجال فى معركة كربلاء. كانت السيدة الرائدة التى ظهرت فى اللحظات الحرجة من المعركة.

ويؤثر عن السيده زينب، أنها لما سمعت صيحة أخيها الإمام الحسين فى جنده صبيحة المعركة، خرجت من خيمتها تحمس الجند، وتثير فيهم النخوة وروح الجهاد، فقالت: «أيها الطيبون الأحرار، دافعوا عن بنات رسول الله ﷺ وحرائر أمير المؤمنين».

وحين نظرت السيدة زينب فى ساحة المعركة، ووجدت أخاها الإمام شهيدًا ومعه قرابة السبعين من أهله وأصحابه، نطقت مؤمنة صابرة، موقنة بأمر الله: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

وللسيدة زينب أقوال كثيرة تروى عنها، كما كان لها فى الليل تهجدات وعبادات لله والناس نيام، وضراعات لخالق الأكوان وبارئ النسمات. فمن ذلك قولها: «يا من لبس العز وتردى به، وتعطف بالمجد وتحلى به، أسألك بمعاقل العز من عرشك، ومنتهى الرحمة من كتابك، أن تصلى على محمد وعلى آل محمد، وأن تجمع لى خير الدنيا والآخرة».

ومن ذلك قولها أيضًا: يا عماد من لا عماد له، ويا سند من لا سند له، يا من سجد لك سواد الليل وبياض النهار، وشعاع الشمس، وحفيف الشجر ودوى الماء.

يا الله، يا الله، يا الله».

وما أبلغ قولها عظة واعتبارًا بالأقدار من حولها، حين تقول أو يقال على لسانها شعرًا:

سهرت أعين ونامت عيون لأمور تكون أو لا تكون
إن ربًّا كفاك ما كان بالأ مس، سيكفيك فى غد ما يكون
فادرأ الهم ما استطعت عن الـ ـنفس، فحملانك الهموم جنون

وبرغم معركة كربلاء، فإن المأساة لم تهزها وتخرجها عن وقارها وإيمانها وصبرها.

حتى حين حُملت ـ هى ومن بقى معها أحياء بعد المعركة ـ على أقتاب الجمال، ومرت على مصارع الشهداء، ووقعت أبصار النساء والأطفال على أبشع منظر قالت السيدة زينب كلامًا فصيحًا أبكى كل عدو قبل الصديق. وكان له أعظم الأثر فى الإحساس بفداحة ما أقدم عليه الأعداء من فعلة شنعاء.

ولما أقبل الركب على الكوفة خرج أهل الكوفة يبكون ويناولون أطفال الركب بعض التمر والخبز والطعام، فكان خطابها التاريخى لأهل الكوفة الذين خذلوا أهل البيت للمرة الثالثة:

«.. يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر. أتبكون؟ فلا رفأت الدمعة ولا هدأت الرنة، إنما مثلكم كمثل التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا. أتبكون وتنشجون، أى والله فابكوا كثيرًا واضحكوا قليلًا، فقد ذهبت بعارها وشنارها. ضربت عليكم الذلة والمسكنة، ويلكم يا أهل الكوفة، أتدرون أى كبد فريتم، وأى كريمة أبرزتم، وأى دم سفكتم، وأى حرمة انتهكتم...

«أتعجبون لو أمطرت دمًا.. ألا ساء ما سولت لكم أنفسكم. أن سخط الله عليكم وفى العذاب أنتم خالدون».

وحين دخلت على ابن زياد فى الكوفة، وقال لها:

– الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم.

ردت السيدة زينب بشجاعة قائلة:

- الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه «صلى الله عليه وسلم» وطهرنا من الرجس تطهيرًا، إنما يفتضح الفاجر ويكذب الفاسق وهو غيرنا.

فلم يصبر ابن زياد على قولها بل ردَّ عليها مغتاظًا:

- كيف رأيت صنع الله فى بيتك وأخيك؟

وهنا ترد السيدة زينب ويتجلى فى ردها كل معانى الإيمان والصبر والشجاعة قائلة:

- ما رأيت إلا خيرًا، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم، فانظر لمن الفلح يومئذ، ثكلتك أمك يا ابن مرجانة.

وهنا يقول ابن مرجانة: لقد شفى الله قلبى من طاغيتك والعصاة المردة من أهلك.

فترد عليه السيدة زينب قائلة:

- لعمرى قد قتلت كهلى وأبرت أهلى وقطعت فرعى واجتثثت أصلى، فإن يشفيك هذا فقد اشتفيت.

فقال فى غيظ: هذه سجّاعة لقد كان أبوها سجاعًا شاعرًا.

فقالت السيدة زينب ترد على ابن زياد:

- يا ابن زياد، ما للمرأة والسجاعة، وإن لى عن السجاعة لشغلا، وإنى لأعجب ممن يشتغل بقتل أئمته، ويعلم أنهم منتقمون منه فى آخرته.

وكما تجلت بلاغة وشجاعة السيدة زينب مع ابن زياد تجلت أيضًا مع يزيد ابن معاوية فى دمشق؛ إذ وقفت منه موقفًا يعبر عن صدق يقينها وشدة إيمانها. حتى أن

يزيد أحس بتأنيب الضمير والندم، وشعر بفداحة ما أقدم عليه من جرم عظيم فى حق آل البيت النبوى الكريم.

* * *

فى المشهد الزينبى.. تشهد العشرات والمئات من الرجال والسيدات والشبان يدخلون إلى مقام السيدة زينب. كل له حاجة، أو جاء ليوفى بنذر من النذور. هذا المنظر عادة تتكرر منذ شرّفت مصرَ بنت فاطمة الزهراء وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم جميعًا.

دار الحديث بين فضيلة الشيخ إبراهيم جلهوم ـ وهو من العلماء الثقاة وأحد الذين تولوا مشيخة أو إمامة المسجد الزينبى ـ حدثنى حول كرامات أهل البيت ومنهم السيدة زينب صاحبة المقام، ماهى الزيارة الشرعية فقال:

– من مجربات الصالحين أنهم كانوا إذا أتوا إلى ضريح السيدة زينب ومقامها الطاهر قالوا: «لا إله إلا الله» إحدى عشر مرة... ويعللون ذلك ـ والعهدة عليهم بالطبع ـ أن الروح إذا سمعت ذكر الله التفتت إلى الذاكر، واستعدت لمناجاته.

وبعد هذا الذكر يقولون: «السلام عليك يا حفيدة رسول الله. نشهد بأنك أقمت الصلاة وأتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، وجاهدت فى سبيل الله حق جهاده حتى أتاك اليقين. اللهم إنا نستشفع بأهل بيت نبيك، أن تقضى لنا الحاجات، وتفرج عنها الكربات، وتمحو عنا السيئات».

ثم يسألون الله من خيرى الدنيا والآخرة. ثم يصلون ويسلمون على الرسول ﷺ، ويقرءون ما تيسر من آى الذكر الحكيم. وكل ذلك فى صوت خفيض واستحضار لجلال الآخرة، ثم ينصرفون وقد امتلأت نفوسهم رجاء من الله بأن يتقبل منهم ويعفو عنهم».

والواقع أن الله شرف نبيه وجعل من ذريته بيتًا طاهرًا مجد ذكره القرآن الكريم حيث قال:

﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾.

وقد روى الإمام أحمد بسنده أن رسول الله ﷺ قام خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«إنى أوشك أن أُدْعَى فأجيب، وإنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله حبل ممدود من الأرض إلى السماء، وعترتى أهل بيتى، وأن اللطيف الخبير أخبرنى أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض يوم القيامة فانظروا بما تخلفونى فيهما».

كما روى الديلمى والطبرانى وابن حبان والبيهقى.. أنه صلى الله عليه وسلم قال:

«لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه، وتكون عترتى أحب إليه من عترته، وأهلى أحب إليه من أهله وذاته».

ومن هنا فإن زيارة أهل البيت وحب أهل البيت، هى طريق من طرق الجنة وكما جاء فى الحديث الشريف «المرء مع من أحب».

لكن التمسح بالأخشاب أو الحديد، وطلب الفرج من غير الله، هو من قبيل الذى تأباه الشريعة .

* * *

إذا كانت السيدة زينب بنت علىّ هى أول نفحة من نفحات أهل البيت شرفت بها أرض مصر، فإن ضريحها يعتبر أقدم الأضرحة فى مصر.

وكان ضريح السيدة زينب، وهو مكان إقامتها حين وفدت إلى مصر يقع بشمال دار مسلمة بن مخلد والى مصر، ويطل على الخليج وجماميز السعيدية. ثم مرت السنوات فاندثر القصر وبقى الضريح، يحج إليه المؤمنون ويتبركون.

وفى زمن ابن طولون، أجرى على الضريح عمارة وترميم، داخل نطاق خطة شملت المشاهد الأخرى فى مصر.

فلما جاء الفاطميون كان أول من بنى على الضريح عمارة جليلة هو الخليفة المعز لدين الله ثم أوقف عليه الخليفة الحاكم بأمر الله عدة ضياع، بعد أن جرى حصر

للمساجد والأضرحة التى لا ريع لها.

وظل المشهد الزينبى موضع عناية العهود التى تعاقبت على مصر بعد الفاطميين، مثل الأيوبيين والمماليك، كما قام الكثير من أهل العلم والولاية بتناوب الخدمة على هذا المسجد ومن أجلهم قدرًا العارف بالله محمد بن أبى المجد القرشى الحسينى المعروف بسيدى «محمد العتريس» الذى يقال إنه شقيق سيدى إبراهيم الدسوقى. وسيدى محمد العتريس له ضريح ومدفون بالجهة الشمالية الغربية من المشهد الزينبى.

وفى القرن السادس الهجرى أيام الملك العادل سيد الدين أبى بكر بن أيوب، عمر المسجد وأصلحه الشريف فخر الدين ثعلت الجعفرى، وقد ظل المشهد على هذه العمارة إلى أن اهتم بعمارته وجعل له مسجدًا يتصل به الأمير على باشا الوزير والى مصر من قبل العثمانيين وكان ذلك عام ٩٥٦ هـ.

وفى عام ١١٧٤ هـ. أعاد بناءه وشيد أركانه ـ كما تقول د. سعاد ماهر فى كتابها «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» ـ الأمير عبد الرحمن وأنشأ به ساقية وحوضًا للطهارة وبنى أيضًا مقام سيدى العتريس.

على أنه ـ كما يقول الأستاذ على أحمد شلبى فى كتابه عن السيدة زينب ـ فى عام ١٢١٠ هـ ـ جددت المقصورة الشريفة من النحاس الأصفر ووضعت على بابها لوحة نحاسية كتب عليها «يا سيدة زينب، يابنت فاطمة الزهراء، مدد» وما زالت هذه اللوحة على مدخل الضريح حتى الآن.

وبعد ذلك بسنتين حين تصدعت جدران المسجد انتدبت حكومة المماليك عثمان بك المرادى لتجديده وإعادة بنائه، فبدأ العمل لكنه توقف بسبب الحملة الفرنسية على مصر، ثم أكمل البناء يوسف باشا الوزير.

وقد ظل التعمير والتجديد يدلان على هذا المكان الشريف بعد ذلك فجدد عام ١٢٨٧ هـ. كما جدد مقام سيدى العتريس وقد كتب على باب المقام الزينبى هذا البيت من الشعر:

يا زائريها قفوا بالباب وابتهلوا   بنت الرسول لهذا القطر مصباح

بعدها فى عام ١٢٩٤ هـ. جدد الباب المقابل لباب الضريح، ثم جدد المسجد والقبة والمئذنة، وتم ذلك فى عام ١٣٠٢ هـ. وقد بلغت مساحة المسجد ٣ آلاف متر مربع فى بداية هذا القرن، بما فى ذلك الضريح الشريف ومقام سيدى محمد العتريس وسيدى محمد العيداروس.

ومنذ الستينات أضيفت إلى المسجد من الناحية الجنوبية مساجد جديدة، حوالى ٢٥٠٠ متر مربع، وبذلك اتصل المسجد الزينبى بمسجد الزعفرانى الواقع فى الجهة الجنوبية من ناحية شارع السد الذى كان فى الماضى خليجًا ثم ردم وكانت عليه قناطر السباع التى بناها الظاهر بيبرس لأن «رنك» أى شارته كانت على شكل سبع.

* * *

وبعد فهذه هى السيدة زينب رئيسة الديوان، وعقيلة بنى هاشم بنت الزهراء وعلى كرم الله وجهه. يقين وإيمان وعلم وحكمة ومنطق وصدق، ووفاء وإخلاص وطهر وعفة مع صبر جميل يقهر الأزمات. وحسبها أن أنوار النبى - كما يقول الشيخ عبد السلام حماد إسماعيل - سارت فيها غرسًا طيب الثمرات. وحسبها أنها حين جاءت إلى مصر أغدق نيلها عليها من الخير والبركات. فمصر شرفت بأهل البيت، كما شرف بهم أهلها.

وكما يقول الشاعر عن آل البيت.

فمصر توالى أهل بيت نبينا   تكن لهم ودًا وحسن صلات
وكم أحرزت نصرًا بهم فى حروبها   وكم سحقت من معتدين بغاة

زين العابدين
على بن الحسين
زهرة آل البيت الوحيدة التى بقيت من كربلاء

لو لم يكن «على زين العابدين» مريضًا فى يوم «كربلاء» وما حدث من مذبحة شنيعة لرجال آل البيت، بيت رسول الله ﷺ، لتوقف أو انقطع نسل النبوة، من صلب الحسين بن على بن أبى طالب.

لكن الله كان رءوفا بآل بيت رسوله.

كان زين العابدين وهى الصفة التى لصقت بعلى بن الحسين هو الوحيد من الذكور الذى لم تمسسه سيوف وحقد بنى أمية فى كربلاء؛ كى يصبح زهرة آل البيت الوحيدة التى ترعرعت ونمت، ولتتصل «عترة» الرسول ﷺ، ولتصبح هذه الزهرة بمثابة الجد التاريخى لكل ولى من أولياء الله من بيت النبوة. فعند مذبحة «كربلاء» قطع نسل الرسول باستشهاد سيد شهداء أهل الجنة الحسين بن على وفرعه، ووصل باستمرار حياة ابنه على زين العابدين، «زين شباب أهل الجنة وأفضل القرشيين ـ كما قيل ـ بعد هذا الحادث الجلل».

* * *

شاءت عناية الله، أن يكون على بن الحسين حاضرًا فى كربلاء، كما شاءت الأقدار أن تنقذ حياته بأعجوبة لتستمر السلالة الطاهرة للرسول من نسل الحسين فحسب القارئ الكريم أن يعرف، أنه لا يوجد من ينتسب إلى الإمام الحسين، سبط الرسول. إلا وكان من أبناء أو أحفاد على زين العابدين.

كان على مريضًا فى فراشه داخل مخيم المؤمنين الذين ذهبوا إلى كربلاء ولم يستطع أن يقوم ويمسك السيف، بينما النصال تصطدم بالنصال والدماء الزكية تسيل

كالأنهار حارة بعد استشهاد كل الرجال مع الحسين من أهل بيته وذويه ومن الصحابة والتابعين.

وحين تنتهى المعركة، يساق آل البيت إلى ابن زياد والى الكوفة فى ركب تتقدمه السبايا والرءوس المقطعة، فى نحو أربعين جملا وكان زين العابدين على جمل بغير وطاء ضعيفًا مريضًا حزينًا يأسى. وأثناء سير الركب قال:

يا أمة السوء لا سعيًا لربعكم   يا أمة لم تراعى أحمدًا فينا
قد سَيَّرُونَا على الأقتاب عـالية   كـأننا لم نشيـد فيكم دينًـا

وهنا تحبس الأنفاس حين يتفحص والى الأمويين الأسرى، ويرى صبيًّا وحيدًا معهم خشى أن يكون مع الأيام شوكة فى حلق الأمويين. فيلتفت إلى الشاب الذى كان لا يزال مجهدًا بفعل المرض، ويسأله: ما اسمك؟.

ويرد الشاب: على بن الحسين.
فيقول ابن زياد: أو لم يقتل الله عليًّا بن الحسين؟.

وهنا يصمت الشاب ولم يجب.

فيصيح فيه ابن زياد: مالك لا تتكلم؟
ويجيب على بن الحسين: بعد أن كرر عليه ابن زياد السؤال:
- كان لى أخ يسمى عليًّا قتله الناس بأسيافهم.
فيقول ابن زياد: بل الله قتله.

ويجيب على زين العابدين: «الله يتوفى الأنفس حين موتها، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله».

ويغضب الوالى الأموى ويصيح مهددًا:

- أو بك جرأة على جوابى، وفيك بقية للرد؟ والله إنك منهم. أيها القوم اكشفوا عنه، فإن كان قد بلغ مبلغ الشباب فاقتلوه!

ويكشف عليه مرى بن معاذ الأحمرى، ويقول: نعم، لقد بلغ مبالغ الشباب.

ويستعد الجند لضرب على بن الحسين.

ويقول ابن مرجانة: اقتلوه.

ويقول زين العابدين: من يوكل بهذه النسوة؟

لكن عمته السيدة زينب ـ بطلة كربلاء ـ تندفع بقوة إيمانها وثبات يقينها فتحتضن ابن أخيها، وتقول لابن زياد:

– حسبك يا ابن زياد ما رويت من دمائنا. وهل أبقيت أحدًا غير هذا؟. والله لا أفارقه، فإن قتلته فاقتلنى معه.

ويسرع على زين العابدين، ويقول هو الآخر بشجاعة آل بيت النبوة:

– أبالقتل تهددنى يا ابن زياد.. أما علمت أن القتل لنا عادة، وكرامتنا الشهادة؟

وينكس والى الكوفى رأسه طويلا، ربما من خجله ثم يقول، موجهًا الحديث إلى السيدة زينب:

– عجبًا لصلة الرحم. والله إنى أظنها ودت لو أنى قتلتها معه. دعوه ينطلق مع نسائه، فإنى أراه لما به مشغولا.

ثم يصيح فى زبانيته: دعوا الغلام.

* * *

وقبل هذا الموقف، كان هناك موقف آخر مع آل البيت عقب كربلاء مباشرة ففى كربلاء وبعد استشهاد الإمام الحسين، تنبه جند يزيد إلى وجود زين العابدين على بن الحسين، وكان صبيًّا مريضًا، فأراد شمر بن ذى الجوشن أن يقتله، فقال له حميد بن مسلم:

– سبحان الله، أتقتل الصبيان؟

فجاء عمر بن سعد وقال:

– لا يدخلن بيت النسوة أحد، ولا يتعرض لهذا الغلام المريض أحد.

وكان جند ابن زياد قد اقتحموا فسطاط نساء آل البيت، وأعملوا فيه سلبًا ونهبًا، وبعد ذلك ساقوا الأسرى، وكان منهم ولدان للإمام الحسن، استصغر الجند شأنهما وسنهما فتركوهما، كما كان فيهم كذلك زين العابدين على بن الحسين، وكان مريضًا فى حجر عمته العقيلة زينب.

كان على زين العابدين من الذين استقطبوا أهم الأدوار خلال مأساة كربلاء وفى أعقابها.

وربما هذا هو الذى دفع بالدكتورة بنت الشاطئ أن تقول عن السيدة زينب: «أرى أن دور السيدة زينب الحقيقى قد بدأ بعد المأساة.. إذا كان عليها أن تحمى السبايا، وأن تناضل مستميتة عن غلام مريض هو على بن الحسين، ولولاها لذبح».

وحين جاءت السبايا من آل بيت النبى إلى يزيد بن معاوية فى دمشق، أدخل زين العابدين على يزيد وهو مغلول الأيدى، فقال لزيد:

– لو رآنا رسول الله ﷺ مغلولين لفك عنًّا.

قال يزيد: صدقت.

وأمر بفك غله.

فقال على:

– ولو رآنا رسول الله ﷺ بعداء، لأحب أن يقربنا فأمر يزيد منه، وقال:

– إيه يا على بن الحسين، أبوك الذى قطع رحمى، وجهل حقى ونازعنى سلطانى فصنع الله به ما رأيت.

فقال على:

– «ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور».

فقال يزيد:

– وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم».

فقال على:

- هذا فى حق من ظَلم - بفتح الظاء واللام - ولا من ظُلم - بضم الظاء وكسر اللام.

* * *

لكن من هو علىّ زين العابدين، الذى يحمل اسمه حى بأكمله بالقاهرة ويلتف الناس حول مشهده - ولا أقول مسجده - الذى يقع بقرافة زين العابدين، وتحوطه المشاهد والمقابر، يتعثر معها الطريق حتى تصل إليه؟!

فى البداية نقول: إذا كان الحسين بن على والسيدة زينب من أسباط وعترة الرسول ﷺ، فإن على زين العابدين بن الحسين من أعمدة آل البيت. ربما من الجيل الثالث المزهر فأختاه هما السيدتان سكينة وفاطمة النبوية. وهو عم سيدى حسن الأنور، وجد السيدتين نفيسة وعائشة ومن أبنائه سيدى زيد الذى يقال إنه مدفون معه فى قبره ~~[illegible] ابنه سيدى حسن الأنور،~~ وهو إمام الزيدية فى اليمن وطبرستان.

وسيدى على زين العابدين، أو كما يلقب بزين شباب الجنة، ولد فى يوم الخميس السابع من شعبان عام ٢٧ هـ. فى بيت السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول. وقد توفى فى ١٢ المحرم عام ٩٤ هـ. أى أنه عاش ٥٧ عامًا تقريبًا.

وقد اختار جده الإمام على بن أبى طالب أن يسميه باسمه.. ويقال إنه حين ولد فرح به وتهلل، وأذن فى أذنه، كما أذن الرسول فى أذن أبيه الحسين حين ولادته.

وأم على زين العابدين، هى سلافة بنت يزدجر (آخر ملوك فارس، وكانت قد أسرت هى وأختان لها فى غزوة للجيش الإسلامى فى عهد عمر بن الخطاب. وحين زوجها على بن أبى طالب للإمام الحسين قال له: «خذها، فستلد لك سيدًا فى العرب، وسيدًا فى العجم، سيدًا فى الدنيا والآخرة».

وقد نشأ على زين العابدين فى بيت جدته فاطمة الزهراء، ونال من رعاية جده الإمام على له، وعطفه عليه، وتعلقه واهتمامه به نصيبًا كبيرًا، فقد كان كرم الله وجهه

حريصًا على أن يرى سلسلة نسبه متصلة ونسله مستمرًا. ولهذا لم يكن يسمح لبنيه بخوض المعارك الضارية للقتال، وقال لأصحابه: «املكوا عنى هذا الغلام لا يهدنى فإنى أنفس معه».

وفى معركة «صفين»، لم يسمح الإمام على لابنه الحسين بالاندفاع به نحو الموت لئلا ينقطع نسل الرسول ﷺ».

ولم يكد يبلغ سيدى على زين العابدين، الرابعة من عمره، حتى تعهده أبوه الحسين وعمه الحسن، يحفظانه من القرآن الكريم والحديث الشريف. ما يستطيع أن ينطق به لسان ابن الرابعة، ولما توفى عمه، استمر أبوه يحفظه القرآن حتى أتم حفظه فى سن مبكرة فقد كان على زين العابدين سريع الحفظ قوى الحافظة. وقد أضاف إلى القرآن والحديث، علوم الفقه والدين برعاية خلاصة بيت النبوة، حتى ضرب بعلمه وفقهه المثل. فقد قال عنه على بن سعيد: «إنه أفضل هاشمى فقهًا وورعًا».

ولما بلغ السابعة عشرة من عمره، تزوج من فاطمة بنت عمه الحسن بن على ابن أبى طالب. وهى التى انجبت له من الذكور السادة: زيد والحسن، والحسين الأصغر، وعبد الرحمن، وسليمان، وعلى، ومحمد الباقر، وعبد الله الباهر، ومن الاناث السيدات: خديجة وفاطمة، وعليه، وأم كلثوم.

ومما يذكره التاريخ، عن على زين العابدين أنه لما حج هشام بن عبد الملك أيام أبيه وطاف بالبيت العتيق، تعذر عليه أن يلمس الحجر الأسود أو يصل إليه لكثرة الناس حوله فوضع له كرسى ليعتليه حتى يصل إلى الحجر. وجعل ينظر إلى الناس لعل أحدهم يعرفه ويفسح له الطريق، لكن الناس تغاضت عنه كأنهم لا يعرفونه، رغم أنه كان معه من أعيان أهل الشام الكثير.

وفيما هو كذلك إذ أقبل على الحجر على زين العابدين، وكان يطوف بالبيت وحين وصل إليه أفسح الناس له الطريق حتى استلم الحجر.

وهنا سأل رجل ممن كانوا مع هشام بن عبد الملك:

– من هذا الذى ترمقه أعين الناس بالإجلال، حتى أفسحوا له المكان؟
فأنكر هشام معرفته.
وكان الفرزدق الشاعر يسمع قولة هشام، فقال أنا أعرفه.

وسأل الرجل الشامى الشاعر الفرزدق: من هو يا أبا فراس؟ وهنا يقول الفرزدق قصيدته المشهورة، الموجودة بكاملها على باب ضريح سيدى زين العابدين، والتى مطلعها:

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم   هذا التقى النقى الطاهر العلم
إذا رأته قريش فقال قائلها   إلى مكارم هذا ينتهى الكرم

ويضيف الفرزدق قائلا:
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله   بجده، أنبياء الله قد ختموا

إلى أن يختم قصيدته، فيقول أبو فراس:

إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم أو   قيل من خير أهل الأرض قيل هموا

فلما سمع هشام هذه القصيدة غضب، وسجن الفرزدق. وحين بلغ الأمر إلى على زين العابدين بعث إلى الفرزدق بأربعة آلاف درهم. لكن الفرزدق ردها، قائلا:

– إنما مدحتك بما أنت أهل له.
فردها إليه زين العابدين ثانية قائلا:

– خذها وتعاون بها على دهرك، فإننا آل البيت إذا وهبنا شيئًا لا نستعيده.
عند ذلك قبل الفرزدق الدراهم.

ويقول صاحب «الكواكب الدرية» عن مشهد على زين العابدين: «إن الدعاء عنده مستجاب والأنوار ترى عليه».

* * *

والواقع، أنه من خلال التجوال فى منطقة مشهد سيدى على زين العابدين تسمع

الكثير عن هذا القطب من أهل البيت، فعامة الناس الذين يسكنون الحى الذى يتشرف بحمل اسمه، وكذلك الناس الذين يأتون لزيارته من كل أنحاء مصر، وغير مصر ـ خاصة فى أيام مولده ـ يرون فيه «النجدة» دائمًا، ويؤكدون، إنه ما من أحد يكون صادقًا فى حب آل البيت، إلا وجاء يدعو الله عند هذا المقام فيستجيب الله جل شأنه.

وكما يذكر الدارسون والمتتبعون لحياة سيدى على زين العابدين، ومنهم فضيلة الشيخ أحمد عبد الرحمن عبد الحافظ أحد العلماء الذين تولوا إمامة مسجد سيدى على زين العابدين.. يقولون.. إن على زين العابدين ضرب به المثل فى علمه.. وفى حلمه، وفى بره بوالديه، وعبادته، ويحكون الكثير حول ذلك.

ففى الصدقات، يرى سيدنا على زين العابدين أن «صدقة الليل تطفئ غضب الرب وتنور القلب والقبر، وتكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة».

ويقول ابن عائشة: سمعت أهل المدينة يقولون، ما فقدنا صدقة السر، إلا بعد موت على بن الحسين.

وقال محمد بن إسحاق: كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين معاشهم ومأكلهم فلما مات على بن الحسين فقدوا ما كان يأتى ليلا إلى منازلهم. فقد كان على بن الحسين يحمل جراب الخبز على ظهره فى الليل، ليتصدق به.

وبالنسبة لحلمه فالأمثلة كثيرة على حلم على بن الحسين.

فقد كان إذا سبه أحد أو انتقصه، يقول: «اللهم إن كان صادقًا فاغفر لى، وإن كان كاذبًا، فاغفر له».

وفى حلمه أيضًا قيل: سكبت جارية له ماء ليتوضأ، فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجه وسال الدم. فقالت الجارية: إن الله يقول: «والكاظمين الغيظ» فقال لها «قد كظمت غيظى». فقالت «والعافين عن الناس». فقال «عفا الله عنك». فقالت: «والله يحب المحسنين» فقال: «أنت حرة لوجه الله».

وفى بر الوالدين، يذكر الكتاب ومؤرخو آل البيت أمثلة كثيرة على ذلك، نورد منها هذا المثال.

فقد كان رضى الله عنه كثير البر بأمه، حتى قيل له: «إنك أبر الناس بأمك، ولسنا نراك تأكل معها فى صفحة واحدة». فقال على زين العابدين: «أخاف أن تسبق يدى إلى ما تسبق إليه عينها، فأكون قد عققتها»!

لكن كيف يرى رضى الله عنه محبة المؤمنين لآل البيت؟

يروى أنه مرض، فدخل عليه جماعة من صحابة الرسول، فقالوا له:
- كيف أصبحت يا ابن رسول الله؟

قال: فى عافية، والله المحمود على ذلك. فكيف أصبحتم أنتم جميعًا؟
قالوا: أصبحنا - والحمد لله - لك محبين وادّين.

فقال: من أحبنا لله، أسكنه الله فى ظل ظليل يوم القيامة، يوم لا ظل إلا ظله. ومن أحبنا يريد مكافأتنا كافأه الله عنا الجنة، ومن أحبنا لغرض دنياه آتاه الله رزقه من حيث لا يحتسب.

وحول تعبده وعبادته، فإن زين العابدين وصف بأنه كان بكّاء، لأنه كان يبكى من كثرة الخوف من الله.

ومن شدة إيمانه، يحكى أن حريقًا شب فى بيته وهو ساجد يصلى.. فجعل من فى البيت يصيحون: «النار. النار» فما رفع رضى الله عنه رأسه حتى اطفئ الحريق. فقيل له: أشعرت بالنار؟.. فقال: ألهتنى عنها النار الكبرى.

وكان زين العابدين يقول: «من قنع بما قسم له، فهو أغنى الناس» و«الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين».

وكان يقول دائمًا:

«إياك ومصاحبة الكذاب، فإنه بمنزلة السراب، يقرب لك البعيد ويبعد لك القريب. وإياك ومصاحبة الفاسق، فإنه بائعك بأكلة أو أقل من ذلك. وإياك

ومصاحبة الأحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك. وإياك ومصاحبة البخيل، فإنه يخذلك فى ماله وأنت أحوج ما تكون إليه. وإياك ومصاحبة القطاع القاطع لرحمه، فإنى وجدته ملعونًا فى كتاب الله تعالى».

* * *

متى جاء على زين العابدين ـ رضى الله عنه ـ إلى مصر، يبارك بجسده الطاهر ترابها، ويصبح مزارًا شريفًا من مزارات آل البيت بجانب الحسين، والسيدة زينب، وقبور وأضرحة بقية الشرفاء من آل البيت؟!

يقول الإمام الشعرانى فى كتاب «الطبقات»:

«قد تواترت الأخبار عندى، أن على زين العابدين قد جاء إلى القاهرة وأن الذين رأوه رؤيا العين، قالوا فيه: إن جسده كان أشبه بالحياة المستقرة».

لكن الثابت أن على زين العابدين حين لاقى ربه، دفن فى «البقيع» فى المدينة المنورة، وهى مقبرة آل البيت. ثم نقل جسده الطاهر، بعد ذلك إلى القاهرة، وإن البعض يرى إن قبره فى مصر من أضرحة الرؤيا.

وحى زين العابدين، أو حى السيدة زينب كله. كان ـ كما يقول المقريزى ـ يعرف فى أوائل العصر الإسلامى باسم الحمراء القصوى».. ومسجد سيدى على زين العابدين الموجود حاليًا حول الضريح يرجع إلى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى ـ أوائل القرن ١٩ الميلادى ـ وقد جدده وأعاد بناءه عثمان أغا مستحفظان. كما ورد فى «الخطط التوفيقية» لعلى باشا مبارك.

أما عمارة الدولة الفاطمية، فلم يبق منها سوى عقد واحد يوجد بالطرقة الداخلية على يمين الداخل إلى رواق القبلة. كما توجد لوحة تذكارية مثبتة على مدخل المسجد القديم بالواجهة الغربية كتب عليها: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا مشهد الإمام على زين العابدين ابن الإمام الحسين ابن الإمام على بن أبى طالب صلوات الله عليهم أجمعين فى سنة ٥٤٩ هجرية».

أما القبة التى تعلو الضريح، فترجع إلى العصر المملوكى، فى القرن الثامن الهجرى كما يذكر ذلك السخاوى، وعلى الضريح مقصورة تجددت فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى. وهى تعتبر نموذجًا لصناعة الحديد المزخرف. وكما جاء فى «الخطط التوفيقية»، فقد أنشأ هذه المقصورة سعادة محمد قفطان باشا سنة ١٢٨ هـ. وكسا عتب باب القبة ببلاطات من القيشانى الأزرق، وهو بلاط عثمانى.

* * *

داخل ضريح على زين العابدين.. يقولون إنه يرقد معه ابنه «زيد». الذى فطم على الزهد والتقوى والفصاحة فى بيت أبيه. حتى أنه صار إمام الزيدية، والزيدية ـ كما قال الشهرستانى، فى كتابه «الملل والنحل» ـ لا يختارون إمامهم بالوراثة، وإنما لابدّ أن يكون مستكملا لشروط معينة. وهم ينتشرون فى اليمن وطبرستان، كما ذكرنا وكان سيدى زيد بن على زين العابدين يحدث نفسه بالخلافة، ويرى أنه أهل لذلك، وتضيف د. سعاد ماهر فى كتابها «مساجد مصر وأولياء الله الصالحين»: «أن هذا المعنى ما زال يتردد فى نفس زيد، حتى وفد على الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك، فآنس منه جفوة. فكانت سببًا فى خروجه على بنى أمية ومطالبته بالخلافة. وقد سار أولا إلى الكوفة، لكنه هم بالرجوع إلى المدينة المنورة، حتى لا تخذله الكوفة كما خذلت جده الحسين، وجده الإمام على بن أبى طالب من قبل، لكن أهل الكوفة تبعوه، وأقنعوه بالبقاء ومحاربة بنى أمية قائلين له:

«نعطيك من الأيمان والعهود والمواثيق ما تثق به، فإنا نرجو أن تكون المنصور، وأن يكون هذا الزمان الذى نهلك فيه بنى أمية».

وما زالوا به حتى أعادوه إلى الكوفة، وهنا يجمع يوسف بن عمر أمير الكوفة جيوشه، ويجرى بين الفريقين قتال يتفرق على أثره أهل الكوفة، كما تفرقوا من قبل. ويبقى زيد فى فئة قليلة من أهله، يقاتل قتالا شديدًا، حتى سقط شهيدًا، عام ١٢٢ هـ.

وقد اختلف المؤرخون والرواة فى مكان دفنه، فالبعض يقول: إن جسده الشريف حمل إلى الكوفة ثم أحرق وذر رماده فى الفرات.

والبعض يقول: إن رأسه الشريف بعث به إلى هشام بن عبد الملك فنصبه على باب دمشق، ثم أرسله إلى المدينة.

أما الكندى، فيؤكد قدوم الرأس إلى مصر.

وقال صاحب «الجوهر المكنون» ما يلى:

«إنه بعد قدوم الرأس إلى مصر، طيف بها ثم نصبت على منبر المسجد الجامع بمصر - أى جامع عمرو بن العاص - ثم سرقت ودفنت فى هذا الموضع، إلى أن ظهرت وبنى عليها مشهد فى أيام الدولة الفاطمية...» وهو ذات الضريح الذى قيل إن سيدى على زين العابدين قد دفن فيه.

على أنه مهما كانت الروايات، فإن ضريح سيدى على زين العابدين، وابنه سيدى زيد بن على زين العابدين يقف شامخًا فى الحى الذى يحمل الاسم الكريم، وسواء كان مدفونا فى مصر أم فى البقيع فهو يعبر من معنى شريف وأنوار النبوة تتلألأ حوله.

وأخيرًا نختتم الحديث عن سيدى زين العابدين بدعائه الذى يقول فيه:

«اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين. ودهرهم الزفر والأنين. وجباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة فى خدمتك، ودموعهم سايلة من خشيتك، وقلوبهم معلقة بمحبتك، وأفئدتهم منخلعة من مهابتك. يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة، وسبحات نور وجهه لقلوب عارفيه شائقة، يا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال المحبين، أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب كل عمل يوصل إلى قربك».

فاطمة النبوية

بنت سيد الشهداء وحفيدة الزهراء

صورة كثيرة ومتعددة تلك التى أفرزتها مأساة كربلاء، واستشهاد الحسين ابن علي سواء قبل المعركة، أو أثنائها أو بعدها. تلك المعركة التى واجه فيها ٧٢ مؤمناً من آل البيت حوالى عشرة آلاف مقاتل من جيش زياد بن أمية ابن مرجانه والى الأمويين على الكوفة.

والذى يمكن أن يهز أوتار القلب شيء كثير، رغم مرور حوالى ثلاثة عشر قرناً وثلث قرن من الزمان على تلك المأساة. لكن الصورة المؤسفة، بل البشعة فى هذه المدلهمة هى ما جرى للسيدة فاطمة بنت الحسين، حين سيق موكب السبايا والأسرى من شريفات آل البيت حاسرات الوجوه إلى دمشق، يتقدمهن رأس سيد الشهداء مرفوعًا على رمح، ليعرض على يزيد بن معاوية بن أبى سفيان الخليفة الأموى الثانى بعد أن عرض هذا الموكب ـ أبشع موكب شهده التاريخ كما يقول عباس العقاد فى كتابه «أبو الشهداء الحسين بن على» ـ على زياد بن أبيه أو عبد الله بن زياد فى الكوفة.

لقد دخل «الموكب» على يزيد فى قصره، وصرخات النادبات فى قصره تملأ أجواز الفضاء، لم يستطع أن يسكتهن وكان يزيد قد دعا أشراف أهل الشام وكبراءها فأجلسهم حوله، بعدما وضعت رأس الحسين أمامه، ثم أمر بإدخال الأسرى والسبايا، وفيهن السيدة زينب أخت الحسين والسيدتان سكينة وفاطمة ابنتا الإمام الشهيد سيد الشهداء، وكذلك الرباب بنت امرئ القيس بن على ابن أوس الكلبى زوجة الحسين.. وعلى زين العابدين الوحيد الذى بقى ـ عليلا ـ من سلالة الحسين الذكور و.. و..

وجعل يزيد وأهل مجلسه من الرجال ينظرون إلى شريفات البيت الهاشمى، ويتذاكرون عزة آلهن وشرف بيتهن فغض من فى بطانة يزيد المقربين أبصارهم على استحياء إلا رجلا شاميًّا ضخم الجثة أحمر الوجه، ظل يحدق فى فاطمة بنت الحسين ـ وكانت كما جاء فى الكتب جارية وطفاء ذات جمال ـ ويلتهمها بنظرات جشعة، لدرجة أنها أجفلت منه خائفة مشمئزة.

ثم قام الرجل الشامى الأحمر الضخم من مجلسه متجهًا إلى يزيد، واقترب من أذنه يهمس له قائلا:

– يا أمير المؤمنين، هب لى هذه الجارية.

قال هذا وهو يتجه ببصره مشيرًا إلى فاطمة بنت الحسين.

وهنا ـ كما يروى ـ أرعدت فاطمة، وأخذت بثياب عمتها زينب ـ بطلة كربلاء ـ فكان لعمتها فى الذود عنها موقف كموقفها بقصر الكوفة دفاعًا عن زين العابدين على بن الحسين الذى حاولوا قتله.

وصاحت السيدة زينب بالرجل الشامى، قبل أن تسمع رد يزيد على طلبه:

– كذبت ولؤمت. ما ذلك لك، ولا له.

وفى هذا الموقف ومن هذا الكلام، يغتاظ يزيد، ويقول ردًّا على السيدة زينب:

– كذبت أنت، إن ذلك لى. ولو شئت لفعلت.

وهنا ترد السيدة زينب بشجاعة قائلة:

– كلا والله، ما جعل الله لك ذلك إلا أن تخرج من ملتنا، وتدين بغير ديننا

فيشتد غيظ يزيد على هذا التحدى أمام من فى المجلس ويقول:

– إياى تستقبلين بهذا!! إنما خرج من الدين أبوك وأخوك.

وترد السيدة زينب:

– بدين الله، ودين أبى ودين جدى، اهتديت أنت وأبوك وجدك.

ويرد يزيد على الشريفة زينب قائلاً:

- بل كذبت يا عدوة الله

وهنا ترد السيدة زينب:

- أنت أمير تشتم ظالمًا، وتظهر بسلطانك!

هنا يطرق يزيد، ويسكت ويسود القاعة وجوم ثقيل، بينما يعاود الشامى النظر إلى فاطمة النبوية ويكرر ليزيد قائلا:

يا أمير المؤمنين هب لى هذه الجارية «وهو ينظر إلى فاطمة» بينما هى تحتمى بعمتها زينب.

وهنا يرد يزيد على الشامى قائلا:

- اغرب. وهبك الله حتفًا قاضيًا!

هذه الصورة ـ وغيرها من عشرات الصور ـ مما يثير الاشمئزاز والبشاعة. أقصى ما وصلت إليه الخسة والنذالة فى التعامل مع سيدات ونساء آل بيت الرسول ﷺ، من الحرائر وأشراف أهل الأرض.

مواقف قاسية، وبالذات هذا الموقف من السيدة فاطمة النبوية، صاحبة الضريح المشهور بحى الدرب الأحمر إلى يسار الصاعد إلى قلعة الجبل.

* * *

لكن من هى السيدة فاطمة؟

هذا سؤال طرحته على الشيخ سيد عبد الخالق حجازى أحد مشايخ أو أئمة مسجدها، فأجابنى متغنيًا بسجع الألفاظ يقول: «هى سيدة أهل اليقين، ومانحة لواء العز والسؤدد للقاصدين، وباب تفريج الكروب للمستغيثين، هى الطاهرة النقية، السيدة النبوية، بنت الإمام الحسين، سيد شباب أهل اليقين، وأخت السيدة سكينة، وشقيقة سيدى على زين العابدين».

ان السيدة فاطمة من عقيلات بنى هاشم، بل هى من الأقمار المضيئة فى دوحة آل البيت. كان وجهها كفلقة القمر. وقد سماها أبوها الإمام الحسين فاطمة، تيمنًا

باسم أمه الزهراء فاطمة بنت رسول الله ﷺ. ويمتزج بهذا الجمال، التقوى والعلم والجود والكرم.

هكذا كان آل بيت رسول الله ﷺ.

فقد كانت السيدة فاطمة بنت الحسين، صوّامة قوّامة. كما كانت من راوية سنة جدها محمد بن عبد الله ﷺ ونقلها إلى الأئمة المحدثين. حتى لقد قيل إن الإمام أحمد، وابن ماجه، رويا له عن أبيه الحسين عن النبى ﷺ، أنها قالت: «ما من مسلم يصاب بمصيبة فيذكرها، وإن قدم مشهدها، فيحدث لها الاسترجاع، إلا كتب الله له من الأجر، مثل يوم أصيب».

وقيل إن عمر بن عبد العزيز وكان واليًا على المدينة المنورة، فى عهد عبد الملك ابن مروان المتوفى سنة ٦٧ هـ. وفى وقت كانت الحملة فيها على آل البيت شديدة أنه كان يعظم السيدة فاطمة النبوية وحين ذكرت فى مجلسه، ووصفت بأنها لا تعرف الشر، قال عمر: «إن عدم معرفتها الشر، جنبها الشر».

ومن حكمتها المشهورة، والتى تحفظها لها الكتب ويحفظها المؤمنون، ما قالته رضى الله عنها:

«والله ما نال أهل السفه بسفههم شيئًا، ولا أدركوا من لذاتهم إلا بعض ما ناله أهل المروءات. فاستتروا بجميل ستر الله».

وفضلا عن ذلك.. يروى عنها، أنها كانت فصيحة اللسان، قوية البيان، أخذت فصاحتها عن أبيها الإمام وقوة البيان عن جدها سيد الأنام، فكان حديثها كأنه الدر المنثور، ينطق بالمواعظ الرقاق والحكم البليغة، المعبرة والمؤثرة.

وبالإضافة إلى ذلك فإن السيدة فاطمة النبوية كانت كريمة سخية، تحب الفقراء وتساعد الضعفاء، وتقضى حوائج ذوى الحاجات. وكانت تعطى بسخاء فلا ترد من يسألها، ولا تمنع من رغب فى نوالها، ولا عجب فى ذلك فهى من سلالة النبى الكريم الذى كان أجود البشر، بل كان أجود من الريح المرسلة.

وقد روى عنها أنه حين أمر يزيد بن معاوية بترحيل آل البيت إلى المدينة المنورة من دمشق- بعد كربلاء- اختار لصحبتهم، كما يقول محمود النواوى صاحب كتاب «تراجم إسلامية جليلة لكبار الصحابة والتابعين»، الشريف بشر بن حذلم، وقد كان خير رفيق فى الشدة التى نزلت بهم.

يقول على أحمد شلبى فى كتابه عن السيدة زينب:

«أوصى يزيد النعمان بن بشير ومن معه، وكان بينهم بشر بن حذلم- حسن الصحبة وتلبية طلبات أهل البيت- فكانوا يسايرون الركب- ركب آل البيت- فيكونون أمامه نهارًا بحيث لا يفوتون طرفه فإذا نزلوا ليلا للراحة تنحوا عنهم فيكونون حولهم كهيئة الحرس، بحيث لو أراد أحد الركب وضوءًا أو قضاء حاجة، لم يجد حرجًا فى ذلك.

وكان النعمان وبشر، يسألان أهل البيت عن حاجتهم ويتلطفان بهم، حتى قاربوا نهاية المسيرة.

وحين وصل الركب إلى المدينة، قالت السيدة فاطمة النبوية لأختها سكينة:
- إن هذا الرجل أحسن إلينا فهلا أحسنا إليه؟

فقالت السيدة سكينة:

- والله ما معنا من شىء نحسن به إليه، ولا نصله به، غير هذه الحلى.

وأشارت السيدة سكينة إلى بعض قطع ذهبية كانت تتحلى بها. وهنا تقول السيدة فاطمة النبوية.

- فافعلى يا أختاه، وسأفعل مثلك.

وأخرجت سوارين، «أسورتين»، ودملجين «خلخالين» ودفعتا بها إلى الرجل الأمين، معتذرات بقلة ما معهن.

لكن الرجل رد ما قدم إليه، ردًّا جميلا وقال:

- لو كان الذى صنعته معكم من أجل مطمع، لكان فيما قدمتم إلى مقنع. ولكنى والله ما فعلته إلا لله ولقرابتكم من رسول الله ﷺ.

* * *

لم يستقر مصدر من المصادر التى تناولت سيرة السيدة فاطمة النبوية على تاريخ ميلادها. هناك خلاف فى الجزء الأول من وفيات الأعيان «لابن خلكان» وفى تاريخ «الطبرى»، وحتى فى دائرة المعارف الإسلامية «مادة فاطمة».

بل إنه بالرغم من أن أغلب المصادر تسجل تاريخ وفاتها بعام ١١٠ الهجرى فهناك القليل الذى لا يرى هذا الرأى، ويجعل وفاتها عام ١١٦ الهجرى، والبعض الآخر يراه عام ١٢٦ الهجرى.

وأغلب المؤرخين يتفق على أنها عاشت ستين عامًا من عمرها، وإن كان ابن حبان فى كتابه «طبقات الأتقياء» يقول إنها لحقت بربها وهى فى السبعين من عمرها. بمعنى، أن السيدة فاطمة النبوية، إذا كانت قد عاشت ٦٠ عامًا - طبقًا للرأى الغالب - فهى بلا شك ولدت عام ٤٠ الهجرى، أو حول هذا التاريخ، وفى مدينة الكوفة. وكان هذا التاريخ منعطفًا كبيرًا فى حياة آل البيت حيث أغتال ابن ملجم جدها علىّ بن أبى طالب فى مسجد الكوفة، لتنقاد خلافة المسلمين إلى معاوية ابن أبى سفيان كبير بنى أمية فى ذلك الوقت.

والسؤال المطروح هنا: متى كان زواج السيدة فاطمة النبوية؟

إذا كان من عادة العرب أن تزوج بناتها فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، فإن زواج السيدة فاطمة يأتى قبل كربلاء، ربما بخمس أو ست سنوات أو حتى سبع سنوات.

والمرجح أن السيدة فاطمة تزوجت أول أزواجها فى حياة أبيها من الحسن المثنى ابن عمها.

ففى «الفصول المهمة» لابن الصباغ يقول:

«إن الحسن بن الحسن بن على رضى الله عنه، خطب من عمه الحسين بن على إحدى ابنتيه، فاطمة أو سكينة. وقال له اختر لى إحداهما. فقال الإمام الحسين: اخترت لك ابنتى فاطمة، فهى أكثرهم شبهًا بأمى فاطمة الزهراء رضى الله عنها، بنت رسول الله ﷺ. أما فى الدين فتقوم الليل كله، وتصوم النهار. وأما فى الجمال فتشبه الحور العين. وأما سكينة فغالب عليها الاستغراق مع الله سبحانه وتعالى فلا تصلح لرجل».

وقد روى صاحب الأغانى، أبو الفرج الأصفهانى ما نصه: «أن الحسن المذكور خطب إلى عمه الحسين، فخطب له فاطمة، وقال: اخترت لك فاطمة، فهى أكثر شبهًا بأمى فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وقد عاشرته ـ أى فاطمة ـ على خير ما تعاشر انثى بعلا، تعرف حقه تحفظ مغيبه، كما تحفظ مشهده وتصون عرضها وعرضه، كما تؤدى حق الله بأمره، من طاعة وقنوت وصيام وقيام».

المهم أن زواج فاطمة بنت الحسين، من ابن عمها الحسن بن الحسن، قد أثمر ثلاثة أبناء هم: عبد الله الملقب بالمحض، وابراهيم الملقب بالقمر، والحسن الملقب بالمثلث. وهؤلاء جميعًا كما يروى فى الكتب، ماتو مخنوقين فى سجن أبى جعفر المنصور سنة ١٤٥ هـ. حيث تجددت الحملة الشرسة من جديد على آل البيت فى أيام العباسيين.

ومما يذكره العلماء، أن عبد الله المحض الابن البكر للسيدة فاطمة النبوية، يوجد له ضريح فى جهة عابدين، بجوار الشيخ ريحان، وفى المسجد المعروف بهذا الاسم وقد سمى المحض ـ كما جاء فى كتاب الشيخ الشبلنجى «نور الأبصار فى ذكر آل بيت النبى المختار».. نقلا عن «الفصول المهمة». و «بغية الطالب»، والخطيب البغدادى ـ لأنه أول من جمع بين مصاهرة الحسن والحسين من الحسينية فاطمة.

وكان عبد الله المحض ـ كما وصف يشبه جده رسول الله كما كان من شيوخ بنى هاشم فى زمانه.

وقد قيل مرة لعبد الله المحض: «لم صرتم أفضل الناس؟!» فأجاب: «لأن الناس كلهم يتمنون أن يكونوا منا ولا نتمنى أن نكون من أحدهم».

وجدة عبد الله المحض، لأمه فاطمة، هى السيدة أم إسحق التيمية، بنت طلحة بن عبد الله التيمى. وطلحة كان من أصحاب رسول الله، ومن العشرة المبشرين بالجنة. كما أن جدة السيدة فاطمة لأمها هى أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق وخالتها هى السيدة عائشة أم المؤمنين ويقال إن بنات تيم، كما يعرفهن العرب، كن يتميزن بالجمال الأخاذ والصرامة، ولا يعرفن المزاح، ولذلك فإن المؤرخين ومنهم العقاد، يقولون إن الامام الحسين بقدر ما خلف بنتين هما: فاطمة وسكينة، وبقدر ما كانت سكينة ذات طبيعة خاصة بقدر ما كانت فاطمة جادة.

وحين زفت السيدة فاطمة النبوية إلى زوجها الحسن المثنى.. فهل كان هذا الزواج فى حياة أبيها؟

نعم كان الزواج فى حياة أبيها سيد شباب أهل الجنة. ولا رأى يستطيع أن يقف أمام هذا الرأى أو يخالفه. لكن هناك من يقول إن الزواج لم يستمر طويلا لموت الحسن، رغم أنه أثمر ثلاثة ذكور.

وقد قيل فى زواج السيدة فاطمة النبوية من ابن عمها الكثير. ولكن أهم ما لفت نظرى بالنسبة لما قيل عنها من حسن جمالها وملاحتها هذه العبارة: «إن امرأة مردودتها سكينة، لمنقطعة القرين فى الحسن».

والمردودة، فى اللغة.. أى المفضلة. وإذا كانت السيدة سكينة قد بلغت من الجمال ما بلغت، واشتهرت بين شباب المدينة المنورة بالطرة السكينية، «أو الجمة السكينية»، - كما قالوا، وإن كنا نشك فى هذا القول - فإن فاطمة كانت رائعة الحسن والجمال.

وربما نرجح أن يكون الحسن المثنى قد مات عن السيدة فاطمة، قبل كربلاء. أى أن السيدة فاطمة قاست مأساة كربلاء وهى أرمل.

ويبدو أنها رضى الله عنها تزوجت للمرة الثانية بعد كربلاء بفترة طويلة. شابها ما شابها من الحزن والغم والكرب العظيم.

وقد عثرت على نص فى كتاب «درر الأصداف» يقول: «لما حضرت الحسن زوجها الوفاة، قال لفاطمة: إنك أمرأة مرغوب فيك. وكأنى بعبد الله بن عمرو ابن عثمان بن عفان إذا خرج لجنازتى، قد خرج على فرس مرجلا، لابسًا حلته، يسير فى جانب الناس، فانكحى من شئت سواه، فإنى لا أدع من الدنيا ورائى همًّا غيرك» ثم مات الحسن، وخرج عبد الله بن عمرو لجنازته فى الحالة التى وصفها الحسن، وكان يقال لعبد الله بن عمرو «المظرف» لخفة دمه. فنظر إلى فاطمة، وأرسل إليها من يخطبها له. فقالت: كيف بأيمانى الذى حلفت له ـ للحسن ـ فأرسل إليها من يقول: لك بكل مملوك مملوكان، وعن كل شىء شيئان. فعوضها عن يمينها فنكحته، وولدت له محمدًا والقاسم ويقال إنه أصدقها ألف ألف درهم».

وهذا النص يمكن أن يؤكد تاريخ ميلاد السيدة فاطمة فى بداية الأربعينات من القرن الأول الهجرى.

لأن زواجها الثانى ممكن أن يكون بعد كربلاء بعدة سنوات. وممكن أن يكون قد حدث والسيدة فاطمة النبوية لم تتعد العقد الثالث من عمرها، أو فى بداية العقد الرابع، حيث اكتمال النضج والأنوثة.

على أن السيدة فاطمة النبوية، بعد موت عبد الله بن عمرو، تقدم لها عبد الرحمن بن الضحاك الفهرى، عامل المدينة المنورة، فأبت أن تستجيب له، ورفضت الزواج منه، مؤكدة أن عليها أن تنصرف إلى تربية بنيها. فكان أن هددها بأن سوف يحد أكبر ولدها ـ أى يقيم عليه الحد ـ بأن يلفق له تهمة شرب الخمر، مما دفعها إلى أن تبعث برسول من عندها إلى الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك ابن مروان، تشكو إليه عسف عامله وتعنته وتوعده أياها وولدها بالشر والإيذاء.

وهنا ـ كما يقول صاحب درر الأصداف ـ يبعث يزيد بن عبد الملك إلى عامله من يعزله، ويسومه العذاب. ثم استدعاه إلى دمشق ـ عاصمة الخلافة الأموية ـ وأبى

أن يستمع فيه إلى شفاعة الشفعاء، ثم البسه جبة من صوف، وأركبه على قتب، وطاف به بين الناس، تمثيلا به.

ونحن إذا عرفنا أن يزيد بن الوليد بن عبد الملك، قد تولى الخلافة بعد وفاة أبيه فى عام ٩٦ هـ. فمعنى ذلك أن ابن الضحاك، قد حاول الزواج من السيدة فاطمة، وهى قرب نهاية الحلقة الخامسة من عمرها وكان رفضها مما يؤكد أنها صارت فى أخريات سنوات العمر، واعتقادها أنها كانت قد كبرت على الزواج، لكنه يؤكد أيضًا أن عقيلات آل البيت كن شرفًا ومطلبًا للخطاب. حتى من عمال وحكام بنى أمية فى أى حقبة من عمرهن.

* * *

كما كانت سكينة بنت الحسين، كانت أختها الكبرى فاطمة. شاهدتا أحداثًا جسامًا فى تاريخ بيتهما ينوء عن حملها الجبال، وتتكسر عليها أصلب أعواد البشر لكن فاطمة التى تنتمى من جهة أبيها إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول، ومن ناحية أمها إلى بنى تميم الأشداء، وقفت بعودها الرقيق اللين تتلقى الصدمة وراء الصدمة، بإيمان قوى، وصلابة وتحمل كبيرين، بل إنها ـ وكذلك أهل بيتها الكرام ـ خرجت من هذه الصدمات بدروس مستفادة.

ورغم أن السيدة فاطمة لم تع مأساة جدها لأبيها الإمام على بن أبى طالب، الذى اغتيل فى مسجد الكوفة عام ٤٠ هـ. فهى لا شك وعت مأساة عمها الحسن ابن على بن أبى طالب، حين تآمر بنو أمية مع زوجته «الجعدة» ودست له السم فى الطعام، كما يقال. كما أنها عانت مأساة كربلاء، وتلك الحملة الضارية بعدها على آل البيت، التى لم يخف أوارها حتى فى زمن العباسيين أبناء عمومتهم.

والواقع، إن ما حدث تحت سقف البيت الهاشمى وداخل جدرانه من أحداث، استطاع أن يؤثر فى شخصيتها. ومن هذه الأحداث، حادثة بين أبيها وعمها. فحين تنازل الحسن عن حقه فى الخلافة لمعاوية كان الحسين معارضًا. واشتد فى معارضته لدرجة أن أخاه الأكبر الحسن عنفه، وقال له: «والله الذى لا إله إلا هو، لقد

همت أن أسجنك فى بيت أسد عليك بابه، حتى أقضى بشأنى هذا وأفرغ منه، ثم أخرجك».

ويسكت الحسين، لم يرتفع له صوت معقب على أخيه. وكان هذا درسًا لفاطمة، من حيث وجوب الطاعة المطلقة، طاعة الصغير للكبير، لضمان راحة البيت وأهله، وعدم تعرضه للهزات والأعاصير.

ودرس آخر. حين مات الحسن، وأراد الحسين أن يدفنه مع جده سيدنا رسول الله، كما كانت وصيته، مما أحفظ الأمويين- وعلى رأسهم مروان بن الحكم- أن يدفن عثمان بن عفان بالبقيع، مقبرة المدينة المنورة، ويدفع الحسن فى حجرة الرسول. واستطار الشر، وعظم الأمر، وتدخل العقلاء، فنزل الحسين على رأيهم. فتعلمت فاطمة من هذا الحادث ماهية الشجاعة والإقدام والجرأة. وأن الشجاعة فضيلة، لكن الحلم أقوى من الشجاعة وأبقى.

ودروس كثيرة متعددة والأمثلة عليها لا تعد ولا تحصى.

منها درس فى حياة السيدة فاطمة النبوية، حين أحاطت بأبيها الإمام الحسين ضائقة مالية، اضطرته إلى الاستدانة، ومرت الأيام، ولم يستطع ابن بنت رسول الله ﷺ، أن يوفى الدين وسمع معاوية بن أبى سفيان فى دمشق بضائقة الإمام الحسين، وأحب أن يجرب معه سياسته ودهاءه اللذين يرمى بهما لكسب قلوب المسلمين وأغلبهم مبغض لمعاوية ولبنى أمية. وعرف معاوية أن للحسين نبع ماء اسمه «نبع أبى بيزر»، وهو عين ماء جارية فى المدينة المنورة، كان أبوه الإمام على بن أبى طالب قد وقفها على الفقراء، فعرض معاوية عليه شراءها لكن الحسين برغم الضائقة المالية فوت الفرصة على معاوية، ولم يتصرف فى ميراث الآباء والأجداد، وخرجت ابنته فاطمة بدرس هو: أن من أقدس الواجبات رعاية تقاليد الأسرة، والمحافظة على تراثها.

وفضلا عن هذه الدروس، فإن فاطمة النبوية، ورثت عن أبيها الوفاء والبر. وكان الحسين يأبى أن يتنكر لوفائه، حتى ولو غدر به الناس. كما أنها بعد موت

زوجها الثانى، انصرفت عن الدنيا انصرافًا كليًّا، بعد أن رأت الكثير، وعرفت الكثير وقاست الكثير. ولكنه لم يكن انصرافًا سلبيًّا كما قد يتبادر إلى الأذهان. لقد أقبلت بنت الشهيد على التعبد والاعتكاف. وعرف لها الناس مكانتها، فتلمسوها وأحبوا مجلسها واستمعوا إليها، وهى تروى الحديث. وقد ظلت عاكفة على التعبد، مقبلة على الزهد، مدبرة عن الدنيا فكانت مثلا رائعًا من أمثلة الصلاح والتقوى، والاستمساك بأهداف الفضائل والمثاليات، ونهجًا يتبع بين المسلمات الخالدات من آل البيت، حتى لاقت وجه ربها راضية مرضية.

* * *

الذين يترددون على مشهد السيدة فاطمة النبوية، يلقبونها ـ رضى الله عنها ـ بأم اليتامى، وهى قد اشتهرت بذلك بين العام والخاص، لشدة حنوها، وعطفها على الضعفاء وعلى المعوزين والفقراء، وعلى الأيتام من بنات الشهداء. فهى قد أخذت على عاتقها تربية اليتيمات اللاتى فقدن آباءهن فى كربلاء. بمعنى أنها كانت ـ رضى الله عنها ـ أول من رفعت شعار رعاية أسر الشهداء والمجندين.

فلقد روى التاريخ أن السيدة فاطمة النبوية تكفلت بسبع بنات يتامى، فقدن آباءهن. أحسنت تربيتهن وقامت بشئونهن. وقيل إنها حين حضرت إلى مصر قدمن معها، ودفن بجوارها، قريبًا من مسجدها الشهير على يمين الداخل.

والثابت كما يؤكدون ـ وكما حقق ذلك الإمام الشعرانى عن شيخه على الخواص، أن السيدة فاطمة دفنت فى مسجدها، فهو يقول: «ومقامها عظيم عليه من المهابة والجلال، ما يسر قلوب الناظرين، ويريح نفوس الزائرين.»

وكما يروى ابن بطوطة ـ الذى زار مصر فى القرن ٨ هـ ـ فى كتابه «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»:

«كانت توجد أسفل القبر لوحتان من الرخام مكتوب على إحداهما بخط بديع «بسم الله الرحمن الرحيم، لله العزة والبقاء، وله ماذرأ، وعلى خلقه كتب الفناء، وفى رسول الله أسوة. هذا قبر أم سلمة.. فاطمة بنت الحسين رضى الله عنها». وفى

اللوح الآخر مكتوب «صنعه محمد بن أبى سهل النقاش بمصر» وتحت ذلك أبيات شعر تقول:

اسكنت من كان فى الأحشاء مسكنه
بالرغم منى بين الترب والحجر
يا قبر فاطمة بنت بن فاطمة
بنت الأئمة، بنت الأنجم الزهر
يا قبر ما فيك من دين ومن ورع
ومن عفاف، ومن صون ومن خفر

وفى «تحفة الأحباب»، يقول مؤلفه، حول مقام السيدة فاطمة النبوية: «يوجد خلاف بين مؤرخى المزارات فى صحة هذا المشهد. لكن الذى ظهر لنا تحقيقًا أن هذه النسبة صحيحة. كما يصرح بذلك الأجهورى صاحب مشارق الأنوار، نقلا عن الشهاب الأوحدى صاحب الخطط» وهذا المسجد جدده القاضى شرف الدين الصغير قومندان الجيش المصرى، ثم جدده عبد الرحمن كتخدا، ثم أعيد تجديده فى عهد الدولة العلوية.

ومع ذلك فالمؤرخون يختلفون حتى فى صحة مكان المسجد.

بعضهم يرى أن السيدة فاطمة النبوية، ليست مدفونة بمصر، وهؤلاء قليل وأسانيدهم غير مقنعة. ولم تحسم القضية بعد.

وبعضهم يقول إنه كان للحسين فاطمتان. فاطمة صغرى وفاطمة كبرى، ويستشهد بما قيل فى «درر الأصداف» ما هو صريح فى أن للحسين فاطمة صغرى وفاطمة كبرى. وعبارته، وبالاسناد عنهم: «لما قتل الحسين، جاء غراب فتمرغ فى دمه، وطار حتى وقع بالمدينة المنورة على جدار فاطمة بنت الحسين، وهى الصغرى، فرفعت رأسها ونظرت إليه وبكت بكاءً شديدًا وعرفت أن أباها الإمام الحسين استشهد فقالت القصيدة المنسوبة لفاطمة بنت الحسين، والتى تبدأ بالأبيات:

نعق الغـــرب، قلت مــن تنعيــه. ويحـك يـا غـراب

قال الإمام، فقلت من: قال الموفق للصواب
قلت الحسين؟.. فقال لى بمقال محزون.. أجاب

والبعض الثالث، ومنهم أيضًا ابن بطوطة يرى - وإن كان يؤكد دفن السيدة فاطمة فى مصر - ان مشهد السيدة فاطمة النبوية، ليس فى الدرب الأحمر، ولكنه فى «درب سعادة» بباب الخلق. فقد قال وهو يتحدث عن مسجد السيدة صفية فى درب سعادة: «وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين».

والبعض الرابع، ومنهم السيدة سنية قراعة، فى بحث لها فى مجلة العربى فى ديسمبر ١٩٦٨، تقول:

«ان السيدة فاطمة النبوية بنت الحسين بن على لم تقم بزيارة مصر فى يوم من الأيام، ولم نجد فى روايات الرواة، ولا أحاديث المحدثين ولا أقوال المؤرخين ما يثبت دخولها مصر، فالمزار المقام باسمها فى قلب القاهرة، وفى حى الدرب الأحمر بالذات مجرد مزار أقيم لذكراها، ولم تدفن فيه أصلا..»

لكن رأى السيدة سنية قراعة على إطلاقه يحتاج إلى المناقشة، وإلى الخوض فى كتب كثيرة.

ويحسم القضية الشيخ الأجهورى، صاحب «مشارق الأنوار» ليقول:
«السيدة فاطمة النبوية بنت الحسين السبط مدفونة خلف الدرب الأحمر، فى زقاق يعرف بزقاق فاطمة النبوية، فى مسجد جليل، ومقامها عظيم، وعليه من المهابة والجلال والوقار، ما يسر قلوب الناظرين. ولنا فيها أرجوزة عظيمة ولنا بها زيارات. وما اشتهر من أن فاطمة النبوية بدرب سعادة، غير صحيح، وعلى تقدير صحته، يحتمل أن يكون معبدها. ويحتمل أن تكون فاطمة أخرى من بيت النبوة. وهو موافق لما قالوه من أن أولاد الحسين ثلاثة: سكينة، وزينب، وفاطمة واحدة».

ويؤكد على باشا مبارك فى الجزء الخامس من «الخطط الجديدة» طبعة بولاق عام ١٣٠٥ الهجرى، أن السيدة النبوية فاطمة مدفونة فى مشهد بالدرب الأحمر، ويقول بالنص:

«.. جامع السيدة فاطمة النبوية رضى الله عنها. هذا المسجد عن شمال الذاهب إلى القلعة فى داخل عطفة تعرف بها. أنشأه المرحوم عباس باشا، إنشاءً حسنًا، وجعل به ستة أعمدة من الرخام، وفرشه بالحجر المنحوت، وجعل فيه منبرًا من الخشب ودكة، وأقيمت فيه الجمعة والجماعات، وعمل له ميضأة وحنفية من الرخام، فى وسط محل متسع مفروش بالحجر المنحوت. يفصله من طرقة المراحيض درابزين من خشب، وله منارة وبابان، أحدهما إلى الحنفية والميضأة والآخر ضريح السيدة، وهو ضريح جليل ذو وضع جميل، واقع عن يسار القبلة، عليه قبة مرتفعة، ومقصورة من نحاس أصفر، وخارج القبة رحبة صغيرة عليها درابزين من الخشب يجلس فيه الخدمة..».

ويضيف على باشا مبارك:

«وفى بعض الوثائق أن الأمير سليمان أفندى الشهير بوسيو، أنشأ وعمر زاوية وضريح السيدة فاطمة النبوية رضى الله عنها بقرب درب شغلان، وزرع النوى، داخل الدرب المعروف بالنبوية، على يسرة السالك للتبانة ودرب السباع، وصرف على ذلك مبلغًا قدره ستون ألفًا ونصفًا من الفضة العددية. ولهذا المسجد أوقاف جارية عليه تحت نظر ديوان الأوقاف ويعمل لها - أى للسيدة فاطمة - حضرة كل ليلة ثلاثاء، ومولد كل سنة نحو عشرة أيام، ولها زيارات كثيرة ونذور».

من هذا يتضح أن كل هذا الاهتمام بالسيدة فاطمة ومسجدها ومشهدها، لا يتم إلا بصحة وجود جسدها فى مصر. وهى ربما جاءت مع السيدة زينب ثم عادت إلى المدينة، وبعدها جاءت لتعيش فى مصر.

غير أنه لا عبرة بالاختلاف على وجودها، كما يقول الشيخ الشبلنجى صاحب كتاب «نور الأبصار».. «لا عبرة بالاختلاف فى دفن بعض أهل البيت، الذين لهم بمصر القاهرة مزارات، فان الأنوار التى على أضرحتهم شاهد صدق على وجودهم بهذه الأمكنة، والله أعلم».

السيدة سكينة
حفيدة الرسول وبنت سيد الشهداء

تألق نجم فى سماء المدينة المنورة. زهرة حلوة الملامح جميلة القسمات من آل بيت النبى ﷺ أحست بالهدوء والأمان فى رحابه الطاهر، رغم تلك المؤامرات والدسائس والتخرصات التى أشاعها أعداء آل البيت ومن دار فى فلكهم.

ثم إن هذا النجم فجأة وقع فقد كان على موعد مع ربه.

* * *

سكينة، أو «آمنة» بنت الحسين، سيد شهداء أهل الجنة وسبط الرسول الكريم. بلغت السبعين من عمرها فى عام ١١٧ هـ. كما ترجح الروايات، وكما اتفق على ذلك الطبرى فى تاريخه، وابن خلكان فى «وفيات الأعيان» فاضت روحها الطاهرة صباح يوم حرارته شديدة وانتقلت إلى جوار ربها لتلاقى جدها النبى، وجدتها فاطمة الزهراء، وبقية آل البيت الكرام، من الشهداء والصديقين.

وخرجت رفاتها تتهادى بين جموع المشيعين والمتشيعين لآل البيت لكنها حتى فى الموت وقبل أن يستقر جسدها فى مقره الأخير، لم تخل من حسد فإن أمير المدينة والىّ الأمويين، أمر أن يؤخروا الصلاة عليها حتى يحضر. وجلس الناس حولها حتى وقت العشاء، ولم يحضر الأمير، فأوقدوا حولها عودًا من المسك بأربعمائة دينار، ليصلوا عليها جماعات جماعات، حتى اليوم التالى، ليدفنوها ويدفنوا معها علم وأدب زهرة من زهور آل البيت وليدفنوا معها سيرة عطرة، ونفحة زكية من النفحات النبوية.

* * *

وتاريخ سكينة بنت الحسين، اختلف فيه الرواة، بعضهم صدق. وبعضهم تخرص وكذب وأشاع. والخلاف نشأ ـ كما يقال ـ من أن بنى أمية كما قتلوا عترة الرسول، وتآمروا ضد على بن أبى طالب، بل إنهم بعد أن اغتصبوا الخلافة وجعلوها ملكا وراثيا، لم يتركوا ما بقى من السلالة الطاهرة للرسول، فقد أعطوا الأموال كالأنهار ودفعوا بناقصى العقل والدين. لأن يختلقوا الروايات تلو الروايات، يملئوا بها مئات المجلدات، ضد العقيلات من بنات النبى ﷺ.

وهناك أدلة تثبت ما نقوله، منها ما ذكره السيد الفكيكى من أن أبا على القالى قد ارتجل فى «أماليه»، وهو فى كنف تلميذه الحكم الأموى فى الأندلس، فأملى فيه ما أملى من المفتريات على سكينة، ولم يذكر شيئًا من أشعار ابن ربيعة التى تغزل فيها بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان، وبأخته أم محمد بنت مروان ابن الحكم كما أهمل أشعار ابن ربيعة فى رملة وأخت الحجاج، ولم يحفظ سوى رواية المغنين المقلوبة فى «سكينة» رضى الله عنها.

والواقع أن السيدة سكينة ـ إذا نحن تأكدنا أنها توفيت فى عام ١١٧ هـ. وأنها عاشت سبعين عاما ـ فلابد أن ولادتها قد جاءت فى عام ٤٧ هـ أى بعد سنوات من مقتل جدها على بن أبى طالب، وانقياد الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان، ومحاولته القضاء على عترة رسول الله ﷺ: الحسن بن على بالسم، ثم لما تخلص منه لم يبق سوى أخيه الحسين بن على، الذى استشهد بدوره فى كربلاء على يد جند يزيد بن معاوية.

فى ظروف الفتنة الكبرى هذه، والتى اشتد لهيبها منذ استشهاد عثمان بن عفان، نشأت سكينة بنت الحسين، وكانت على حساسية مفرطة، بل إنها أدركت منذ سنواتها الأولى ذلك الحقد المدفون فى قلب بنى أمية، وذلك الثأر الذى ظلوا يتوارثونه أبا عن جد، منذ أن انقادت زعامة قريش فى الجاهلية لبنى هاشم دون بنى عبد شمس، وتأيدت باصطفاء نبى الإسلام محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه الصلاة والسلام.

واستقر بنو عبد شمس «الأميون» على رأى- كما تقول د. بنت الشاطئ- «إلا تكن نبوة فخلافة».

ومن هنا، فقد عاش أبو سفيان حربًا على النبى الهاشمى، فهو لم يدخل الإسلام إلا مكرهًا يوم فتح مكة، بعد معارك طاحنة امتدت ثمانى سنوات موصولة. وحتى بعد أن دخل الإسلام، بقى أبو سفيان ما عاش يرنو إلى الأمر من بعيد، بعد أن رأى انصراف الخلافة عن بيت النبى إلى أبى بكر، ثم عمر ثم رأى- خاصة فى خلافة عثمان بن عفان- الولاة من بنى أمية يغلبون على الأمصار. فداخله الزهو حتى أنه وقف يومًا على قبر الشهيد حمزة بن عبد المطلب عم النبى يقول:

«رحمك الله أبا عمارة، لقد قاتلنا على أمر صار إلينا».

ومات أبو سفيان، وترك لابنه معاوية ذلك الثأر الدفين. وجاء الأمر لمعاوية فكان له مع على بن أبى طالب، وابنه الحسين ما كان.

ثم جاء بعده يزيد بن معاوية. وكان له مع آل بيت النبى ما كان، مما جاء فيما أوردنا فى الصفحات السابقة.

* * *

السيدة سكينة بنت الحسين، أخت على زين العابدين. سميت باسم جدتها «آمنة» أم النبى، ثم لقبتها أمها الرباب بلقب «سكينة» لعلها لحظت أن هذه الزهرة من بنى هاشم كانت «تسكن» إليها نفوس آل بيتها الأقربين لفرط مرحها وجمالها ونشاطها وعقلها.

ويقال إن أباها الإمام الحسين أسرف فى الاهتمام بها وبأمها الرباب إلى حد لفت نظر أخيه الأكبر الحسن، ودفعه للتدخل فى أخص شئون أخيه بالملامة والعتاب، فقال الحسين بيتين ردًّا على ذلك، جاء فى كتاب «مقاتل الطالبيين»، وفى «الأغانى» لأبى الفرج الأصفهانى، ومصادر أخرى كثيرة، وإن البعض يرى أن هذا الشعر مدسوس:

لعمـري إننى لأحب دارًا   تكون بها سكينة والرباب
أحبهـما وأبذل بعـد مالى   وليس للائمى فيها عتاب

سكينة كبرت فى بيت النبوة، وقد آلت الخلافة ليزيد بن معاوية ملكًا موروثًا. ولم تكن تفتها صغيرة ولا كبيرة من ذلك الصراع المحتدم المستمر بعد ذلك بين حق أبيها الإمام الحسين وباطل خصومه فقد امتنع أبوها أن يبايع يزيد الفاسق، شارب الخمر، بالخلافة فى عام ٦٠ هـ، وهنا يرحل الحسين وأهله إلى مكة، حيث طافت سكينة معه بالبيت العتيق، ووقفت بالمشاهد التاريخية التى واكبت حياة أسرتها، وحياة العالم الإسلامى أجمع. وأتيح لها وقتئذ أن ترقب وتتفتح على النشاط الثقافى المزدهر فى المدينة المنورة.

وكان موسم حج هذا العام، وسكينة بنت الأعوام الثلاثة عشر يتفتح صباها الأخضر الزاهر عن آية من آيات الحسن والبهاء والجلال. وأقبلت فتيات مكة على حفيدة الرسول يرصدن حركاتها ولفتاتها، وذلك النمط الخلاب الذى استحدثته فى تنسيق شعرها. وحاولن تقليدها فيما ظنته عقول الفتيات أنه سر فتنتها، وأقصد به «الطرة السكينية».. أو «الجمة السكينية» فلم تبق شابة حسناء من مكة إلا وحاولت تصفيف شعرها مثل سكينة.

لكن فتيات قريش وإن كن قلدنها فى ذلك، فقد أعياهن أن يأخذن عنها نبل الملامح وجلال الطلعة ونور النبى ﷺ.

وكانت قلوب الشباب القرشى والهاشمى، تتحرك كل منهم يتمنى لو فاز بالزواج منها.. وجاء الحسن المثنى، الذى يرشحه شرفه وبنوته للإمام الحسن، لمظاهرة عمه الحسين وقال الحسين لابن أخيه عبارة ذكرناها من قبل ونعيد ذكرها:

«اخترت لك ابنتى فاطمة، فهى أكثر ابنتى شبهًا بأمى فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وأنها لذات دين وجمال، تقوم الليل وتصوم بالنهار أما سكينة فغالب عليها الاستغراق مع الله فلا تصلح لرجل».

وبالطبع، فإن وصف الحسين لابنته سكينة، يؤكد لنا أن مرحها وأناقتها وميلها

للشعر والنقد لم يكن سبة فى آل البيت كما يروج المغرضون، وإنما كان من أجل تبديد بعض الغيوم التى كانت تخيم على البيت العلوى كما تذكر ذلك الدكتورة بنت الشاطئ فى كتابها « «سكينة بنت الحسين». بمعنى أنها كانت تصطنع المرح لترفه عن أبيها بالذات ومع ذلك فقد كانت ـ كما قال أبوها ـ تقية متعبدة زاهدة. لم تكن سكينة غافلة عن هموم أبيها، بل كانت تقوم بدور المؤنسة فى تلك الأيام الحالكة.

* * *

ضم مخيم النساء فى كربلاء السيدة زينب أخت الحسين، وزوجته الرباب، وابنتيه سكينة وفاطمة، وبقية العقائل الكريمات من بنى هاشم. ذهبت السيدة زينب لترى أخاها الحسين فى معسكره، فوجدته يعد سيفه، ويقول شعرًا كمن ينعى نفسه. وتصيح السيدة زينب:

«واثكلاه. ينعى الحسين نفسه، ليت الموت أعدمنى الحياة. ماتت أمى فاطمة وأبى على وأخى الحسن، ولم يترك غيرك يا خليفة الماضين وثمالة الباقين».

وتبلغ هذه الصيحة معسكر السيدات، فيهرعن إلى معسكر الحسين والكرب يعصف بهن، ونظر الحسين إليهن، وقال:

«يا أختاه، يا أم كلثوم وأنت يا زينب، وأنت يا سكينة وأنت يا فاطمة، وأنت يا رباب، إذا أنا قتلت، فلا تشق إحداكن على جيبًا، ولا تخمشن وجهًا، ولا تقلن هجرًا».

وأطرقن جميعًا واجمات، وخيم على المكان سكون ثقيل، ما لبث أن مزقه نشيج مؤلم. كانت السيدة سكينة تبكى. وهى التى كانت تؤنس أباها كلما ثقل عليه الهم فأقبل أبوها فى حنو يقول لها: «لقد هان على سكينة أن توجع قلب أبيها ببكائها»

وسألها أبوها الحسين قائلا وملاطفًا حتى تكف عن بكائها: «أفلا يهون عليك الأمر إننى أدفع حياتى دفاعًا عن حق ودفعًا لباطل، وإننى ملاق غدًا جدى الرسول وأمى الزهراء وأبى الإمام وأخى الحسن وعمى حمزة، وابن عمى مسلم بن عقيل، وأنت لابدّ لاحقة بنا فى غد قريب أو بعيد».

لكن سكينة لم تكف عن بكائها. وهنا يرنو إليها ابوها الحبيب طويلا. ثم يقول في شجاعة المستسلم لقضاء الله وقدره.

«سيطول بعدى عنك يا سكينة، فهلا ادخرت البكاء لغد، وما غد ببعيد؟».

وكان الغد المفجع المؤلم لسكينة، ولآل بيت الرسول ﷺ باستشهاد الحسين ومن معه. فى مرة واحدة ويوم واحد هو التاسع من المحرم سنة ٦١ هـ. حيث اقتحم عسكر بنى أمية خيمة سكينة، وأخرجت لترى أشلاء مبعثرة ومختلطة لأبيها وأعمامها وأخيها الشقيق عبد الله وأخويها لأبيها، على الأكبر وجعفر.

وهنا فى ذهول المؤمنة وقفت تطل على البقايا والأشلاء الطاهرة. حتى فرغ بنو أمية من جز رءوس الشهداء، وجاءوا يسوقون سكينة مع النساء إلى الكوفة. لكن سكينة ترمى بنفسها على ما بقى من جسد أبيها واحتضنته متشبثة به، فخيل إليها أنها تسمع صوتاً يخرج من منحره الدامى:

شيعتى ما إن شربتم
عذب ماء فاذكرونى
أو سمعتم بغريب
أو شهيد فاندبونى

لكنهم انتزعوها من فوق جسد أبيها فى قسوة وعنف، وألحقوها بركب السبايا إلى الكوفة. وتقف سكينة فى الركب التعس حاسرة الوجه، مهيضة الجناح تقول لأهل الكوفة، الذين خذلوا آل البيت:

ان الحسين غداة الطف يرشقه
ريب المنون فما إن يخطئ الحدقة
بكف شر عباد الله كلهم
نسل البغايا وجيش المرق والفسقة

ثم تسير سكينة مع الركب إلى الكوفة بعد ما حدث مع واليها ابن زياد. إلى دمشق. حيث يلقاهن يزيد بن معاوية. ومن دمشق إلى المدينة المنورة.

وتضطرب الأخبار عن سكينة فى المدينة. بعض المؤرخين يقولون إنها صحبت عمتها السيدة زينب إلى مصر، وإنها عادت إلى الحجاز بعد وفاة عمتها فى رجب ٦٢ هـ.

* * *

وكما تضطرب الأخبار عن زواجها فى المدينة ويختلف فيها المؤرخون فإن دكتورة بنت الشاطئ تؤكد أنه صح لديها ثلاث زيجات لبنت الحسين: مصعب بن الزبير، وعبد الله الخزامى، وزيد الخزامى، وتحاول أن تفند ما حاوله بعض المؤرخين فى مسألة تعدد أزواج سكينة، وتنظر إليه بعين مريبة، وخاصة ما جاء فى دائرة المعارف الإسلامية حيث كتب مادة سكينة المستشرق «ماسييه» وأغلب المستشرقين لهم الكثير من الأغراض!

لكن الثأر بين بنى هاشم وبين بنى أمية لا يزال. فقد قتل مصعب فى الكوفة،قتله عبد الله بن مروان الأموى لتترمل «سكينة». بعد عشر سنوات من كربلاء.. حتى أنها قالت لأهل الكوفة بعد مقتل مصعب الذى استشهد وهو يتمثل الحسين:

«الله يعلم أنى أبغضكم، قتلتم جدى عليًّا، وقتلتم أبى الحسين، وزوجى مصعبًا فبأى وجه تلقوننى، يتمتمونى صغيرة ورملتمونى كبيرة».

فالسيدة سكينة كما يقول ابن خلكان، حين تزوجت مصعبًا، دفع لأخيها زين العابدين مهرًا ألف ألف دينار. وعاشت معه فى العراق، ثم انتقلت إلى المدينة بعد استشهاده.

وتعود سكينة إلى الحجاز، لتصبح - إن صح التعبير - نجمة المجتمع الحجازى تعتز دائمًا بنسبها العالى وشرفها. ولكن الثأر لا يزال بين بنى أمية وبنى هاشم.

فقد ظل والى المدينة خالد بن عبد الملك بن الحارث المروانى، من قبل هشام ابن عبد الملك يشتم جد سكينة - عليًّا بن أبى طالب - فكانت سكينة تجىء كل جمعة لتشهد صلاة الجماعة. فإذا شتم خالد عليًّا تشتمه وتأمر جواريها بشتمه، فلا يملك أن يرد عليها بل يكتفى بأن تضرب شرطته الجوارى.

وأيضًا قيل ان سكينة شهدت يومًا مأتمًا فيه بنت لعثمان بن عفان فقالت العثمانية:

- أنا بنت الشهيد

فأنكر المجلس أن تفخر بأبيها على مسمع من بنت سيد الشهداء على حين أمسكت سكينة صامتة لا تعلق.

إلى أن أذن المؤذن من مسجد الرسول ﷺ، فلما بلغ قوله: «أشهد أن محمدًا رسول الله». التفتت سكينة إلى بنت عثمان وسألتها:

- هذا أبى، أم أبوك؟

فأجابت العثمانية فى تواضع:

- لا أفخر عليكم أبدًا.

* * *

كانت السيدة سكينة - كما كان آل بيت رسول الله ﷺ - آية فى الشجاعة، وفى ضبط النفس، كما كانت آية فى العلم والتقوى، ولا غرو فإن أباها الحسين سبط الرسول والذى قال فيه ﷺ: «أحب الله من أحب حسينًا» وأمها كانت الرباب بنت امرئ القيس بن على بن أوس الكلبى من أشراف مكة. ومن خيار الناس وأفضلهن. وقد جاء الخطاب يلتفون حول الرباب يريدون أن يتزوجونها بعد استشهاد الحسين، لكنها قالت بصوت الإيمان والوفاء «ما كنت لأتخذ حمًا بعد رسول الله ﷺ».

يقول الشيخ حمزة فتح الله فى كتابه «باكورة الكلام فى حقوق النساء فى الإسلام».

«كانت السيدة سكينة غاية فى الكمال والجمال والعلم والأدب وسعة الثروة، ولها فكاهات تروق القلوب، مع نهاية ما يتصور العقل من عفة وصون».

وقال صاحب كتاب «درر الأصداف»: «كانت سكينة رضى الله عنها من الجمال

والأدب والفصاحة بمنزلة عظيمة وكان منزلها مألف الأدباء والشعراء، وكانت مرجع العلماء والأتقياء فى كثير من العلوم والفنون».

وعن آيات ضبط النفس والتحكم فى العواطف يقال إن السيدة سكينة أمضت حياتها الزوجية مع مصعب، وهو لا يدرى ما تضمره له من حب، حتى جاء يودعها الوداع الأخير، فصاحت من خلف: واحزناه عليك يا مصعب: فالتفت إليها مصعب فى دهشة وقال لها: أَوَكُل هذا لى فى قلبك؟

قالت: أى والله، ما كنت أخفى أكثر.

فقال: لو كنت أعلم أن هذا كله لى عندك لكانت لى ولك حال».

وكما تقول د. سعاد ماهر فى كتابها «مساجد مصر وأولياء الله الصالحون». بالنسبة لعملها وحفظها الشعر. ونقده وبراعتها فى ذلك:

«إذا كان للغرب أن يفتخر بندوات نسائه العلمية و «صالوناته» فى القرن الثامن عشر، فإن للعرب أن يتيهوا عجبًا بندوات نسائه فى الأندلس التى سبقت الغرب بعدة قرون. فقد كانت ندوات ولّادة بنت المستكفى فى القرن الحادى عشر الميلادى مجمع العلماء والشعراء وأهل الفن والأدب. على أن ندوات ولّادة بنت المستكفى لم تكن الأولى فى الإسلام، فقد سبقتها فى القرن الأول الهجرى ندوات نسائية فى المدينة المنورة، وكان أول من سنها هى السيدة سكينة، وقد امتازت ندوتها بالأدب والعلم الغزير، فكم اجتمع ببابها الشعراء يطلبون الإذن منها لينشدوا أشعارهم، فقد اجتمع الفرزدق، وجرير، وجميل، وكثير فى موسم الحج واتفقوا على الذهاب للسيدة سكينة يحتكمون إليها من يكون أشعرهم، فأخذ كل منهم ينشد شعره من وراء حجاب، حتى إذا جاء دور جميل وأنشد شعره:

لكل حديث بينهن بشاشة
وكل قتيل بينهن شهيد
يقولون جاهد يا جميل بغزوة
وأى جهاد غيرهن أريد

وأفضل أيامى، وأفضل مشهدى
إذا هيج بى يوما وهن قعود

فقالت له السيدة سكينة: «أنت الذى جعلت قتيلنا شهيدًا، وحديثنا بشاشة، وأفضل أيامك يوم تذب عنا وتدافع، ولم تتعد ذلك إلى قبيح. خذ هذه الألف درهم وأبسط لنا العذر، أنت أشعرهم»

وفضلا عن العلم ونقد الشعر، فقد كانت جيدة تبسط يدها، وفى كتاب «الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور» للسيدة زينب فواز.. الكثير من ملامح جود بنت الرسول. وهذا الجود منثور الكلام حوله فى الأغانى، وفى وفيات الأعيان لابن خلكان. وكتب أخرى كثيرة.

ومن الأمثلة على الجود، تلك الدراهم والدنانير التى كانت تعطيها للشعراء والعلماء وكل صاحب حاجة. وكانت للسيدة سكينة ابنة من مصعب بن الزبير سمتها «الرباب» على اسم أمها، وكانت الرباب الصغيرة غاية فى الحسن والجمال مثل أمها وجدتها، فكانت تلبسها اللؤلؤ..

ولما سألوها: لماذا اللؤلؤ؟

قالت السيدة سكينة:
ـ ما ألبستها إياه ـ تقصد اللؤلؤ ـ إلا لتفضحه.

ويعلق صاحب الأغانى، أبو الفرج الأصفهانى، على ذلك بقوله:
– إنها تريد أن تفضح الحلى بحسنها، لأنها أجمل منه، وكانت السيدة سكينة كريمة تهين المال.

* * *

هل السيدة سكينة دفنت فى مشهدها الذى يقع فى شارع الخليفة بالقاهرة قريبا من مشهد السيدة نفيسة ويحمل اسمها الطاهر شارع باسمها؟!

الإمام الشعرانى يقول ويؤكد: «إنه لما دخلت السيدة نفيسة مصر، كانت عمتها

السيدة سكينة المدفونة قريبا من دار الخلافة، مقيمة بمصر ولها الشهرة العظيمة».

وهناك رأى يقول: إن السيدة سكينة جاءت إلى مصر مرتين. مرة مع عمتها السيدة زينب. والمرة الأخرى حين خطبها الأصبغ بن عبد العزيز من أخيها علىّ زين العابدين، وبعث مهرها إلى المدينة المنورة، فحملها أخوها على زين العابدين إلى مصر. فلما وصلت مصر مات الأصبغ وكان واليًا عليها، فأقامت بمصر حتى لحقت بجوار ربها.

وقد نقل هذين الرأيين على باشا مبارك صاحب «الخطط التوفيقية».

ويقول صاحب كتاب «نور الأبصار»: «لا عبرة بالاختلاف فى دفن بعض أهل البيت الذين لهم بمصر القاهرة مزارات، فإن الأنوار التى على أضرحتهم شاهد صدق على وجودهم بهذه الأمكنة، والله أعلم».

ويدلل البعض على وجود جسد السيدة سكينة الطاهر بمصر، أنه حين أنشأ عبد الرحمن كتخدا المسجد الحالى عام ١١٧٣ هـ كتب عليه:

حرم يا بنت الحسين مؤرخ
لسكينة تصبو المواهب كلها
ذا مسجد يا آل طه مؤرخ
شمس هدى بنت الحسين سكينة

من هذه الأدلة يتضح وجود جسد السيدة سكينة فى مصر، رغم أن كثيرًا من الكتاب يرجحون أنها دفنت فى البقيع بالمدينة المنورة. ويقولون إن السيدة سكينة لم تأت إلى مصر مرة أخرى، بعد أن جاءت مع عمتها وغادرتها. خاصة وأن بنى أمية حين عرفوا بنية زواج الأصبغ من سكينة، خيروه بين منصبه وبين الزواج فاختار المنصب.

على أنه أيًا كان الجسد الطاهر، موضعه، فإن جسد السيدة سكينة رضى الله عنها فى كل موضع أهل للتعظيم والتشريف.

أما عن مشهدها ومسجدها، فقد عمرها الأمير عبد الرحمن كتخدا عام ١١٧٣ هـ.

وفى عهد على باشا مبارك، وصف الضريح ـ ضريح السيدة سكينة ـ بأنه «مجلل بالبهاء والنور، وعليه تابوت من الخشب، وأوقافه تحت نظر الديوان».

وكان الضريح قبل عهد عباس باشا الأول منخفضًا عن سطح أرض المسجد، فرفع الضريح إلى ما يقرب من مستوى سطح المسجد، ووضعت عليه مقصورة من النحاس أخت المقصورة الموجودة فى مشهد السيدة نفيسة بالضبط. وقد جددت القبة والمسجد فى عهد عباس حلمى عام ١٢٣٢ هـ. ومنذ ذلك التاريخ وهو فى صورته الحالية. عنوانًا للفن الإسلامى الدقيق.

ولا شك أن مشهد السيدة سكينة كان قائمًا قبل عبد الرحمن كتخدا، ويقول بعض المؤرخين إنه كان فيه مدفن للإمام الفقيه، زين بن إبراهيم بن نجيم المصرى المتوفى عام ٩٢٩ الميلادى.

السيّدة نفيسة
لؤلؤة آل البيت على جبين مصر

رغم أنها ولدت فى مكة المكرمة، ذات يوم من ربيع الأول عام ١٤٥ الهجرى، فإنه فى المدينة المنورة، حيث يرقد جسد الرسول الطاهر كانت نشأتها ومرابع طفولتها، وكان ترددها الدائم على حجرة جدها الرسول. وفى رحابه تتنسم عطر النبوة وأريجها. وداخل المسجد النبوى، فطمت على التقوى والعلم والتهجد وقراءة القرآن الكريم وحفظ الحديث. حتى لقبت بنفيسة العلم، وعدها العلماء من أوائل سيدات آل البيت اللاتى شققن طريق التصوف والخلوص إلى الله.

وقد حجت السيدة نفيسة ثلاثين حجة. كانت فيها تتعلق بأستار الكعبة الشريفة وتقول: «إلهى وسيدى ومولاى، متعنى وفرحنى برضاك عنى. فلا تسبب لى سببًا يحجبك عنى».

وأمام «الملتزم» ـ فى الحجة الثلاثين ـ كانت تقف خاشعة، وتدعو الله، أن يوفقها لزيارة قبر نبيه إبراهيم.. واستجاب الله دعوتها، لتذهب إلى الشام وتمكث هناك بعض الوقت، ثم يشاء الله أن تعد العدة لتتجه إلى مصر أرض الكنانة، لتعيش فيها وتموت، وليظل مشهدها ومسجدها لؤلؤة من لآلئ آل البيت، يترصع به جبين أرض مصر. ويصبح مصدر بركات.

* * *

. أحسست وأنا أحث الخطى إلى مشهد السيدة نفيسة بنت سيدى حسن الأنور ابن زيد الأبلج بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم، فى عصر يوم من

رمضان المبارك. أن القلب يرفع بين الضلوع، وأن نفسي تتراقص من الفرحة والحبور فى داخلى. وحين دخلت إلى حجرتها ووقفت غاضّ الطرف أمام حضرتها، أحسست أن ثقلا انزاح عن صدرى وبدأت أتنفس فى رحابها عطر النبوة الذى ملأ روحى وكيانى وجعلنى أستشعر تاريخ آل البيت وأولياء الله: «رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، إنه حميد مجيد».

وكما يقول الرسول ﷺ: «أهل بيتى كسفينة نوح. من تعلق بها نجا، ومن تخلف عنها غرق».

وحين قطعت شارع الأشرف من ناحية جامع ابن طولون فى اتجاه ضريح السيدة نفيسة ومسجدها صافحت عينى كوكبة من مشاهد آل البيت ذات اليمين وذات الشمال تضىء كالكواكب الدرية كشىء من الإعداد النفسى قبل الدخول إلى رحاب كريمة الدارين.

وعند النفيسة.

دخلت المسجد أول ما دخلت وسط الأنوار المتلألئة والألوان المبهجة فى عز النهار وآيات من كتاب الله الكريم تتناثر فى فن إلهى حول المنبر والقبلة وعلى «عتب» الشبابيك والأبواب. وقبل ذلك كله، حين وقفت أمام الضريح لأصلى ركعتين لله، دخل أنفى أريج النبوة وعطرها ذلك العطر الذى تستنشقه وأنت داخل الروضة المطهرة فى المسجد النبوى الشريف بالمدينة المنورة وهو عطر مميز تشمه عند آل البيت.

وكيف لا، والسيدة نفيسة فرع من دوحة النبوة الكريمة. ومن أغصانها الذى طهرهم الله تطهيرًا وزرع حبهم داخل قلب كل مؤمن برسالة محمد بن عبد الله الذى رُوِى عنه ﷺ قوله:

«خلق الناس من أشجار شتى، وخلقت أنا وعلى بن أبى طالب من شجرة واحدة. فما قولكم فى شجرة أنا أصلها، وفاطمة فرعها، وعلى لقاحها، والحسن

والحسين ثمارها، وشيعتنا أوراقها.. فمن تعلق بغصن من أغصانها ساقه إلى الجنة، ومن تركها هوى إلى النار».

وهذه الدوحة النبوية هى من تفانت فى الإخلاص لله ورسوله، ومن أجهدت نفسها فى التقرب إليه، وهى - كما تقول السيدة نفيسة- «من استقام مع الله، فكان الكون بيده وفى طاعته».

كانت رضى الله عنها تعيش الدنيا من أجل الآخرة، وعملت حياتها للآخرة، والآخرة فقط، فعرفت طريقها المستقيم إلى الله وهى حقًا بركة من بركات آل البيت فى مصر، حتى قيل إن فى مصر سبعة من أولياء الله الصالحين، الدعاء عندهم لله مستجاب ومنهم السيدة نفيسة، تقول عنها السيدة زينب بنت أخيها يحيى المتوج بالأنوار:

«خدمت عمتى - السيدة نفيسة - أربعين عامًا، فما رأيتها نامت بليل، ولا أفطرت بنهار. إلا العيدين وأيام التشريق».

* * *

رغم أن السيدة نفيسة كان والدها سيدى حسن الأنور رضى الله عنه واليًا على المدينة المنورة- من قبل الخليفة العباسى المنصور- وعاشت داخل قصره فى الحمراء، فإن الجاه والعز لم يشكلا شيئًا بالنسبة لها، فمنذ صغرها أخذ والدها يلقنها ما تحتاج إليه فى دينها ودنياها، وكانت دائمًا تقضى أوقاتها فى المسجد النبوى. حتى ليقال: إنها سمعت «موطأ» الإمام مالك من فمه. ويقال إن أباها كان دائمًا يتفرغ لتعليمها، ويأخذها إلى حجرة جدهما رسول الله، ويمسك بيدها، ويقول: «يا سيدى يا رسول الله، إنى راض عن بنتى نفيسة» واستمر فى ذلك حتى رأى سيدى حسن الأنور، الرسول الكريم ﷺ فى المنام يقول له: «إننى راض عن نفيسة برضاك عنها، والحق سبحانه راض برضائى عنها». بمعنى أن السيدة نفيسة نشأت على تعاليم النبوة، وتأدبت بآدابها.

وحين بلغت الخامسة عشرة من عمرها رغب فى زواجها شباب بيت النبوة،

لما كانت تتمتع به من حسن وجمال وعلم. ومن هؤلاء ابن عمها إسحق المؤتمن، لكن أباها سيدى حسن الأنور لم يعطه جوابًا فى البداية فذهب إسحق المؤتمن إلى مسجد جده الرسول، ودخل الحجرة الشريفة، وقال أمام حضرة سيد البشر:

«إنى خطبت نفيسة بنت الحسن من أبيها فلم يرد على جوابًا».

وبعدها رأى سيدى حسن الأنور الرسول فى منامه يقول له:

«زوج نفيسة من إسحق». فزوجها له فى رجب من عام ١٦١ الهجرى.

وهكذا، بزواج السيدة نفيسة من إسحق المؤتمن بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين فى رجب عام ١٦١ هـ - كما يقول الأستاذ توفيق أبو علم - اجتمع النوران. نور الحسن والحسين، إذ أن نفيسة جدها الحسن وإسحق جده الحسين.

* * *

بعد زيارة قبر الخليل إبراهيم، عزمت السيدة نفيسة على الرحيل إلى مصر فوفدت عليها فى ٢٥ رمضان عام ١٩٣ هـ. ٨٠٩م. حيث نزلت مصر القديمة وكان ذلك فى ولاية الحسن بن البحباح من قبل هارون الرشيد. فلما سمع أهل مصر بقدومها. وكان لها عندهم صيت كبير وسيرة حسنة، تلقتها النساء والرجال بالهوادج والخيول رافعة المصاحف والمشاعل والبنادر، عند مدينة العريش مكبرين مهللين، فرحين مستبشرين بهدية آل البيت إليهم. ثم وصلت مصر، معززة مكرمة. وكان لوصولها وقع عظيم وقصة يحكيها المؤرخون. كل من وجهة نظره، لكنهم جميعًا يتفقون على صحة هذه الرحلة إلى مصر، ومقامها بها. ودفنها فى مشهدها الحالى.

وحين وصلت مصر السيدة نفيسة أنزلها فى بيته والىّ مصر، وكان من أهل الصلاح والتقوى، ومن محبى آل البيت. ثم نزلت أول ما نزلت بدار كبير تجار مصر جمال الدين الجصاص، ومكثت بها شهرًا، والناس يفدون عليها من كل فج، حتى ضاقت الدار بما رحبت. فكان ان انتقلت إلى دار أخرى لسيدة مصرية تقية اسمها «أم هانئ» أجهدت نفسها لتقنع حفيدة الرسول بالنزول عندها، ثم انتقلت السيدة

نفيسة إلى دار أخرى بالحسينية، فامتلأت بمريديها.

وهنا تفكر السيدة نفيسة فى العودة إلى المدينة المنورة لتقضى بقية عمرها فى هدوء وانقطاع للعبادة.

وهنا أيضا يتجمهر أهل مصر حول منزلها، وحول منزل الوالى السرى ابن عبد الحكم بن يوسف ليتشفع لهم عند السيدة نفيسة، لكنها قالت له: «إنى كنت قد اعتزمت البقاء عندكم، غير أنى امرأة ضعيفة، وقد تكاثر الناس حولى، فشغلونى عن أورادى وجمع زادى لمعادى والدار ضيقة».

ويرجوها والى مصر وأعيانها. ويختارون لها أن تقبل المقام فى دار فسيحة فى درب السباع هى دار أبى جعفر بن هرون السلمى فتوافق، على أن يحدد يومان فى الأسبوع ليزورها المؤمنون يأخذون منها البركات، وهما السبت والأربع، ثم تنقطع هى بقية أيام الأسبوع للعبادة، وقد استمرت على ذلك فى مصر حتى لاقت وجه ربها فى هذه الدار. ويقال إنها هى التى حفرت قبرها بيدها داخل دارها. وختمت القرآن فى هذا القبر ١٩٠ مرة وبعضهم يزيدها إلى ١٩٠٠ وألفى مرة، بل إنها كانت دائمة الصلاة فيه.

وهناك رأى يقول إنه لم يثن السيدة نفيسة عن مغادرة مصر سوى أنها ـ كما جاء فى الكواكب السيارة ـ رأت فى المنام جدها الرسول ﷺ يقول لها: «لا ترحلى عن مصر، فإن الله متوفيك فيها».

وكانت وفاتها حين زاد عليها فى المرض فى أول جمعة من رمضان وهى صائمة، وقد أشار عليها الأطباء بالإفطار، فقالت: «واعجباه! لى ثلاثون سنة أسأل الله أن يتوفانى وأنا صائمة، أفأفطر الآن؟! معاذ الله».

ثم كان اليوم الأخير، الذى بكاها فيه المصريون، فقد أخذت تقرأ فى سورة الأنعام، حين وصلت فى قراءتها فى هدأة الليل إلى قوله تعالى: «لهم دار السلام عند ربهم، وهو وليهم بما كانوا يعلمون» غشى عليها وشهدت شهادة الحق، لتنتقل إلى الرفيق الأعلى.

* * *

وحين توفيت السيدة نفيسة، وسرى النبأ فى مصر، اجتمع خلق كثير، من القرى والبلدان حول منزلها لا يغادرونه رغم الليل، وأوقدت الشموع تلك الليلة فى جميع الأرجاء والنواحى. وسمع البكاء والترحم فى كل دار، وزاد تجمهر الناس وأمسكوا بقلوبهم حين نما إلى علمهم أن زوج السيدة نفيسة إسحق المؤتمن قد حضر من المدينة المنورة، وقرر أن يأخذ رفاتها لتدفن هناك.

وهنا يحدث أخذ ورد كثير بين والى مصر الذى رجاه المصريون وضغطوا عليه ليبقى الجسد الطاهر فى أرض الكنانة، وبين إسحق المؤتمن. وبعد إصرار من الطرفين فجأة يتراجع إسحق المؤتمن عن قراره ويرضى بتشريف جسدها الطاهر أرض مصر. وحين سئل لماذا تراجعت، قال: «رأيت رسول الله فى المنام يقول: يا إسحق لا تعارض أهل مصر فى نفيسة فإن الرحمة تنزل عليهم ببركاتها». وفى رواية أخرى: أن الناس فى مصر، جمعوا مالا عظيمًا من أجل دفن السيدة نفيسة فى مصر، وذهبوا به إلى إسحق، لكنه، لم يقبله، أو قيل إنه قبله، لكنه رأى منامًا يقول: «رد على الناس أموالهم وادفنها عندهم».

ويأمر والى مصر عبد الله بن السرى ببناء مقام على قبرها إعلاما لعلوّ شأنها. وحتى تتمكن جماهير المحبين والمريدين والعاشقين لآل البيت أن تزور السيدة نفيسة فى قبرها كما كانوا يتجمهرون حولها وهى على قيد الحياة، والسبب فى ذلك كما يقول المقريزى فى خططه: «أن قبر السيدة نفيسة أحد المواضع المعروفة بإجابة الدعاء بمصر». وكما يقول ابن محمود السخاوى عن قبر السيدة نفيسة: «إنه مجرب بإجابة الدعاء». وقال بعض الصالحين كما جاء فى كتاب «الجواهر النفيسة فى مناقب السيدة نفيسة» للشيخ محمد عبد الخالق. وفى كتاب «كريمة الدارين السيدة نفيسة» من تأليف الشيخ أحمد فهمى «أن الله تعالى وكل بقبرها ملكًا يقضى حاجات الناس».

وجدير بالذكر أنه بلغ من تقديس مشهد السيدة نفيسة، أن البعض تسلل إليه وسرق ١٦ قنديلا من الفضة فى عام ٢٢٤ هـ وبعد القبض عليهم اعترف أحدهم بالسرقة فشنق أمام المسجد.

كما أن الرحالة عبد الغنى النابلسى الذى زاد المشهد النفيسى عام ١١٠٥ هـ - ١٦٩٢م هاله ما رآه من اهتمام الناس بقبر السيدة نفيسة فقال: «إن نساء مصر منذ القرن الثامن الهجرى، خصصن يوم الأربعاء لزيارة السيدة نفيسة والخميس لزيارة الحسين». وكان بعض السلف الصالح يعتقدون أن زيارة آل البيت تبدأ من الحسين وبعضهم يرى أنها تبدأ من المشهد النفيسى. والثابت أن الخلفاء والأمراء فى مصر، ظلوا لفترة طويلة يبدءون زيارة آل البيت بالمشهد النفيسى ويختمونها بالمشهد الحسينى.

وهذا بالطبع إن دل على شىء، فإنما يدل على ما للسيدة نفيسة من مقام موصول فى حياتها ومماتها بالنسبة للمصريين الذين هم فعلا لديهم الاعتقاد ببركتها، وأن الدعاء لله فى رحابها مستجاب.

يقول السخاوى فى تحفته «ولم يزل الصالحون والفقهاء والمحدثون والقراء والعلماء يزورون مشهد السيدة نفيسة، رضى الله عنها، ويدعون عنده، وهو مجرب بإجابة الدعاء».

وكما يقول الشيخ عبد الوهاب الشعرانى: «رأيت فى كلام الشيخ أبى المواهب الشاذلى، أنه رأى فى المنام النبى ﷺ، فقال: يا محمد، إذا كان لك إلى الله حاجة، فأنذر لنفيسة الطاهرة ولو بدرهم، يقضى الله حاجتك».

* * *

هذه المكانة الرفيعة للنفيسة فى قلوب أهل مصر، من النساء خاصة، ما هو سرها؟!

بالإضافة إلى أن السيدة نفيسة رضى الله عنها، نفحة من نفحات آل البيت حيث يتمتع المصريون بصيت كبير، أنهم من العشاق المتشيعين لهم المؤمنين بالله ورسوله، فالنفيسة أيضًا من خلال حياتها وتهجدها وتعبدها وخصالها الشريفة كانت مثلا للورع والتقوى والعلم والفصاحة ونبعًا فياضًا طالما نهل منه العلماء والفقهاء.

وهنا لا يتسع المقام لذكر نفحات من حياتها ومماتها فى مصر. وإنما نجتزئ

ونلخص ونكثف القليل، مما روته الكتب عنها وخاصة كتب المصريين من الكتاب والباحثين.

وبمناسبة العلم والتقوى، فللسيدة نفيسة صفحات ـ كما يذكر ابن خلكان فى وفيات الأعيان ـ مع الإمام الشافعى المدفون فى مصر على مقربة منها، وشيخ المذهب الذى تسمى باسمه، كما كانت لها صفحات مع الإمام مالك فى المدينة المنورة من قبل.

فقد كان الإمام الشافعى يزورها كثيرًا، ويتحاور معها، ويسمع منها من وراء حجاب وكان دائمًا يلتمس بركاتها، ويقال إنه كان يصلى التراويح فى رمضان فى مسجدها وكان إذا مرض يرسل لها أحد أتباعه بالسلام، ليقول لها إن ابن عمك الشافعى يطلب دعاءك له بالشفاء، فتدعو له، فما يرجع رسول الشافعى إليه إلا وقد عوفى من مرضه.

ومعنى هذا، أن السيدة نفيسة كانت من أولياء الله الصالحين المكشوف عنهم الحجاب. والدليل على ذلك أنه، حين مرض الإمام الشافعى مرضه الأخير، وأرسل إلى السيدة نفيسه برسوله كعادته لتدعو له، قالت للرسول: «متعه الله بالنظر إلى وجهه». فأدرك الإمام الشافعى من هذا أن الأجل قد أوشك. وهنا أوصى من حوله بأن تصلى السيدة نفيسة عليه.

وفعلا حين توفى الإمام الشافعى فى عام ٢٠٤ هـ. قبل وفاة السيدة نفيسة بأربع سنوات، مروا بجنازته على بيت السيدة نفيسة بأمر من أمير مصر ابن الحكم، وبناء على طلبها لعجزها عن الحركة من كثرة التعبد والعبادة. فصلت نفيسة الطاهرة عليه، بعد أن أمها فى الصلاة أبو يعقوب البويطى أحد تلاميذ الإمام الشافعى كما يثبت ذلك المستشار عبد الحليم الجندى، فى كتابه القيم عن الإمام الشافعى.

ولقد قيل إنه بعد أن صلت السيدة نفيسة على الشافعى صلاة الجنازة قيل وشاع: «إن الله غفر لمن صلى على الشافعى بالشافعى، وغفر للشافعى بصلاة السيدة نفيسة عليه».

وليس الشافعى وحده الذى كان له مكانة عند السيدة نفيسة. أو وهو وحده الذى كان يعرف تقواها وبركاتها، وصلتها بخالقها، بل كان الكثير من الولاة والخلفاء والسلاطين وأهل العلم يعرفون قدرها ويقفون ببابها ويأخذون عنها صحيح الحديث، ويستشيرونها فيما أشكل عليهم من أمور الدين والشريعة والكتب تحوى الكثير من أسماء الأعلام والصالحين الذين كانوا يترددون عليها، ومنهم ذو النون المصرى، وعبد الله بن عبد الحكم. وهما أيضًا من تلاميذ الإمام الشافعى.

بل يقال إن أحمد بن حنبل، إمام المذهب الحنبلى طلب من السيدة نفيسة أن تدعو له وأصل الحكاية أن النفيسة ذهبت تعود بشر بن الحارث حين أقعده المرض، وكان عنده الإمام أحمد بن حنبل، فسأل ابن حنبل: من تكون السيدة؟ فقال بشر ابن الحارث: هى السيدة نفيسة. فما كان من ابن حنبل إلا أن قال له: «سلها صالح الدعوات».

وقد ذكرت الكتب الكثير من الأقوال المأثورة للسيدة نفيسة منها:

«حذار من الغرور، فلقد كان رسول الله ﷺ حين تحفه الصحابة بألوان من التعظيم والتكريم، يمرغ خديه فى التراب».

«لا يكمل حب المسلم لرسول الله إلا بمتابعته فى جميع أعماله وأقواله».

«لا مناص من الشوك فى طريق السعادة، فمن تخطاه وصل».

«إن الجهاد فى طلب الرزق عبادة يدخر أجرها ليوم الحساب».

وقصص كثيرة نسجت فى حياة السيدة نفيسة وبعد مماتها. منها القصة التى رواها المؤرخ المصرى ابن إياس فى كتابه «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» عن حوادث المائة العاشرة، حول الصبية التى ذبحت وألقيت فى بئر بالقرب من مشهد السيدة نفيسة، والتى وجدها أهلها حية لم تمت، ببركة كريمة الدارين.

ثم قصة البنت اليهودية المقعدة التى مسحت على رجليها بماء وضوء السيدة نفيسة. فشفاها الله، وكان هذا سببًا فى اعتناق سبعين أسرة يهودية الإسلام.

هذا فضلا عما قيل وهو كثير عن زهد السيدة نفيسة، وهو زهد اشتهر به أهل البيت. ومنها تلك الرواية التى تقول إن أمير مصر السرى بن الحكم أرسل لها مائة ألف درهم فصرتها صررًا، وتصدقت بها عن آخرها. حتى أن من فى بيتها طلب منها أن تبقى على شىء لتفطر به. فما كان من السيدة نفيسة إلا أن أعطتها غزلا من صنع يدها لتبيعه وتشترى به شيئًا من الأكل. فقد كانت السيدة نفيسة معروفة بأنها لا تأكل سوى وجبة واحدة كل ثلاثة أيام، وقيل إنه كان للسيدة نفيسة سلة أمام مصلاها، فكلما اشتهت نفسها شيئًا للأكل وجدته من خير ربها.

وعن شجاعة السيدة نفيسة وهى من شجاعة آل البيت ـ قيل ـ وإن اختلف المؤرخون على العصر – أنها أوقفت موكب حاكم مصر أو واليها لما اشتكاه لها المصريون من ظلمه وعسفه، فارتجف فى حضرتها، ووعدها ألّا يظلم ـ بعد ذلك ـ أحدًا، وقد وفى بما وعد.

* * *

لا شك أن مشهد السيدة نفيسة سيظل كوكبًا مضيئًا يحج إليه المؤمنون، للبركة والدعاء، وكشف الغمة وراحة النفس. بل إن الكثيرين شاهدتهم داخل الضريح وقد جاءوا من أماكن بعيدة، ليوفوا نذورهم، أو يطوفوا بالضريح ويقرءون الفاتحة ويدعون الله. فقد أكد الكثيرون أن مقام السيدة نفيسة مشهور باستجابة الله الدعاء عنده، بل إن بعض الصالحين يكرر ويقول: إن من كان فى شدة وكرب فليتوجه إلى السيدة نفيسة بنت الحسن وليتأدب بآداب زيارة آل البيت ويكون قلبه لله، ويدعو ما يريد.

وهذا الذى يقال عن مشهد السيدة نفيسة جاء من ذكريات كثيرة، رواها الكثير من الصادقين فى عصرنا، وفى العصور السابقة، وقد روى ابن حجر العسقلانى أكثر من مائة علامة من بركاتها.

ومما يروى فى الماضى مثلا أنه فى عام ٧٤٣ هـ مرض رابع سلاطين آل قلاوون بمرض الرعاف، وحار فى علاجه الأطباء. وقد أشار الصالحون على والدته السلطانة

أن تذهب إلى مشهد السيدة نفيسة بقلب مؤمن للدعاء عندها والنذر للفقراء. وفعلا زال المرض وتم شفاء السلطان بإذن الله فكان أن أصدر أمره بزينة القاهرة كلها وتوزيع الصدقات على المحتاجين. بل إن أم السلطان حملت إلى المشهد النفيسى قنديل ذهب زنته رطلان وسبع أوقيات ونصف.

ومما يذكر، أن الخلفاء العباسيين الذين جاءوا إلى مصر فى أيام الظاهر بيبرس، بعد أن أحرق هولاكو بغداد، رجوا وأصروا على أن يدفنوا بجوار قبر السيدة نفيسة لنيل بركاتها. كما أن الكثير من الخلفاء الفاطميين فعل مثل ذلك من قبل. ولذلك، فحول قبر السيدة نفيسة عشرات من قبور الخلفاء والسلاطين.

وقد روى عن أبى المسك كافور الأخشيدى أنه كان يزور السيدة نفيسة كل يوم خميس وكان حين يشارف مشهدها من بعيد يترجل من على دابته، ويدخل حاسر الرأس، ويسأل الله تعالى عند مقامها أن يقضى حوائجه التى كانت تنقضى ويفى بالنذور. وكان كافور دائمًا يأتى بالمسك والطيب والشمع والزيت والقناديل، ويحسن على سدنة المقام كثيرًا، واستمر ذلك طول حياته حتى توفى عام ٣٥٦ هـ.

* * *

ماذا عن قبة السيدة نفيسة ومشهدها ومسجدها؟!

إنها بلا شك شهدت اهتمامًا كبيرًا من كل عصور التاريخ التى تواترت على مصر، وهو اهتمام موصول من الولاة والسلاطين والعامة على السواء.

وقد جاء فى المقريزى. «إن أول من بنى على قبره هو عبيد الله بن السرى ابن الحكم والى مصر من قبل الأمويين، ثم أعيد بناء الضريح فى عهد الدولة الفاطمية، فى عهد المستنصر بالله خامس الخلفاء الفاطميين، فقد قام سنة ٤٨٢ هـ بتجديد المقام وتشييد بنائه، وإعلاء أركانه، وكان مكتوبًا على اللوح الرخامى على باب الضريح، والذى كان مصفحًا بالحديد «نصر من الله وفتح قريب»، أمر بإنشاء هذا المشهد الشريف النفيسى، مولانا أمير المؤمنين، فى ربيع آخر سنة ٤٨٢ هـ».

وقد تجدد المشهد عام ٥٣٢ هـ. فى عهد الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله، الذى بنى القبة على القبر الشريف».

وقد بقى من عمارة الخليفة الحافظ لدين الله بمتحف الفن الإسلامى محراب خشبى متنقل فيه زخارف دقيقة وكتابات كوفية غاية فى الدقة تقرأ: «إن المتقين فى جنات وعيون آخذين بما أتاهم ربهم، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون». هذا بالاضافة إلى مصراعين من الخشب دقت حشواتها بزخارف نباتية، ومكتوب بوسط كل حشوة بالكوفى «بركة».

وكان الخلفاء الفاطميون قبل الحافظ وبعده يهتمون بمشهد السيدة نفيسة، ويقفون الأموال والضياع عليه.

ويقول الأثرى حسن عبد الوهاب إنه فى أيام الأيوبيين جدد الملك الناصر محمد بن قلاوون القبة وأنشأ المسجد بجوارها من ماله الخاص، وكان ذلك فى عام ٧١٤ هـ.

والدليل على ذلك ما رواه الرحالة المغربى خالد البلوى عام ٧٣٧ هـ. حين جاء مصر وزار مشهد السيدة نفيسة، ووصفه وصفًا دقيقًا مفصلا، حيث قال:

«شاهدت المشهد العظيم، مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها فرأيت مسجدًا عظيمًا غاية فى الحسن، فيه من الذهب وأنواع النحاس ما لا يحصيه العد ولا يجمعه، وفى جدار قبلة المسجد باب بديع يؤدى إلى قبة عجيبة تتوقد ذهبا وتتلألأ جمالا وتحت القبة الضريح المبارك، وحوله الرخام البديع المجزع الغريب الترصيع، وثريات الفضة والذهب وقناديل التبر الخالص الإبريز».

وفى عام ٧٧٠ هـ. أقام والىّ مصر على باشا حكيم بوابة على الساحة الفضاء أمام المسجد، وهى الباقية إلى الآن وسط الميدان، ونقش عليها أبياتًا من الشعر تضمنت ما ناله من بركات السيدة نفيسة. وبعد هذا التاريخ بثلاث سنوات قام

الأمير عبد الرحمن كتخدا كما ورد فى الجبرتى، بتجديد المسجد والمشهد تجديدًا شاملاً.

والثابت أن حريقًا حدث فى المسجد أواخر عام ١٣١٠ هـ. أتلف النصف الشرقى للمسجد ولذلك أعاد بناء الضريح والمسجد خديو مصر عباس حلمى الثانى عام ١٣١٣ هـ ـ ١٨٩٦ م. وقد افتتح المسجد بنفسه حيث صلى فيه الجمعة باحتفال مهيب اشترك فيه الأمراء والأعيان.

وجدير بالذكر أن المقصورة النحاسية الدقيقة الصنع والموجودة حتى الآن هى من صنع عصر عباس باشا. وقد قامت بعملية التجديد وزارة الأوقاف فى مصر، راعت فيه ـ كما يقول الأثرى حسن عبد الوهاب ـ أصول فن العمارة الإسلامية. كما يذكر أيضًا أن هناك أكثر من قطعة أثرية من مشهد السيدة نفيسة موجودة فى المتحف الإسلامى. وتؤكد الأثرية العالمة د. سعاد ماهر فى كتابها «مساجد مصر وأولياء الله الصالحون». أن المسجد والمشهد، هما فى نفس المكان الذى دفنت فيه السيدة نفيسة منذ حوالى ١٢ قرنا من الزمان.

* * *

وبعد فهذه نفحات عن السيدة نفيسة التى يعمر مشهدها ومسجدها دائمًا بالمحبين العاشقين. والتى أجمع المؤرخون ـ ولم يختلفوا مطلقًا ـ على صحة تشريفها أرض مصر ودفنها فى المشهد الذى يرقد فيه جسدها الطاهر الآن والتى.. قيل إن الكثيرات من نساء الملوك والسلاطين والأمراء كن يسمين بناتهن نفيسة وكما قيل أيضا فإن نفيسة بنت زيد زوج الخليفة الوليد بن عبد الملك سميت السيدة نفيسة، هى التى دفعت زوجها إلى الجهاد والإصلاحات، وكانت عونًا وخيرًا وبركة له، كما يقول توفيق أبو علم فى كتابه عن السيدة نفيسة.

«لقد كانت السيدة نفيسة عالمة ونفيسة ومؤمنة ومحدثة.. ولقبت بنفيسة الدارين، ونفيسة الطاهرة، ونفيسة العابدة، ونفيسة المصرية، ونفيسة المصريين وكانت رضى الله عنها صبورة فى طاعة الله، ومتواضعة، ونموذجًا للمرأة المسلمة. كانت السيدة

نفيسة متصوفة، عابدة عاملة، ثرية ابنة حسب وأشرف نسب. لكنها كانت دائمًا فقيرة إلى الله ترجو عفوه ورحمته، ويكفى أنه يقال، إن السيدة نفيسة قالت فى مصر: «إننى أدعو الله دائمًا أن يجعل مصر بعد الأماكن المقدسة محفوظة برعايته، يشع منها نور الإسلام والهداية على جميع الأرض، وأسأله تعالى أن يستجيب الدعاء، إنه سميع مجيب».

السّيدة عائشة
دُرّة مكنونة من كنوز آل البيت

رغم أن مشهد السيدة عائشة رضى الله عنها، يعتبر من المشاهد القديمة والمعروفة، ورغم أن المؤرخين يؤكدون ويصممون على أنها دفنت فى هذا المشهد، وأن جسدها الطاهر قد شرف تراب مصر بدفنه فيه، فإن ما كتب عن السيدة عائشة- وهى من الأجيال الأولى لكواكب ونجوم آل البيت الذين جاءوا إلى مصر- قليل. بل هو يكاد يكون نادرًا. وهذا النادر أيضًا أغلبه يجافى الصواب.

وقبل أن أكتب هذه السطور عن السيدة الشريفة عائشة رضى الله عنها، كان ترددى الدائب والمستمر على المكتبات العامة، والخاصة ومكتبات المساجد الشهيرة فى محاولة البحث عن كل سطر تتجمع فيه معلومات حولها رضى الله عنها، وهى التى يتسمى باسمها حى قاهرى كامل. ويحمل اسمها باب فى سور القاهرة منذ الأيوبيين.

* * *

ولم أكتف بالتردد على دار الكتب والوثائق القومية فى باب الخلق، بل سألت كثيرًا وحاولت أكثر من خلال البحث والسماع عن كبار المتفقهين فى سيرة آل بيت النبى ومن كثير من المتصوفة، حتى اجتمعت لى حصيلة لا بأس بها من المعلومات، بعضها مباشر عن السيدة عائشة رضى الله عنها، وهو قليل وبعضها حول أبيها، وحول الإمام موسى الكاظم وإسحق المؤتمن أخويها. والأخير كان زوج السيدة نفيسة.

قرأت الشعرانى فى «طبقاته الكبرى» الجزء الأول:

وقرأت شمس الدين بن محمد الزيات فى كتابه «الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة فى القرافتين الكبرى والصغرى».

وقرأت كتاب الشيخ الشبلنجى «نور الأبصار فى تاريخ آل بيت النبى المختار».

وقلبت فى كتاب ابن محمود السخاوى الحنفى «تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات».

وتهب فى طبعات مختلفة من «الخطط التوفيقية» أو «الخطط الجديدة» لعلى باشا مبارك.

وبحثت فى الأثرى حسن عبد الوهاب وكتابه «تاريخ المساجد الأثرية» الجزء الأول، حيث وجدت كثيرًا من المعلومات عن السيدة عائشة ورسومًا لمسجدها ومشهدها القديم فى الجزء الثانى.

ثم حاولت فى ابن كثير، أبحث عن سنة وفاة السيدة عائشة وفى ابن خلكان. فضلا عن كتاب «مشاهد الصفا فى المدفونين بمصر من آل المصطفى».

وقلبت فى الصحف القديمة لأجد مقالين فى جريدة الأهرام بتاريخ ٣ و٤ أغسطس سنة ١٩٣١. والمقالان لأحمد زكى باشا، شيخ العروبة بعنوان «صحيح صحيح، مسجد السيدة عائشة بالقاهرة» ويعلن أحمد زكى باشا على رءوس الأشهاد أن جثمان السيدة عائشة بنت جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، قد دفن فى مصر، بعد ما حاول أن يوهم البعض بأن مشهد السيدة عائشة من «مشاهد الرؤيا»، أو أضرحة الرؤيا.

ثم سرت وراء المعلومات الغزيرة نسبيًا، عن الإمام جعفر الصادق أبى السيد عائشة وعن جدها الإمام محمد الباقر، وعن أخيها إسحق المؤتمن، زوج السيدة نفيسة، لعلى أجد عن السيدة عائشة شيئًا.

* * *

كان السؤال الذى طرحته على نفسى بعد تلك القراءات واللقاءات لماذا هذه المعلومات الضيقة عن السيدة عائشة بالذات - دون آل البيت المدفونين فى مصر - رغم التأكيد على وجود جثمانها الطاهر؟ وهل هى ماتت فعلا عام ١٤٥ هـ الذى تجمع عليه كتب المؤرخين، رغم انه لا فى ابن كثير، ولا فى وفيات الأعيان ذكر لوفاتها فى هذا العام؟

قال لى فضيلة الشيخ ابراهيم جلهوم، أحد مشايخ المسجد الزينبى، إنه لا يستطيع تعليلا لندرة المعلومات عن السيدة عائشة. وقد كان هو شيخ مسجدها، قبل أن يصبح شيخ مسجد السيدة زينب. وربما كان السبب الأقوى فى ندرة المعلومات عن السيدة عائشة رضى الله عنها، أنها ماتت بكرًا لم تتزوج فى حياتها. وأن هناك من الروايات ما تقول بانها عاشت سنوات قليلة من عمرها.

لكن أين الحقيقة؟

فى كتاب الشيخ الشبلنجى «نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار». لفتتنى تلك السطور عن السيدة عائشة، وعن والدها جعفر الصادق رضى الله عنها. فهو يذكر انه حاول البحث عن أم السيدة عائشة أخت الإمام موسى الكاظم، ولكنه لم يوفق فى إثبات من هى أمها. ويقول: إذا كانت السيدة عائشة أخت موسى الكاظم، فلابد أن تكون أمه وهى حميدة البربرية - بضم الحاء وفتح الميم - هى أمها زوجة الإمام جعفر الصادق.

وإذا كان ثابتًا أن جعفر الصادق لم يعقب سوى بنت واحدة هى «فروة»، فمن المحتمل ان يكون هذا لقبًا للسيدة عائشة أوكنية لها. خاصة ونحن نعرف أن العرب كان من عاداتهم أن يتسموا بأسماء أجدادهم، واسم جدة السيدة عائشة هو «أم فروة» بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، الذى كان واليًا على مصر وقتله الأمويون. ومقامه موجود بمصر.

وخطوة أخرى خطوتها، وهى إذا كان الإمام جعفر الصادق والد السيدة عائشة قد مات فى شوال سنة ١٤٨ هـ أيام المنصور العباسى، وله من العمر ٦٨ عامًا، وإذا

كان أخوها موسى الكاظم قد ولد فى عام ١٢٨ هجرية، فمعنى أن إجماع أغلب المؤرخين على أن السيدة عائشة ماتت عام ١٤٥ هـ. أنها ماتت صغيرة السن وربما بكرًا كذلك، رغم ما سبق اسمها فى المصادر من لقب «السيدة» وإن كان هو من الإجلال والتعظيم لآل البيت.

ويؤكد ما أريد إثباته هنا، نص فى كتاب «تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات»، لابن محمود السخاوى الحنفى يحاول به المؤلف أن يرد على الذين يقولون إنها دخلت مصر عام ١٦٩ هـ. وإنها لم تمت فى عام ١٤٥ الهجرى. وإنما ماتت عام ٢٤٥ هـ. يقول هذا النص:

«... السيدة عائشة بنت الإمام جعفر الصادق، دخولها مصر ثابت ليس فيه ما يقال من أنها دخلتها سنة ١٦٩ هـ. وفى صحبة إدريس بن عبدالله المحض، بعد موقعة «فخ» - كربلاء - التى استشهد فيها الحسين العابد وجماعة آل البيت.

«وكانت تحت عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب. إن التاريخ الذى يؤرخون به وفاتها، أعنى سنة ٢٤٥ هـ لا نقر به بحال لأننا فى حالة إقرارنا له - يمكننا القول بأن السيدة عائشة مكثت بمصر حوالى قرن إلا ربعًا. وهذا يستبعد حدوثه. ومن هنا يتبين خطأ تاريخ الوفاة الذى يذكره بعض مؤرخى المزارات المصرية».

ويضيف ابن محمود السخاوى الحنفى:

«... إن ذلك خطأ لأنه لو كان طال مكثها بمصر ولو قليلا من الزمن، لحدث أهل مصر عنها، ونقلوا إلينا الكثير من أخبارها، كما حصل للسيدة نفيسة بنت الحسن الأنور، فإنها دخلت مصر سنة ١٩٤ هـ. وتوفيت سنة ٢٠٤ هـ. ففى مدة السنين العشر هذه، حدث عنها أهل مصر بأحاديث ملأت عدة أسفار».

وهذا النص، رغم ما فيه من إلقاء الضوء على تاريخ وفاة السيدة عائشة، فهو هنا ومن عبارة «.. وكانت تحت عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر ابن الخطاب» يثير علامة استفهام كبيرة فكلمة «تحت» هل معناها أن مصر كانت

تحت حكمه.. أو السيدة عائشة كانت متزوجة منه؟ وهذا ما لا نستطيع أن نجزم فيه برأى.

لكن أين الحقيقة؟!

إن السؤال الذى يمكن طرحه هنا - فى محاولة الى الحقيقة - هو: هل جثمان السيدة عائشة رضى الله عنها من المؤكد أنه دفن فى مصر؟

بعض الباحثين، يقول: إنه فى مصر فى العصور الوسطى - وفى أيام الفاطميين بالذات - حدث ما يعرف باسم «مشاهد الرؤيا». أو«أضرحة الرؤيا». وهى مشاهد وأضرحة كان يلجأ إليها فى أوقات المحن والحروب والكوارث. فبعض الصالحين كان يرى رؤية لقطب من أقطاب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أولولى من أولياء الله الصالحين، فيصحو ليبنى له ضريحًا، كى يذهب إليه الناس وتدعو الله عنده، أن يزيل الغمة، ويكشف البلاء».

فهل مشهد السيدة عائشة رضى الله عنها من مشاهد أو أضرحة الرؤيا؟!

الواقع أنه ليس كذلك، فجسدها الطاهر مدفون فى تلك البقعة المباركة من أرض مصر، منذ ما يزيد عن ألف عام. وبالطبع، فنحن لا نلقى الكلام على علاته، ولنترك المصادر تتحدث:

* شمس الدين بن محمد الزيات فى كتابه «الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة فى القرافتين الكبرى والصغرى». وهو خير من ألف فى أعلام القرافتين الكبرى والصغرى. يقول عند الحديث عن السيدة عائشة:

«... وأصح ما بالحومة، مشهد السيدة عائشة، لها نسب متصل بالإمام الحسين بن الإمام على بن أبى طالب».

* الإمام الشعرانى يقول عن السيدة عائشة:

«أخبرنى سيدى على الخواص - أستاذه - أن السيدة عائشة بنت جعفر الصادق، رضى الله عنها، فى المنارة القصيرة على يسارك وأنت تريد الخروج من

الرميلة - أى حى القلعة - إلى باب القرافة، وهى المدفونة بباب قرافة مصر رضى الله عنها».

وقال كذلك حين حديثه عن المدفونين بمصر من آل البيت: «ومنهن السيدة عائشة بنت جعفر الصادق رحمها الله المدفونة بباب القرافة بمصر، رضى الله عنها».

* ابن محمود السخاوى الحنفى... يؤكد أنه رأى بعينى رأسه قبر السيدة عائشة، وقد ثبت عليه لوح رخامى يقول: «هذا قبر السيدة الشريفة عائشة. توفيت سنة خمس وأربعين ومائة من الهجرة».

* حسن عبد الوهاب «الأثرى» يقول فى كتابه «تاريخ المساجد الأثرية» بعد أن تحدث عن السيدة عائشة: «... هذه ترجمة موجزة لسيدة من آل البيت النبوى الكريم، مشرف جثمانها الطاهر أرض مصر، ووجدنا منذ ستمائة سنة شبه إجماع على جثمان السيدة عائشة فى مشهدها القائم فى الرميلة. أى وجودها فى مصر».

* على باشا مبارك. لخص آراء المؤرخين فى صحة وجود الضريح فى كتابه «الخطط التوفيقية».

* أحمد زكى باشا وقد تحقق من وجود جثمان السيدة عائشة - يعلن على رءوس الأشهاد بقوله فى بحث له فى جريدة الأهرام بتاريخ يومى ٣ و٤ أغسطس عام ١٩٣١: «أن المشهد القائم فى جنوب القاهرة باسم السيدة عائشة النبوية. هو حقيقة متشرف بضم جثمانها الطاهر، وفيه مشرق أنوارها، ومهبط البركات».

كل هذه المصادر تؤكد وجود جثمان السيدة عائشة فى مشهدها.

ومع هذا التأكيد الشديد، يظل التساؤل أيضًا: لماذا المعلومات القليلة المتناثرة عن السيدة عائشة؟ ولماذا لم تلق حول حياتها الأضواء، ولم تتحدث عنها المصادر كجوهرة من كنوز آل بيت النبى الذين فضلوا المجىء إلى مصر، والدفن فيها؟!

وهذا كله يرجح بالطبع، إلى أن حياتها كانت قصيرة، وأنها ماتت صغيرة، وربما لم تتعد العشرين من عمرها.

* * *

السيدة الشريفة عائشة، بأسرتها من أبيها جعفر الصادق، وأخويها موسى الكاظم وإسحق المؤتمن، والأخير كان قد تزوج السيدة نفيسة، ممكن أن نلقى عليها الأضواء أكثر. فهى كما جاء فى كتاب «مشاهد الصفا فى المدفونين بمصر من آل المصطفى»: «كانت من العابدات القانتات، المجاهدات».

ويروى عن السيدة عائشة – كما تؤكد بذلك الكتب والعلماء. ومنهم الشعرانى فى طبقاته، فى فصل بعنوان «ذكر جماعة من عباد النساء» وقال إن منهم السيدة عائشة بنت جعفر الصادق، المدفونة بباب قرافة مصر، كانت – رضى الله عنها – تقول، موجهة الحديث إلى الله عز وجل:

«وعزتك وجلالك، لئن أدخلتنى النار، لآخذن توحيدى بيدى، فأطوف به على أهل النار، وأقول: وحدته فعذبنى».

وما أثر عنها صحيح، يرويه كل من اهتموا بتاريخ السيدة عائشة، وتاريخ آل البيت الكرام.

وهذا الحديث إلى الله، جل وعلا – كما أرى – له معنى كبير. وهذا المعنى يتمثل فى قمة الالتقاء مع الخالق وقمة الورع والتقوى. بل هو – وكما يقول العلماء – نوع من الدلال مع الله. لا يقدم عليه أو لا يستطيعه إلا من كان إيمانه قويًّا.

لقد أعطى الله عز وجل آل بيت رسوله الكرام من فضل علمه، والخلق الأشم، مما تميزوا به على غيرهم. وعرف آل البيت بالتقشف والزهد، واشتهروا بالنسك والعبادة والجود والسخاء والصدق واليقين. إذن ليس بغريب على آل البيت – ومنهم بالطبع السيدة عائشة – أن تكون من العابدات القانتات المتصوفات «الواصلات».

إن آل بيت النبى، هم شجرة النبوة الكريمة. ومعدن العلم، وينابيع الحكمة. إن نطقوا صدقوا. وإن صمتوا لم يسبقوا.

فهم الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – جدهم – فيهم: «والله لا يدخل امرئً إيمان، حتى يحبكم لله ولقرابتى».

وقال أيضًا عليه الصلاة والسلام: «إنى أوشك أن أدعى فأجيب وإنى تارك فيكم الثقلين. كتاب الله حبل ممدود من الأرض إلى السماء، وعترتى أهل بيتى. وإن الله اللطيف الخبير أخبرنى أنهما لن يفترقا، حتى يردا على الحوض يوم القيامة، فانظروا بما تخلفونى فيهما».

وهم أيضًا من قال فيهم الشعراء كثيرًا. من غير شعراء آل البيت. ومثال على ذلك أبو نواس الشهير بموالاته للعباسيين ومعاداته لآل البيت. حين- يقول فى على الرضا بن موسى الكاظم أخى السيدة عائشة.. كما جاء فى كتاب «مواليد أهل البيت» لابن الخشاب:

مطهرون نقيات ثيابهم ... تجرى الصلاة عليهم كلما ذكروا
من لم يكن علويًّا حين تنسبه ... فما له من قديم الدهر مفتخر
أولئك القوم أهل البيت عندهم ... علم الكتاب، وما جاءت به السور

* * *

ولدت السيدة عائشة وعاشت الفترة الأولى من حياتها فى بيت أبيها فى المدينة المنورة. وفى فترة زالت فيها قسوة بنى أمية على آل البيت التى وصلت قمتها فى كربلاء باستشهاد الإمام الحسين بن على.

وكان أبوها الإمام جعفر الصادق من أعمدة آل البيت فى عصره. وقد عاشت السيدة عائشة فى رحابه تنهل من نبعه- نبع النبوة- الفياض، فى الدار التى كان يسكنها، وهى الدار التى كان يسقى فيها الماء وهى دار من المعروف أن والدها تصدق بها على فقراء المسلمين. وكانت من قبل دارًا لحارثة بن النعمان الأنصارى الخزرجى، من فضلاء صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولكى نعطى تصورا للبيئة التى نشأت فيها السيدة عائشة. نقول إن والدها رضى الله عنه، كان ذا علم وإيمان متين. وقد أوثر عنه أنه كان يقول: «أراد الله بنا وأراد منا. أراد بنا أقداره وقضاءه وأراد منا عبادته وتوحيده. فما بالنا شغلنا بما أراد بنا، عما أراد منا...».

وأوثر عنه أيضًا أنه كان يقول «من استبطأ رزقه فليكثر من الاستغفار».

ولا شك أن السيدة عائشة نهلت من نبع أبيها الإيمانى. كما نهل منه إخوتها، خاصة إسحق المؤتمن، زوج السيدة نفيسة، وإسحق المؤتمن- كما جاء فى كتاب إرشاد المفيد- «كان من الفضل والورع ما لا يختلف فيه اثنان». وكان إسحق من أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم. كما كان محدثًا جليلا. ووصفه المقريزى فى خططه أنه «كان من أهل الصلاح والخير والفضل والدين، وكان يروى عنه الحديث».

والواقع أن أسرة النبى الكريم، قد قيل فيهم ما قيل مما تحويه كتب وأسفار آل البيت. لكننا هنا- بلا تعليق- نورد ما قاله جد السيدة عائشة، الإمام محمد الباقر، ابن الإمام على زين العابدين.

«أيها الناس، إن أهل بيت نبيكم شرفهم الله بكرامته، واستحفظهم لسره، واستودعهم علمه. فهم عماد لأمته، شهداء علمه يراهم الله قبل خلقه، وأظلهم تحت عرشه، واصطفاهم فجعلهم علمًا على عباده، ودليلهم على صراطه، فهم الأئمة المهديون، والقادة البررة، عصمة لمن لجأ إليهم، ونجاة لمن اعتمد عليهم. يغتبط من والاهم، ويهلك من عاداهم، ويفوز من تمسك بهم، فيهم نزلت الرسالة، وعليهم هبطت الملائكة، وإليهم نفث الروح الأمين، وأتاهم ما لم يُؤتَ أحد من العالمين. فهم الفروع الطيبة، والشجرة المباركة، ومعدن العلم، وموضوع الرسالة ومختلف الملائكة، وهم أهل بيت الرحمة والبركة، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا».

وهذا الذى يقوله الإمام محمد الباقر - باقر العلم - ينطبق على السيدة عائشة وبقية آل البيت الكرام. وهم كما يقول الشاعر:

هم القوم من أصفاهم الود مخلصًا ... تمسك فى أخراه بالسبب الأقوى
موالاتهم فرض، وحبهم هدى ... وطاعتهم ود، وودهم تقوى

لكن الحديث هنا سيظل قاصرًا، حول السيدة عائشة.. إذ يحتاج إلى جهود الباحثين المؤمنين من محبى آل البيت، وذوى العلم.

* * *

ماذا عن مشهد السيدة عائشة درة آل البيت وكنز من كنوزها؟

الثابت أنها - رضى الله عنها - منذ لاقت وجه ربها فى عام ١٤٥ الهجرى، دفنت فى قبرها، بعد ما جاءت من المدينة المنورة الى أرض الكنانة، وعاشت فيها بضع سنوات.

وقد ظل هذا القبر - أو هذا المشهد - كما يتفق المؤرخون، بسيطًا، يتكون من حجرة واحدة مربعة يعلوها قبة - بعد ذلك - وترتكز على حطتين - صفين - من المقرنصات. كما أكدت بذلك العالمة الأثرية د. سعاد ماهر فى كتاب «مساجد مصر وأولياء الله الصالحون». وقد استمر المشهد على هذه الصورة. حتى القرن السادس الهجرى.

وحين جاء الفاطميون ـ منذ أكثر من ألف عام ـ كان المفروض أن تمتلئ الكتب باهتمامهم بمشاهد آل البيت ـ ومنها مشهد السيدة عائشة ـ فهم أوقفوا الكثير وصرفوا الأموال، عليها. حتى جاء الأيوبيون، فكان اهتمامهم بالمشهد واضحًا، ضمن اهتمامهم بمشاهد آل بيت رسول الله ﷺ فى مصر.

فالأيوبيون انشأوا بجوار قبة السيدة عائشة، مدرسة. وذلك عندما أحاط صلاح الدين الأيوبى، عواصم مصر الإسلامية الأربع ـ الفسطاط، العسكر، القطائع، القاهرة ـ بسور واحد طوله ١٥ كيلو مترًا تقريبًا، حتى يحصن البلاد ضد هجمات الصليبيين.

وكان أن فصل هذا السور قبة السيدة عائشة عن باقى القرافة وهنا رأى صلاح الدين أن يقيم بجانب القبة مدرسة. كما أنه فتح فى السور بابًا سماه «باب عائشة» وهو المعروف الآن بباب القرافة.

ثم تعود المصادر لتصمت بعد عصر الأيوبيين مرة أخرى. لكنها تفصح بأن

المسجد القديم للشريفة عائشة، تهدم وأعاد بناءه الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٧٦ هـ. «١٧٦٢ م» وكان المحراب لا يتوسط جدار القبلة، وإنما يقع فى الركن الجنوبى، الشرقى للجدار، وهى ظاهرة كانت نادرة فى معمار المشاهد والقباب فى مصر. إلا أنها وجدت فى مشاهد الموصل التى بنيت فى أيام دولة السلاجقة. كما كان لهذا المسجد وجهة غربية اشتملت على بابين بينهما تسمق المنارة. وبقى منه دورته الأولى. وقد كتب على عتبة الباب البحرى ما نصه:

مسجد أسه التقى فتراه   كبدور تهدى بها الأنوار
وعباد الرحمن قد أرخوه   تتلألأ بحبه الأنوار

وهذا الباب يؤدى إلى داخل المسجد. وقد جرى تعميره فى عهد عثمان أغا مستحفظان سنة ١٣١٤ هـ «١٨٩٦ م».

أما الباب الثانى، فكانت توجد على يساره المنارة وقد كتب عليه:

بمقام عائشة المقاصد أرخت   سل بنت جعفر الوجيه الصادق

على أن هذا الباب، كان يؤدى إلى طرقة، على يسارها باب له عقد تحيط به كرانيش متعرجة، وهو يؤدى إلى صحن المسجد حيث باب القبة فى مواجهته، مكتوب عليه:

لعائشة نور مضىء وبهجة   وقبتها فيها الدعاء مجاب

والقبة القديمة كانت من القباب البسيطة من الداخل والخارج، فرشت أرضيتها بالرخام الملون، وتتوسطها مقصورة من الخشب حول القبر الشريف. ومن المرجح كما يقول الأثرى حسن عبد الوهاب وجود حجرة تحت أرضية القبة، تضم تابوتًا ثريًا، كما هو المألوف فى كثير من المشاهد.

ومسجد ومشهد السيدة عائشة القديم لم يبق منه شىء بعدما تم بناؤه من جديد. لكن صورته ما زالت موجودة، وصفها أحمد زكى باشا شيخ العروبة، حيث قال فى عام ١٩٣١:

«تشرفت بزيارة الضريح، وتلوت أم الكتاب أمام بنت جعفر الصادق، رضى الله عنها، فأما الرخامة التذكارية التى رآها السخاوى ونقل لنا ما هو مكتوب عليها فقد ضاعت، أو هى غير موجودة. لعلها طمرت فى الجدران، عندما تولى المرحوم عبد الرحمن كتخذا تجديد الجامع وتوسيع، هذا إذا لم تكن مثل غيرها قد انتقلت إلى أحد المتاحف.

وأما الأحجار الأثرية الثلاثة التى ذكرها لنا على باشا مبارك، فهى باقية فى مواضعها. ولكنى رأيت ثلاثة أحجار جديدة موضوعة داخل البناء فوق الشباك الفاصل بين الضريح وبين الرقعة المخصصة للسجود، كالاتى:

١ - الحجر الأسفل عليه «ولا غالب إلا الله» بخط أندلسى بديع.

٢ - والحجر الأوسط عليه «يا الله» بتركيب مستدير بديع.

٣ - أما الحجر الفوقانى فعليه المشعر الخشبى وتاريخ ١٣١٤ هـ.

ويقول أحمد زكى باشا عن حالة المسجد:

«أما الروحانية فباقية، وأما النورانية فلا تزال مشرقة على البصائر والأبصار. وأما القبلة فعبارة عن فجوة صغيرة. وأما المنبر فخشبه عادى بسيط، وبابه لا يزال كما وصفه على مبارك من الخشب الرخيص المطعم بالعاج، والمقصورة من النحاس الأصفر، والتابوت مكسو بالإستبرق المخيش بالقصب الأصفر والأبيض.

* * *

فى عدة زيارات لمسجد السيدة عائشة وقبتها. شاهدت بناء المسجد والقبة عاليا سامقًا، لكنه ليس البناء الأثرى القديم بالطبع الذى وصفه أحمد زكى باشا، وقبله على باشا مبارك.

فمنذ سنوات، كان المسجد والمشهد آيلين للسقوط، بعد تعدد حوادث السيارات واللوارى الثقيلة القادمة من مصر الجديدة عن طريق صلاح سالم

والتى اصطدمت بالمسجد وهدمت مبانيه. فالمسجد يقع فى منطقة خطرة منخفضة، يقابل الطريق الهابط من جبل المقطم إلى موقع المسجد، أو ميدان السيدة عائشة.

وقد استقر الرأى فى عام ١٩٧٣ - ومن أجل مقام الشريفة عائشة- على بناء مسجد يليق بحفيدة الرسول الكريم ﷺ، وبالفعل فقد هدم المسجد القديم كله. وكذلك القبة لأنه لم يكن ممكنًا استخدام الحجارة القديمة الأثرية، التى تهرأت بفعل الزمن والحوادث. ومن هنا أيضًا كان التفكير فى نقل حجارة ورخام- وحتى المقصورة الخشبية- لمسجد أولاد عنان الأثرى، وهذا كله جرى تلبيسه حول مشهد السيدة عائشة بالإضافة إلى استخدام شبابيك وفتحات ومئذنة مسجد أولاد عنان، وهو مملوكى الطراز ويعتبر تحفة من تحف طراز العمارة حقًّا فى العصر المتأخر، فالمئذنة مملوءة بالكتابات، وكذلك القبة، وعتبات الأبواب والشبابيك، والأعمدة من الرخام النادر، بالاضافة إلى المنبر الأثرى.

ولا شك أن هذا الحل المعمارى الجديد لمسجد السيدة عائشة قد جاء بمميزات، منها أن المسجد قد زادت مساحته إلى ١٥٠٠ متر مربع، ليتسع لحوالى ثلاثة آلاف من المصلين والزائرين، كما أن المهندسين استفادوا من ارتفاع أرضية المسجد عن المنطقة المحيطة به فجعلوا الميضأة تحت أرضية المسجد، وحتى لا تتكرر لحوادث يجرى التفكير فى بناء سور من الأسمنت المسلح ليقى المسجد من غائلة اللوارى.

لكن خطأ أثريا وقع فيه المهندسون، لا بد أن ننبه إليه هنا.

فالمشهد الجديد، أو تصميم القبة الجديد. أغفل شيئًا هامًّا، كما قالت لى دكتورة سعاد ماهر. فحين هدم المشهد القديم هدم ركن هام فيه. وهو ما يميز مشاهد آل البيت فى مصر وفى غير مصر. وهذا الركن الذى كان يميز المشهد. كان مقصودًا به إضافة الجلال والهيبة على أن المدفونة به من آل البيت. لكن المهندسين لم يلتفتوا إليه.

السّيدة رقيّــة
و"بقيع" مصر الصّغير

«بقيع مصر» الصغير. هذا هو الموقف فى شارع الخليفة الذى يضم جبانات كثيرة فى رحاب قلعة صلاح الدين الأيوبى. وحوله أضرحة للسيدات الشريفات من درر آل بيت رسول الله ﷺ، ومنهن السيدة نفيسة والسيدة سكينة والسيدة رقية، والكثير من أسماء آل البيت مثل سيدى محمد الأنور عم السيدة نفيسة، والسيدة نفيسة بنت زيد أخت محمد الأنور وعمة السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور. وأسماء كثيرة شريفة، تضمها أرض هذه المنطقة، التى كانت مجموعة من «القرافات» أو الجبانات.

لكن من أين جاءت تسمية «بقيع مصر الصغير»، التى لفتتنى، وجعلتنى أتجول فى منطقة حى الخليفة، وقد كتبت عن السيدتين نفيسة وسكينة فى شارع الخليفة، وكذلك عن السيدة عائشة، التى يسمق مشهدها ومسجدها الجديد على قمة ربوة من ناحية سور القاهرة؟!

* * *

لقد جاءتنى هذه التسمية وأنا أتردد على مشهد السيدة رقية الذى يختلف عما سبقه من مشاهد أو أضرحة آل البيت. فمشهد السيدة رقية - فى حقيقة أمره - يقبع داخل «ربع» كبير، حوله بيوت وغرف كثيرة، وفيه أشجار. وهذا الربع يسمى «تكية»، يحددها ويفصلها عن قبة السيدة رقية وما حولها من أضرحة أو مشاهد.

ومع أن السيدة رقية - وطبقًا لمنطق التسلسل التاريخى إذا صح أنها إحدى بنات الإمام على بن أبى طالب - كان المفروض أن تكون ثالثة حبات العقد فى الكتابة عن درر آل البيت وكنوزه، باعتبار أنها أخت الحسن والحسين والسيدة زينب. فإنى أعترف أننى تمهلت طويلا فى الكتابة عنها. حتى أجمع ما حولها من معلومات متناثرة فى مصادر كثيرة.

لكن الذى دفعنى إلى الكتابة عن السيدة رقية، و«بقيع مصر الصغير» خطاب من صفحة واحدة، بتوقيع خطيب زاوية أومشهد السيدة رقية أو مسجدها تجاوزًا. بعدما طلب منى أن أذهب إلى هناك. وطالبنى بأن ألقى الضوء على سيدة جليلة من آل البيت «مقامها يزار فى شارع الخليفة، ومدفونة فى هذا المكان وبصحبتها جمع من الأخيار»، ويقول لى هذا الشيخ العالم، خطيب الزاوية، عن السيدة رقية وما يقبع حولها من مشاهد وأضرحة:

«أرجو أن تنقب عن تاريخهم وتظهرهم، للاهتمام بهم من ناحية وزارة الأوقاف، وبناء مسجد لائق بدلا من الزاوية الصغيرة، ولأجل أن يوفقك الله لتحسم المشكلة بين الآثار وبين راغبى التجديد، الذين هم على استعداد للتطوع لتعمير الأمكنة الشريفة، لكن الآثار لا ترضى بحجة أنها أثر.

كانت هذه السطور، هى التى عجلت بعودتى إلى المنطقة. إلى شارع الخليفة مرة أخرى.

ذهبت إلى مشهد السيدة رقية، لأقابل خطيب زاويتها ممنيًا نفسى بوجبة دسمة من المعلومات التى سأعثر عليها عنده. لكننى وجدته يطلب منى أن أبدأ وأبحث، مثلما فعلت مع من كتبت عنهم من درر وكنوز آل البيت.

وكانت رحلة التردد المتصلة على المنطقة. منطقة حى الخليفة وعلى كل مكان فيه كتاب أو مخطوط يحمل سطورًا حول السيدة رقية. وحول ما يقبع فى رحابها من مشاهد، داخل «بقيع مصر الصغير».

ذهبت إلى مشهد السيدة رقية، داخل هذا الربع الكبير، الذى يفصل بينه وبين

شارع الخليفة، بل بينه وبين جامع شجرة الدر المقابل باب من الحجارة محفور على أعلاه بيت من الشعر يقول:

بقعة شرفت بآل النبى وببنت الرضا على رقية

سألت وحاولت، وقرأت ما على الجدران، وأيقنت أنه ينتظرنى مشوار طويل من البحث والتقصى، وجمع المعلومات، وتنقيتها وتصنيفها وتنقيحها، علىّ ان أجتهد لفتح فرجة صغيرة فى تاريخ آل البيت، لعل البعض من الباحثين يكمل المشوار.

لكن ماذا وجدت، بعد القراءات والتساؤلات حول السيدة رقية؟

بدأت بكتاب على باشا مبارك «الخطط الجديدة». وقلبت فى أجزائه كثيراً، ليقول لى هذا الكتاب المهتم بالخطط. أى الأماكن والشوارع والحارات والأزقة:

«التكية المعروفة بتكية السيدة رقية، هى غاية فى الخفة والنورانية، وبداخلها ضريح السيدة رقية. يعلوه قبة لطيفة، وبقربه عدة أضرحة. ويوجد قبلة مصنوعة من خشب بنقوش غريبة فى غاية الإتقان وحنفيات للوضوء، وجنينة صغيرة ويعمل للسيدة رقية مقرأة وحضرة كل أسبوع ومولد كل عام».

* الشيخ الشبلنجى فى كتابه «نور الأبصار فى تاريخ آل بيت النبى المختار»، يقول حول أم السيدة رقية:

«إن أم السيدة رقية، هى أم حبيب الصهباء التغلبية، أم ولد، كانت من سبى الردة الذى أغار عليه سيدنا خالد بن الوليد بعين التمر، فاشتراها سيدنا على رضى الله عنه من سيدنا خالد، فعمر الأكبر شقيق السيدة رقية».

* ويكمل ابن الصباغ فى كتاب «الفصول المهمة فى فضائل الأئمة» ما قاله الشبلنجى فيقول:

«كان عمر ورقية توأمين.وعمر هذا عمر خمسًا وثمانين سنة وحاز نصف ميراث على رضى الله عنه. وذلك أن إخوته أشقاءه، وهم عبد الله، وجعفر، وعثمان، قتلوا مع الحسين بالطف، فورثهم».

* ويذكر الحافظ السلفى – كما أورد ذلك النص على مبارك – وفاة سيدنا على بن أبى طالب، وعد له من الأولاد ثلاثين ولدًا، وعد رقية منهم، وقال: «رقية هذه من الصهباء، وقيل لنا رقية الصغرى من أسماء بنت عميس الخثعمية».

* ويؤيد ذلك ما جاء فى كتاب «الرياض النضرة فى مناقب العشرة»، الذى ذكر أن السيدة رقية من بنات سيدنا على.

* وفى الباب العاشر من «منن» الشعرانى، يقول حول وجود السيدة رقية بمصر:

«... وأخبرنى سيد على الخواص، أن رقية بنت الإمام على كرَّم الله وجهه، فى المشهد القريب من جامع دار الخليفة، ومعها جماعة من أهل البيت، وهو معروف بجامع شجرة الدر، وهذا الجامع على يسار الطالب للسيدة نفيسة، والمكان الذى فيه السيدة رقية عن يمينه. وقيل إن للسيدة رقية ضريحًا بدمشق الشام».

* أما ابن عين الفضلاء، صاحب كتاب «مصباح الدياجى» فيقول:

«قال عبيد الله بن سعيد: بعث لى الحافظ عبد المجيد فى الليل، فجئت مع الذى دعانى له، فقلت ما تريد؟ فقال رأيت منامًا. فقلت: ما هو؟ قال: رأيت امرأة متلففة، فقلت من أنت، قالت بنت على رقية. فجاءوا بنا إلى هذا الموضع، فلم نجد به قبرًا. فأمر ببناء هذا المشهد، فبنى. وهو مكان معروف بالدعاء».

وربما يقصد صاحب «مصباح الدياجى» هنا أن أول من بنى مشهدًا على جسد السيدة رقية، هو الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله عام «٥٢٤ – ٥٤٤ هـ».

* ويؤيد ذلك النص فى كتاب ابن محمود السخاوى «تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والبقاع المباركات»، حيث يقول:

«وبنى عليها مشهد تميم المكنى بأبى تراب الحافظى. أقول، كان فى آخر مدة الفواطم. والحافظ المنسوب إليه تميم المذكور، كان وفاته بعد الأربعين والخمسمائة وقد بنى هذا المحل سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف، الأمير عبد الرحمن كتخدا، وهو مشهد مقصود بالزيارة، له مولد كل سنة».

* ويقول الشيخ الأجهورى فى «مشارق الأنور» حول مجيء السيدة رقية إلى مصر:

«إن السيدة رقية لما جاءت من المدينة، اعترضها شخص من آل يزيد ابن معاوية، وأراد قتلها، فوقفت يده فى الهواء وسقط ميتاً».

ولكن هذا يخالف ما ذكره صاحب كتاب «العدل الشاهد فى التحقيق المشاهد»، نقلا عن كتاب الشيخ محمد الصبان «إسعاف الراغبين فى سيرة المصطفى وأهل بيته الطاهرين» حيث يقول: «وأما السيدة رقية رضى الله عنها فإنها ماتت قبل البلوغ، ومحلها بعد السيدة سكينة بشيء يسير».

واضح فى المصادر إذن الاختلاف على السيدة رقية.

مصادر تقول: إن أمها هى السيدة فاطمة الزهراء، وأخرى ترى أنها ليست أمها، وإنما السيدة رقية أمها أم حبيب الصهباء التغلبية، من سبى الردة. والبعض الثالث يرى أن هناك رقية صغرى، ورقية كبرى، وأن رقية التى فى مصر هى بنت أسماء بنت عميس الخثعمية.

وهناك من المصادر من يقول: إن السيدة رقية ماتت دون البلوغ وهناك من يرى رأيًا آخر.

وبعض المصادر تقول إن للسيدة رقية ضريحًا بدمشق الشام. «وإن جدران قبرها كانت قد تعبت، فأرادوا إخراجها منه لتجديده فلم يتجاسر أحد أن ينزله من الهيبة، فحضر شخص من آل البيت، يدعى السيد ابن مرتضى فنزل فى قبرها ووضع عليها ثوبًا لفها فيه وأخرجها، فإذا هى بنت صغيرة دون البلوغ».

وجمهور المؤرخين وأصحاب السير يجمعون على أن للإمام على رقية واحدة، من غير السيدة فاطمة الزهراء، ولكن يخالفهم فى ذلك الليث بن سعد، الذى قال «إن السيدة رقية من السيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم»

* * *

وكما هو الاختلاف على من هى «رقية» المدفونة فى مصر، فهناك خلاف حول أمها. وخلاف حول موتها.

البعض يقول إنها جاءت إلى مصر مع السيدة زينب بنت على، أختها بعد معركة كربلاء. والبعض لا يرى هذا الرأى.

وهناك رأى له بعض المنطق، يقول: إن السيدة رقية ليست بنت الإمام على بن أبى طالب، وليست السيدة فاطمة الزهراء أمها بمعنى أنها ليست أخت الحسن والحسين. سواء من أمها السيدة فاطمة أو أنها أخت غير شقيقة، هم يقولون إن السيدة رقية المدفونة فى مشهدها فى شارع الخليفة هى بنت الإمام على الرضا بن الأمام موسى الكاظم بن الإمام محمد الباقر بن الإمام على زين العابدين بن الإمام الحسين بن على. يذكر ذلك فى أحد الأبحاث للشيخ محمد زكى إبراهيم، وهو من العلماء الأفاضل ورئيس جماعة العشيرة المحمدية.

وتأسيسًا على هذا الرأى فإن السيدة عائشة بنت جعفر الصادق الراقدة فى مشهدها القريب من السيدة رقية تعتبر عمتها. لأن السيدة عائشة أخت الإمام موسى الكاظم المولود فى عام ١٢٨ هـ. كما أن السيدة نفيسة بتت الحسن الأنور تعتبر زوجة عم السيدة رقية. وهو إسحق المؤتمن.

وتأسيسًا على التأسيس – كما يقول المناطقة – فإنه ربما يكون هناك خلط جرى بين تاريخ وحياة السيدة عائشة وبين تاريخ وحياة السيدة رقية. أقول ربما يكون خلطًا بين الاثنين، فهناك تشابه غريب فى وفاتها. فالمؤرخون يرون أن السيدة عائشة ماتت دون البلوغ، تمامًا مثلما يقولون عن السيدة رقية. وهذا ما نتركه للعلماء والباحثين فى تاريخ آل البيت فى مصر وفى غير مصر ليقولوا رأيهم، وإن كنا نحن نميل إلى الرأى القائل بأن السيدة رقية هى بنت الإمام على الرضا بن موسى الكاظم وهى ليست بالقطع بنت الإمام على بن أبى طالب والسيدة فاطمة الزهراء.

على أن ذلك ينقلنا إلى قضية أخرى. بمعنى أن السيدة رقية إذا ثبت أنها بنت

الإمام على فهى من مواليد الربع الأول من القرن الأول الهجرى، وإذا ثبت أنها بنت الإمام على الرضا فتكون من مواليد النصف الأول من القرن الثانى الهجرى، وبالطبع شتان ما بين التاريخين من سنوات وأحداث بالنسبة لآل البيت.

لكن - وبلا شك - فسواء كانت السيدة رقية تنتمى للقرن الأول الهجرى، أو القرن الثانى الهجرى، فهى بالتأكيد أيضًا تنتمى لآل البيت وهى درة من درره النفيسة. وعلى أية حال فالثابت أن السيدة رقية تنتمى لآل البيت، وأنها تنتمى إلى السيدة فاطمة الزهراء. وأن الزهراء رضى الله عنها جدتها. وليست أمها.

ويقوى من رأينا ويدعمه ما قالته الدكتورة سعاد ماهر، عميدة كلية الآثار، وأستاذة العمارة الإسلامية فيها. وهى مهتمة بتاريخ آل البيت فى مصر، فمشهد السيدة رقية يعتبر من المشاهد الفاطمية البارزة، والباقية فى مصر حتى الآن بجانب مشهدين فاطميين آخرين، هما مشهد السبع بنات فى مصر القديمة «الفسطاط» والذى شيد عام ٤٠٠ هـ، والمشاهد الفاطمية فى جبانة أسوان، والتى يرجع تاريخ معظمها إلى القرن الخامس الهجرى.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن مشهد السيدة رقية يشبه أحلى وأرق الآثار الفاطمية فى حى النحاسين بالأزهر، وأقصد الجامع الأقمر خاصة واجهته الغربية. والجامع الأقمر بنى فى عصر الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله «عام ٥١٩ هـ» إنه يشبه تمامًا فى واجهته الغربية مشهد السيدة رقية، وهذه الواجهة الغربية تعتبر من أجمل واجهات المساجد فى مصر، للنقوش والكتابات المزهرة عليها، وكلها منحوتة فى الحجر، بالإضافة إلى تلك العقود والحنيات المجوفة والمقرنصات التى تتوسطها دوائر كتب عليها «محمد» و«على» كما توجد دائرة كبيرة فوق الباب كتب عليها «بسم الله الرحمن الرحيم إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا».

والذى نريد أن نقوله: إن أغلب ما فى واجهة الأقمر، يوجد مثله فى مشهد السيدة رقية وفى محاريبه الثلاثة، حتى أن الناظر إليها، والمقارن بينهما يظن أن الجامع الأقمر، ومشهد السيدة رقية عملا فى وقت واحد. لكن الثابت أن الذى بنى

مشهد السيدة رقية هو الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله ثامن الخلفاء الفاطميين بينما «الأقمر» انشئ فى عهد الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله.

ويثبت أن السيدة رقية من آل البيت وأن جدتها السيدة فاطمة الزهراء، ما قيل من أن الفاطميين ـ بالذات ـ كانوا من الحرص بحيث لا يبنون مشهدًا على قبر، إلا بعد تأكدهم من أن صاحبه أو صاحبته من آل البيت، ومن سلالة فاطمة الزهراء وعلى بن أبى طالب بالذات. ونحن لو عرفنا أن فى مصر يزيد عدد المشهور من الأضرحة والمشاهد على الألف، فإن اهتمام الفاطميين ببعض هذا الألف ومنه السيدة رقية، دليل دامغ على أنها فى مصر. وإذا كان بناء القبة فى مصر قد تطور ـ من خلال العمارة الإسلامية ـ وصار لها وظيفة هامة، هى تغطية المساحات المربعة وفضلا عن الإشارة إلى أهمية هذا الجزء فإن قبة السيدة رقية قد بنيت لتقول هنا ترقد السيدة الشريفة رقية رضى الله عنها.

* * *

هذا بالنسبة للسيدة رقية، الراقدة فى مشهدها ـ أو ضريحها ـ فى شارع الخليفة، وليس هناك اختلاف بين المشهد والضريح. وإنما الشيعة يطلقون على القبة اسم المشهد، وأهل السنة يطلقون عليه الضريح بمعنى أن المشهد والضريح اسمان لمسمى واحد.

ولكن ماذا عن الأضرحة أو المشاهد، الموجودة فى رحاب السيدة رقية. أو فى تكية السيدة رقية، كما يسميها على باشا مبارك، فى إطار «بقيع مصر الصغير»؟!

أول هذه المشاهد إلى يمين الداخل لمشهد السيدة رقية، هو قبر السيد محمد الشهير بمرتضى وقبر زوجته السيدة زبيدة، يقابل ذلك على يسار الداخل قبر يحمل اسم السيدة «أسماء» وعلى مبعدة عدة أمتار قبتان أثريتان من نفس طراز قبة السيدة رقية لضريحين، أحدهما للسيدة «عاتكة» والآخر للسيد «على الجعفرى». ولنتحدث عن هذه الأسماء التى ذكرناها.

* ونبدأ بالسيدة «أسماء».. فالذين يرجحون أن السيدة رقية هى بنت الإمام

على بن أبى طالب، يرون أن «أسماء» بنت عميس الخثعمية، زوجة الإمام على. وبذلك يقولون: إن القبر هو قبر والدة السيدة رقية «أسماء». أما هؤلاء الذين يرون أن السيدة رقية من بنات على الرضا، فيقولون عن «أسماء». إنها كانت خادمة السيدة رقية ودفنت بجوارها.

ونحن نميل إلى الرأى الذى يقول: إن قبر السيدة «أسماء» هو قبر لخادمة السيدة رقية.

* ونثنى بقبر السيدة زبيدة، والسيد محمد الشهير بمرتضى الحسينى الزبيدى. والمعلومات عنهما وفيرة. وجدنا بعضها فى الجبرتى، والآخر فى على مبارك.

والسيد محمد الشهير بمرتضى الحسينى الزبيدى، كما يصفه الجبرتى هو: «الفقيه المحدث اللغوى، النحوى، الأصولى، الناظم الناثر، أبو الفيض السيد محمد ابن محمد بن محمد بن عبد الرازق، الشهير بمرتضى الحسينى الحنفى. جاء إلى مصر فى تاسع صفر سنة سبع وستين ومائة وألف درس فى مصر حتى راج أمره وترونق حاله، واشتهر ذكره عند الخاص والعام».

والواقع أن الشيخ عبد الرحمن الجبرتى قد أفاض فى سيرة الشيخ مرتضى الحسينى، وأفرد له قلوع السطور والصفحات، كما أن هذه الشخصية فرضت نفسها على الكتّاب والأمراء وذوى السلطان فى عصرها، وهو القرن الثانى عشر الهجرى. وكما كان هذا الشيخ مشهورًا فى مصر، كان أيضًا من المشهورين فى المغرب حتى يقول الجبرتى: «وله عند المغاربة شهرة عظيمة ومنزلة كبيرة».

هذا بالرغم من أن أصله من زبيدة اليمن.

أما عن زوجته السيدة زبيدة فقد ذكر أنها ماتت فى سنة ست وتسعين ومائة وألف، فحزن عليه حزنًا كثيرًا، ودفنها عند المشهد المعروف بمشهد السيدة رقية، وعمل على قبرها مقامًا ومقصورة، وستورًا وفرشًا وقناديل ولازم قبرها أيامًا كثيرة وكان يجتمع عنده الناس والفقراء والمنشدون ويعمل لهم الأطعمة والثريد والقهوة والشربات.

ويقول على باشا مبارك: إن السيد محمد الشهير بمرتضى، اشترى مكانًا بجوار مقبرة زوجته، وعمره بيتًا صغيرًا، وفرشه، وأسكن فيه أمها ـ أى أم زوجته ـ وكان يبيت به أحيانًا. كما كان يقصده الشعراء بالمراثى، فيقبل منهم ذلك ويجيزهم عليه، ولحبه الشديد لزوجته رثاها بجملة قصائد ذكرها الجبرتى.

وقد مات السيد مرتضى بالطاعون، ودفن فى القبر الذى أعده لنفسه بجوار زوجته بمشهد السيدة رقية.

وقد عدد على باشا مبارك مؤلفات الشيخ مرتضى فذكر منها الكثير فبجانب «شرح القاموس» و «شرح الإحياء» له «كتاب الجواهر المنفية فى أصول أدلة مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه» وله أيضا كتاب «العقد الثمين فى طريق الإلباس والتلقين» و «حكمة الإشراق إلى كتاب الأفاق» و «إعلام الأعلام بمناسك حج بيت الله الحرام» و«رشف سلاف الرحيق فى نسب حضرة الصديق» و «القول المثبوت فى تحقيق لفظ التابوت» و«منح الفيوضات الوفية، فيما فى سورة الرحمن من أسرار الصفة الآلهية» و «ترويح القلوب بذكر ملوك بنى أيوب» وكثير من الكتب والمؤلفات ذكرها الشيخ الجبرتى ولا نستطيع حصرها فى هذه السطور.

* * *

وأخيرًا نأتى إلى المشهدين للسيدة عاتكة، ولسيدى على الجعفرى. وبالنسبة للسيدة «عاتكة» فالعامة يقولون إنها السيدة عاتكة عمة الرسول ﷺ. لكن الحقيقة إن القبر والقُبة هما للسيدة عاتكة بنت شرحبيل، زوجة محمد بن أبى بكر الصديق والى مصر من قبل على بن أبى طالب ومحمد بن أبى بكر كان من المتشيعين لعلى كرم الله وجهه، وله موقف ضد الأمويين.

وقد ولد محمد بن أبى بكر فى سنة حجة الوداع. ولخطورة محمد بن أبى بكر على الأمويين ووقوفه ضدهم بعد التحكيم وقتل الإمام على جعلهم يطلبون قتله فى مصر، ويمثلون بجثته. خاصة وأن مصر كانت تلعب دورًا خطيرًا فى سياسة دولة الإسلام منذ أن دخلت الإسلام. وثابت أن السيدة عاتكة كانت مع زوجها محمد بن أبى بكر فى مصر وأنها دفنت فيها. لكن تاريخها لا يزال يحتاج إلى إماطة اللثام عنه

وعن زوجها محمد بن أبي بكر الصديق.

أما الضريح الثانى لسيدى على الجعفرى. فليس لصاحب الضريح ترجمة فيما قرأته من المصادر، وإن كانت الصفة التى يحملها اسمه تدل على أنه ينتسب للإمام جعفر الصادق، لكن وجود هذا الضريح قرب ضريح السيدة رقية، يدعم الرأى الذى يرى أن السيدة رقية هى بنت الإمام على الرضا. ويجوز أن يكون سيدى على الجعفرى واحدا من أسرتها، بل إنه شخصية مهمة من أبناء جعفر الصادق، تحتاج من المؤرخين والمحبين لآل البيت إلى وقفة.

حسن الأنور

ولد السيدة نفيسة .. وشيخ بني هاشم في عصره

هذا الذى حدث منذ سنوات. ما زال فى ذكراة الناس وكأنه حدث بالأمس فى منتصف احدى الليالى، وكان بعض عمال المعمار يجددون القبلة، فتح ملاحظ المسجد باب الغرفة التى تضم ضريحى سيدى حسن الأنور وأبيه سيدى زيد الأبلج. وفاجأ الملاحظ ضوء باهر كأنه نور الشمس يتجمع ويسلط على العمامة فوق غطاء ضريح سيدى حسن الأنور. وأجفل الملاحظ عبد الوهاب حسن وأغمض عينيه ثم أغلق الباب ثانية. وتمتم بآيات الله البينات.

ولاحظ العمال ما حدث فاعتقدوا أنه من الكهرباء. لكن أنوار المسجد أطفئت كلها، لتظل بقعة الضوء فى الضريح تخرج إشعاعاتها من تحت عقب الباب، وسط الظلام الشديد.

ويتوقف العمال، بعد أن تأكدوا وشاهدوا بأنفسهم الأنوار الربانية ويذهبون إلى مقاوليهم. وفجأة يأتى الصباح الجديد ويشترى المقاولون على حسابهم كميات من مواد البناء من أجل أن يتجدد المسجد كله، وتتضاعف مساحته، من أجل هذا القطب من آل بيت رسول الله ﷺ.

* * *

هذه الشخصية الكريمة من آل بيت النبى ﷺ لها فى نفوس المؤمنين بمصر الشىء الكثير. فهى قد أنجبت الدرة النفيسة من درر آل البيت على أرض الكنانة. وأقصد بها السيدة نفيسة التى أجمع المؤرخون- ولم يختلف منهم أحد- على أنها مدفونة فى

مسجدها فى حى الخليفة بالقاهرة. والشخصية الكريمة بالطبع هى سيدى حسن الأنور بن زيد الأبلج بن حسن السبط بن على بن أبى طالب.

وهذه الشخصية النبوية الكريمة، تعتبر من أهم شخصيات آل البيت فى القرن الثانى الهجرى، بل هى أهمها جميعًا.

إن سيدى حسن الأنور ـ رغم تلك الشذرات المتناثرة حوله من المخطوطات والكتب ـ من القلائل من آل البيت الذين لعبوا دورًا هامًا فى العصر العباسى الأول. فقد كان واليًا على المدينة المنورة. وهذه ـ كما أرى ـ تعتبر استثناء لكل من يتتبع تاريخ آل البيت بعد كربلاء وفى أيام الأمويين. بل هى استثناء كذلك فى عهد العباسيين، الذين سرعان ما تنكروا لآل بيت النبى، وفعلوا مع أبناء عمومتهم ما فعله الأمويون من قبل. بل وأشرس مما فعلوا.

وحتى سيدى حسن الأنور الذى تولى إمارة المدينة وعمره ٦٧ سنة من قبل الخليفة أبى جعفر المنصور، وظل فيها حوالى ست سنوات من عام ١٥٠ إلى ١٥٥ هجرية، لم ينج من اضطهاد العباسيين، رغم أنه ـ كما تذكر بعض الكتب ومنها ما جاء فى ديوان ابن هرمه ـ دون بقية آل البيت، أول من لبس السواد شعار العباسيين تأييدًا لهم وتدعيمًا لقيام دولتهم، والسواد بالطبع، جاء سنة عن رسول الله ﷺ، واعتبره العرب رمزًا للقوة كما يقول كتاب «سمط الدرر العوالى». فالرسول ﷺ لبس عمامة سوداء وهو يفتح مكة.

لقد عزل الحسن الأنور فجأة من ولاية المدينة المنورة وألقى فى غياهب السجن عام ١٥٦ هـ. إلى أن ولى المهدى العباسى فأخرجه منه لأن هذا الخليفة كان يعرف أقدار الأشراف من آل البيت، وكان فاضلا حتى أن ابن طباطبا فى كتابه «الفخرى فى الآداب السلطانية»، وصف المهدى قائلا: «كان شهمًا كريمًا، شديدًا على أهل الإلحاد والزندقة، ولا تأخذه فى إهلاكهم لومة لائم، وكان يجلس فى كل وقت للمظالم، كما كان ذكيًّا فصيحًا بعيد الهمة، شديد الرأى، ثاقب الفكر، قوى البيان فصيح اللسان، عالمًا بضروب السياسة وفنونها، مما أهله لأن يلى الأمور».

ونحن لو عرفنا أن المهدى تولى الخلافة ابتداء من عام ١٥٨ الهجرى، فإن سيدى حسن الأنور، قضى فى سجن المنصور سنتين أو يزيد.

وكانت العلاقة بين بنى هاشم ـ آل البيت ـ من علويين وعباسيين كما يقول د. حسن إبراهيم حسن فى كتابه «تاريخ الإسلام السياسى»؛ تقوم على الود والصفاء أيام كان البيتان متحدين على العدو المشترك وهو بنى أمية، ولكن ما إن قام البيت العباسى وسلس له قيادة الخلافة الإسلامية حتى تنكر العباسيون لآل البيت.

والواقع أن العلويين لم ينسوا حقهم فى الخلافة بعد كربلاء، بل كانت هى شغلهم الشاغل. فإنهم ما فتئوا فى كل أدوار حياتهم يطلبون حقهم بكل وسيلة فإذا ما وجدوا الفرصة سانحة لإعمال القوة وتجريد السيف اغتنموها، ولم يدعوها تمر وإذا آنسوا من أنفسهم ضعفًا استكانوا مكتفين بلقب الإمام وقرابتهم من الرسول ﷺ وآثروا المعيشة الهادئة والاشتغال بالتجارة، والانصراف إلى العبادة على الاشتغال بالسياسة والحرب، اللهم إلا فى أواخر الدولة الأموية حين قام والد سيدى حسن الأنور، وهو الإمام زيد بن على زين العابدين، وابنه يحيى، فى عهد هشام بن عبد الملك، الخليفة الأموى مطالبين بحقهم فى الخلافة. وهنا لاقوا عسفًا واضطهادًا، بل شدة وقتلا وصلبًا.

وعلى العموم، فقد عاش العلويون عيشة هادئة، إلى أن تجددت الدعوة لآل البيت على أيدى العباسيين. لكن لما ظفر العباسيون بالخلافة دونهم نابذوهم العداء. ونظروا إليهم كما ينظرون إلى الأمويين من قبل.

وهكذا صار اضطهاد آل البيت قضية العباسيين. خاصة فى عصر الهادى العباسى، الذى تولى الخلافة عام ١٦٩ هـ وكان الهادى كما وصفه المسعودى فى «مروج الذهب»: قاسى القلب، شرس الأخلاق، صعب المراس. ومما يؤخذ عليه تنكيله بالعلويين، كما أن عصر الهادى شاهد ثورة أخرى للعلويين قادها الحسين بن على بن حسن بن على بن أبى طالب. وكانت موقعة «فخ».. التى وصفت بأنها لم تكن مصيبة بعد كربلاء، أشد وأفجع من «فخ».

وكان من أوائل العلويين المطالبين بحقهم فى الخلافة أيام العباسيين: محمد ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، وأخوه إبراهيم. واستمرت سلسلة اضطهادات آل البيت أيام العباسيين.

لقد وصف الحسن الأنور كما يذكر الشيخ أحمد فهمى فى كتابه «كريمة الدارين، الشريفة الطاهرة السيدة نفيسة بنت الحسن رضى الله عنها». بأنه كان شيخ بنى هاشم فى زمنه من بنى الحسن حتى أن رئاسة البيت الهاشمىْ انتهت إليه فى عصره.

وكما فى «تهذيب التهذيب» عن ابن سعد فى «طبقاته»: «كان أبو محمد الحسن الأنور عابدًا ثقة، وكان إمامًا عظيمًا من كبار آل البيت، وكان مجاب الدعوة» بل إن الزبير بن بكار وصفه بأنه «كان فاضلاً شريفًا».

* * *

ولد الحسن الأنور لأبيه زيد بن الحسن السبط عام ٨٣ هـ. وكما فى «خطط» المقريزى: «أن أمه أم ولد». وأم الولد هى الجارية التى يعتقها سيدها ويتزوجها على عادة العرب. وقد نشأ الحسن فى بيت شريف، وفى رحاب أبيه زيد فى المدينة وتربى تربية إسلامية جليلة.

ويروى أنه كما كان سيدى حسن الأنور يأخذ ابنته نفيسة، ويدخل معها حجرة الرسول ﷺ، ويقول: يا رسول الله أنا راض عن ابنتى نفيسة. فقد كان الإمام زيد والد سيدى حسن الأنور يأخذ ابنه، حتى رأى النبى ﷺ فى المنام يقول له: «يازيد إننى راض عن ابنك حسن برضاك عنه والحق سبحانه وتعالى راض عنه برضاى عنه».

وقد توفى الإمام زيد ـ كما يقول الشبلنجى فى «نور الأبصار»ـ فى عام ١٢٠ هـ. أى أنه توفى والحسن الأنور فى السابعة والثلاثين من عمره. وترك والده عليه دينًا مقداره، كما يحدده الخطيب البغدادى فى كتابه «تاريخ بغداد»ـ أربعمائة دينار. فحلف الحسن ـ كما فى خطط المقريزى ـ ألا يظل رأسه تحت سقف إلا سقف

مسجد جده الرسول، أو رجل يكلمه فى حاجة حتى يقضى ما على أبيه من دين، وكان أن وفى الدين.

والواقع أن سيدى حسن الأنور، قد نشأ فى رحاب جده الرسول يقرأ القرآن الكريم ويكثر العبادة والقيام والصيام. مع زهد وورع وتقوى وصلاح. وقد صقلته هذه الحياة، وفتح الله عليه بالعلم والبيان والثراء، حتى صار إماما عالمًا وله تلاميذ ومريدون. وحمل الكثير من الألقاب التى ذكرت فى كثير من الكتب. جمعنا منها هذه الألقاب وهى؛ «شيخ الشيوخ، شيخ بنى هاشم، من كبار آل البيت، أبو محمد المدنى الأنور، التابعى، النابه، عالم، عابد، فاضل، شريف، علوى». وقد صار ثقة فى رواية الأحاديث. ومن تلاميذه الإمام مالك بن أنس، ومحمد بن إسحاق، ومحمد ابن أبى ذئب المحدث الجليل، وأبو أويس ووكيع. أما عن شيوخه - كما جاء فى «تهذيب التهذيب» لابن حجر - فمنهم أبوه الإمام زيد وابن عمه عبد الله بن الحسن وعكرمة، ومعاوية بن عبد الله بن جعفر، وغيرهم.

ولهذا صار سيدى حسن الأنور قطبًا وإمامًا، وكان - كما يقول كتاب «مصباح الدياجى» لمجد الدين بن الناسخ - «يقصده الناس من القرى والبلاد، وكان يعد بألف من الكرام».

والواقع أن حياة الإمام الحسن الأنور التى امتدت ٨٥ عامًا دارت فى عدة محاور أهمها:

أولا: المحور الدينى والعلمى.

ويكفيه تربيته للسيدة ابنته. وكذلك ابنه إسماعيل العالم العابد الناسك. وكان سيدى حسن الأنور متشددًا وحازمًا فى المسائل الدينية. والأخذ على أيدى الناس بآداب الإسلام. ومن يقرأ كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة يجد فيه الكثير.

ثانيًا: المحور السياسى. وقد استطاع الحسن الأنور أن يعيش نافذ الرأى متقلدًا لمنصب الولاية فى دولة تضطهد العلويين وتتوجس منهم.

ثالثًا: المحور الاقتصادى. فهو رغم علمه وتقواه، اشتغل بالتجارة، ليصبح ذا ثروة كبيرة، أغنى بها الحياة وأمسك نفسه عن أن يرد طالب حاجة.

ونبدأ أولا بالحياة الدينية والعلمية.

من الأحاديث المنسوبة إلى سيدى حسن الأنور فى «ابن حيان» عن رسول الله ﷺ أنه احتجم وهو صائم ومعنى الاحتجام، أى استخراج الدم من الجبهة. وهذا دليل إجازة الحجامة فى الصيام. وهذا الحديث موجود فى كتاب الذهبى «ميزان الاعتدال».

وفى أمالى المرتضى عن «الفرائد ودرر القلائد» نسب للإمام حسن الأنور، أنه رأى رجلا محرمًا فى مكة المكرمة، وعلى صلعته «الغالية»- وهى نوع من الطيب كالعجين- ولم يعترض الإمام الحسن الأنور على ذلك. وهذا يعنى أن الطيب قبل الإحرام جائز شرعًا.

وفى كتاب الكامل للمبرد، أن سيدى حسن الأنور ذهب للحج، فلفت نظره شخص يزاحم الحجيج، فأشار إليه بيده- فعل الغازلة أى مثل التى تغزل صوفها- وقال «خرقاء وجدت صوفًا». بمعنى أن المزاحمة والسرعة فى الحج تضر أكثر مما تكسب من الإيمان. وهذا كما يقولون يقترب من حديث رسول الله ﷺ «إن المنبت، لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى». أى أن المنقطع عن الرفقة، أى المتخلف عن الركب بسبب السرعة يجهد دابته، فتعجز عن مواصلة الطريق.

أما فى «معجم البلدان» لياقوت الحموى، فقد روى أن سيدى حسن الأنور عزل عبد الله بن مسلم بن جندب الهزلى عن إمامة الصلاة فى مسجد الأحزاب، فقال له: لم تعزلنى عن منصب أبى وأجدادى؟ فرد عليه حسن الأنور قائلا: إنما عزلك عنه يوم الأربعاء. وكان هذا اليوم مسموحًا فيه للنساء بالصلاة فى المسجد. وقد تعرض الرجل لبعض النساء بأبيات غزلية، لم يحملها سيدى حسن الأنور محمل العفو. وهذه الواقعة تدل على شدة سيدى حسن الأنور فى الدين، كما تدل أيضًا على أنه كان ناقدًا للشعر، متذوقًا وحافظًا له.

لقد وصف الحسن وهو والى المدينة المنورة بأنه «كان ذا حزم فى ولايته، وعزم فى أمرته، وشدة فى أخذ الناس بالحدود وحرمات الله لا تأخذه رأفة فى دين الله، ولا توقفه رحمة عن إقامة حدوده».

والأمثلة على حزم سيدى حسن الأنور كثيرة.

فلقد كان للحسن شاعر مشهور من أصفيائه ومواليه يسمى «ابن هرمة». وله معه أحاديث ظريفة وذكريات ممتعة، فلما صار الحسن واليًا على المدينة المنورة، جاء بهذا الشاعر وقال له بحزم، بعد أن سمع أنه يشرب الخمر:

«أنا لست كمن باعك دينه رجاء مدحك، أو خوفًا من ذمك. فقد رزقنى الله عز وجل بوَلادة نبيه المادح، وجنبنى المقابح. وأن من حقه على الا أغضى عن تقصير فى حق ربى. وأنا أقسم بالله لئن أوتيت بك سكرانًا لأضربنك حدًّا للخمر وحدًّا للسكر. ولأزيد لموضع حرمتك بى فليكن تركك لها لله تعالى، تعن عليها، ولا تدعها للناس فتوكل إليهم».

وشاعر آخر اسمه «ورد بن عاصم» جاءت قصته مع الإمام حسن الأنور فى «عيون الأخبار». هذا الشاعر هجا الحسن أثناء ولايته للمدينة، لتشدده فى إقامة الحدود. فلما سمع الحسن هجاءه طلب الشاعر. لكنه خاف وهرب، إلى أن مثل بين يديه واعتذر للحسن بتقصيره، وهنا يعفو عنه ويصله بمال.

ومع الحزم كان العطف. فقد جيء إليه بشاب ذى حسب ونسب وهو سكران فقال الشاب: يا ابن رسول الله لا أعود، وقد قال الرسول: «أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم» وأنا ابن أبى أمان بن سهل بن حنيف، وكان أبى مع أبيك. فقال الحسن للشاب: صدقت. هل أنت عائد: قال الشاب: لا والله. فأقاله الحسن، وأمر له بخمسين دينارًا وكان الحسن يبره دائمًا.

على أنه مع الشدة، كان التواضع الجم لسيدى حسن الأنور، ونذكر هنا حادثة جاءت فى كتاب «حسن المحاضرة». فقد دخل على الحسن الأنور وهو والى المدينة

المنورة أحد الشعراء لينشده قصيدة مطلعها: «الله فرد وابن زيد فرد». وبسرعة يرد عليه الحسن قائلا:

- بفيك الأثلب. ألا قلت «الله فرد وابن زيد عبد».

وينزل الحسن من على كرسى الإمارة، أو سرير الإمارة كما يسمى ويلصق خده بالأرض، ويمرغ وجهه فى التراب، ويسبح الله العلى القدير ويستغفره ويبكى.

* * *

أما عن حياة الحسن الأنور السياسية:

فنقول: إنه رغم القرابة بين سيدى حسن الأنور والعباسيين، بل المصاهرة، فإن ابنته أم كلثوم - أخت السيدة نفيسة - كانت متزوجة من أبى العباس السفاح، أقول رغم ذلك فلم يشفع هذا لقطب آل البيت فى زمنه عند المنصور العباسى الذى أقصاه عن الولاية وصادر ممتلكاته، وألقاه فى غياهب سجن مظلم.

ولا شك أن العباسيين كانوا يتوجسون من آل البيت، ويرصدون عليهم العيون فى كل مكان، حتى من كسب ثقتهم. ربما لاعتقاد العباسيين، من جهة، أنهم اغتصبوا الخلافة من مستحقيها، ولإيمان العلويين من جهة أخرى بحقهم المغتصب الذى ينبغى أن يعود إليهم. وهذا ما جعل العباسيين يأخذون بالوشايات بل لا يتحققون كثيرًا فيها إذا كانت هذه الوشاية صحيحة أم دسيسة. ونحن قد بحثنا فى الماوردى «الآداب السلطانية» عن مهام الولاية، أيام الحسن الأنور، والذى كان نقيبًا للأشراف كذلك، فاتضح أن الوالى كان مسئولا عن أخلاق الناس وأمنهم، كما كان مسئولا عن تدبير أمر الجيوش، وكذلك إمامة الصلاة، وتعيين الأئمة وإقامة الحدود لكن الملاحظ، أن العباسيين حين ولوا سيدى حسن الأنور، أعفوه من مهمة تدبير أمر الجيوش حتى لا يقوى الولاة - من آل البيت - ويخرج أحدهم على الخلافة.

والوشاية جاءت من شخص مقرب للإمام حسن الأنور، واسمه ابن أبى ذئب محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة. وهذا ذهب إلى المنصور الغباسى وأخبره أن الحسن الأنور «يطمح للخلافة، ويتشوف لنسيمها ويعمل على عودها للعلويين».

وهذا الواشى ـ رغم قربه من الإمام حسن الأنور ـ غلب على ظنه طماحية آل البيت للخلافة. ولذلك أسرع إلى المنصور العباسى، وكان الواشى نفسه ـ كما يقولون ـ يؤمن فى قرارة نفسه أن الخلافة حق للعلويين، رغم أن عمله كان عيناً للعباسيين على سيدى حسن الأنور.

ونتيجة لذلك، يظل الحسن الأنور سجين العباسيين أكثر من سنتين، حتى يتولى المهدى الخلافة، الذى كان يقدر فى سيدى حسن الأنور علمه واعتداله وزهادته، فأمر بإخراجه من السجن، ورد عليه ما أخذ من ماله، لكنه من الثابت أن المهدى لم يعد الحسن إلى ولايته، رغم أن البعض يقول إنه بعد الإفراج عنه، عاد الحسن إلى منصبه واليًا على المدينة، بل إن هناك رأيًا يرى أن المنصور نفسه والذى أمر بالحبس، هو الذى أخرج سيدى حسن الأنور من السجن لما ظهر له كذب الواشى. لكن هذا الرأى أضعف من أن يقف مع ما أجمع عليه الطبرى وابن كثير، والزركلى وغيرهم.

* * *

أما ثالث المحاور، فهو الجانب الاقتصادى. فقد كان الحسن كريمًا غاية الكرم، وكان معطاء. وفى «الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى» أنه كان لسيدى حسن الأنور قصور فى بطحاء ابن أزهر فى المدينة المنورة. وكان الناس يقصدون سيدى حسن من كل مكان طمعًا فى كرمه ونواله. فقد كانت له تجارة رابحة، حتى أنه أراد توسيع جامع الرسول على نفقته، لكن المنصور العباسى، عارض هذا الأمر.

وهناك قصة تدل على كرم سيدى حسن الأنور، رواها ابنه سيدى إسماعيل، وجاءت فى «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادى. فلقد أتاه فى الصباح الباكر مصعب ابن ثابت الزبيرى وابنه عبد الله. أتياه وهو يهم بالركوب إلى ماله ـ أملاكه ـ بالغا به فى الطريق إلى مكة المكرمة. استجارا به حتى يدفع عنهما دينًا. فأرسل الحسن إلى صاحب الدين واسمه «ابن ثوبان» فسأله. فقال على الشيخ سبعمائة، وعلى ابنه مائة. وهنا يقضى الدين عن الرجل وابنه، بل زاد وأعطاهما مائتى دينار.

لقد اشتهر الحسن الأنور بالعطاء، ولم يكن يرد صاحب حاجة، بل إنه كان يصل أعداءه وربما لأن أباه مات وهو عليه دين، فقد نذر أن يدفع دين كل من يلجأ إليه وكان يؤمن بأن المال مال الله، وأنه يجب أن يصرف فى سبيل الله.

* * *

كيف لاقى الحسن وجه ربه. وأين دفن؟ وما هى حكاية مشهده بالقرب من سور مجرى العيون أو سوق القاهرة القديم؟

خلال الخمسة والثمانين عامًا التى عاشها سيدى حسن الأنور، عاش حياة واسعة ثرية متعددة الجوانب، وأنجب أحد عشر ولدًا تسعة ذكور، واثنتين من الأناث هما نفيسة وأم كلثوم، وكما يقول الشبلنجى فى «نور الأبصار»: إن أمهم جميعًا هى أم سلمة زينب بنت الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب.

لكن الخلاف كثير حول موت الحسن الأنور وحول دفنه فقد ذكر ابن خلكان فى «وفيات الأعيان» أنه مات بمصر لكنه غير مشهور، وقيل إنه توفى ببغداد ودفن فى مقبرة الخيزران، ويرى ابن خلكان أنه مات بالحاجر. أثناء حجة المهدى سنة ثمانية وستين ومائة، وهو ابن خمس وثمانين سنة.

أما الشيخ عبد الخالق سعد فى كتابه «الجواهر النفيسة». فيؤكد أنه جاء مصر مع ابنته نفيسة، بعدما زار معها قبر الخليل إبراهيم. وأنه عاش فى مصر القديمة بدءًا من يوم السبت السادس والعشرين من شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ومائة من الهجرة». وهذا الرأى بالطبع يحتاج إلى تمحيص، إذا عرف أن المراجع أجمعت على أن الحسن الأنور مات سنة ١٦٨هـ. أو ١٨٦ هـ. كما تقول مراجع قليلة. فالسيدة نفيسة جاءت لتعيش فى مصر فى التسعينات من القرن الثانى الهجرى، وتوفيت عام ٢٠٨ هـ. فلربما جاء الحسن الأنور مع ابنته وهو فى أخريات أيامه.. ونحن بالطبع لا نميل إلى هذا الرأى.

لكن الملاحظ أن أسرة سيدى حسن الأنور فيها الكثير الذين دفنوا بمصر. بل

البعض يؤكد أن سيدى زيد مدفون فى ضريح ابنه سيدى حسن الأنور.. الذى مات فى تسعين عاما.. والبعض يقول: إن الضريح ليس لسيدى زيد الأبلج، وإنما هو لزيد بن حسن الأنور. كما يقولون: إن السيدة نفيسة بنت زيد الأبلج، عمة السيدة نفيسة بنت الحسين أيضًا مدفونة فى مصر. كما أن سيدى محمدًا الأنور أخا سيدى حسن الأنور، مدفون فى مشهده القريب من مسجد السيدة سكينة على يمنة الذاهب إلى السيدة رقية والسيدة نفيسة.. كما يؤكد ذلك كتاب «العدل الشاهد فى تحقيق المشاهد».

والسؤال مازال مطروحًا: هل الحسن الأنور مدفون فى مصر؟!

يؤكد لى فضيلة الشيخ عبد الغفور محمود جعفر شيخ جامع سيدى حسن الأنور والذى يبحث دائما فى تاريخه أن هناك مخطوطًا ينقل عن ابن النحوى قصة طويلة مفادها أن السيد حسن الأنور توفى فى ريف مصر، وأنه إن صح هذا الكلام فقد نقل رفات الحسن الأنور إلى مسجده الحالى.

ويتفق مع رأى الشيخ ما أورده الشيخ الصبان فى كتابه «إسعاف الراغبين» نقلا عن الشعرانى فى منته: «أن الإمام حسن الأنور والد السيدة نفيسة فى التربة المشهورة قريبًا من جامع القراء، بين مجراة القلعة وجامع عمرو». وأن الذى أشهر هذه التربة وبنى عليها قبة ـ كما يرى على مبارك ـ «حضرة عبد الرحمن كتخدا أحسن الله إليه، وأسبل سرادقات لطفه عليه».

من هذا يتضح اختلاف الكتاب حول دفن الحسن الأنور فى مصر، وإن كان الإمام الشعرانى يرى «أن الروح فى البرزخ كمن يسبح فى نهر جار، يطف فى أى مكان» أى يظهر فى أى مكان، وهذه كما يقول البعض مظاهر شوهدت، أو ظهر فيها الروح. بل إن هناك من الصوفية من يعتقدون أن هناك «نقلا باطنيًّا»، فبعد أيام قليلة من دفن القطب، يفتحون القبر، فلا يجدون به شيئًا، وإنما يوجد فى مكان آخر.

والواقع أن هناك شواهد كثيرة تدل على «وجود» لآل البيت فى مصر. خاصة

الذين ثار حول دفنهم الخلاف. والحسن الأنور- من خلال ضريحه ومسجده- فى التاريخ والمعمار تجعلنا نقول إن اثبات دفنه أو نقل جسده الطاهر إلى مصر يحتاج إلى أبحاث المجتهدين.

* * *

إن أقدم تاريخ عثرت عليه لجامع سيدى حسن الأنور، منذ أيام دولة المماليك البحرية، فى القرن الثامن الهجرى، وفى عصر الناصر محمد بن قلاوون. أى منذ حوالى ستة قرون. وليس معنى ذلك أن الجامع قد بدأ بناؤه فى هذا التاريخ. وإنما قبل ذلك. يدل على ذلك ما ورد فى خطط على مبارك، إذ يقول:

«... عمره القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله، ناظر الجيش باسم الملك الناصر محمد بن قلاوون، وانتهت عمارته سنة ٧١٢ هـ، وأقيمت فيه الجمعة حينئذ، وله أربعة أبواب، وفيه ١٣٧ عمودًا، وذرعه أحد عشر ألف ذراع وخمسمائة ذراع، بذراع العمل، وما برح من أحسن المنتزهات إلى أن خرب ما حوله».

لكن لسبب أو لآخر، فإن ما أقامه قلاوون سقط أيضًا، مع أن الجامع كما يقول الشعرانى «كانت مساحته كبيرة، وكان حوله بساتين من أجمل المتنزهات..». ويؤكد ذلك على مبارك حين يقول «.. ثم زالت آثاره بالكلية، وقيل- أى الجامع- كان محل السبع سواقى ذات البناء الضخم بجوار فم الخليج، التى تنقل الماء من النيل إلى مجراة القلعة. ويدلل على ذلك ما اشتهر من أن الفرنساوية زمن دخولهم مصر، وجدوا هناك كثيرًا من العمد الرخام الضخمة وأحجارًا ونحو ذلك».

لكن عمارة المماليك سرعان ما انهارت هى أيضًا، بعد حوالى أربعة قرون ونصف. وظل الجامع متخربًا حتى تجدد فى عام ١٢٨٠ هـ- وكما جاء فى على مبارك- على يد ناظره الشيخ أبى زيد إسماعيل كما هو مرقوم بأعلى بابه الغربى، عليه قبة حديثة وتحت تابوته حجر من الرخام مكتوب عليه اسم سيدى حسن الأنور، وبجوار هذا الضريح ضريحان، أحدهما لسيدى زيد الأبلج، واسمه منقوش على قطعة حجر تحت تابوته. والآخر لسيدى جعفر». ولا يعرف من هو سيدى جعفر، حتى الآن.

لكن هذا التجديد لا ينفى أن الأمير عبد الرحمن كتخدا فى القرن الثانى عشر الميلادى كان قد بنى قبة على ضريح سيدى حسن الأنور، كما سبق أن أسلفنا.

وكما هو ظاهر فإن المسجد الحالى بمقارنته بما فى أوراق الأوقاف، فإن مساحته قلت كثيرًا. بل إنه الآن ليس حوله خضرة سوى نخلة واحدة، رغم ما يقوله على مبارك من أنه كان «بجوار ميضأته شجرتان من اللبخ ونخلات». وحتى الخمسينات من القرن العشرين، وصل المسجد إلى حالة يرثى لها، مما دفع بعض أهل الحى إلى الاشتراك فى تجديده وتوسيعه.

وهكذا تبدو أهمية جامع سيدى حسن الأنور، وأهميته تكمن بالطبع فى الضريحين الموجودين به لسيدى حسن الأنور ووالده اللذين ينتميان للحسن السبط. وهو فرع كثير من أوراقه المضيئة على تراب مصر.

هذا الرأس الشريف
حمله المصريون ودفنوه فى المطرية

ثلاثة من الرءوس الشريفة، لثلاثة من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاءت إلى مصر لترصع جبينها، وتصبح لآلئ ومحاور بركة، ومقامات تزار. ليس لأهل مصر وحدها، وإنما لمحبى وعاشقى آل البيت. رحمة الله عليهم، الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا.

والرءوس الشريفة، حسب الترتيب التاريخى لدخولها مصر - هى كالآتى:

الأول: رأس سيدى زيد بن على زين العابدين بن الإمام الحسين رضى الله عنهم. وهو مدفون فى المشهد المنسوب لسيدى على زين العابدين، فى الحى المعروف بذلك الاسم. وكان يعرف فى عصور الإسلام الأولى «الحمراء القصوى» أو هو مدفون قرب ضريح نجله سيدى حسن الأنور قرب سور مجرى العيون.

الثانى: رأس سيدى إبراهيم بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب. وجدته لأبيه السيدة فاطمة النبوية. وهذا الرأس مدفون فى حى المطرية، فى شارع البرنس «ماهر حاليًا».

والثالث: رأس سيد شباب أهل الجنة، سيدى الإمام الحسين بن على، فى الحى الذى يحمل اسمه. وقد أفضنا فى هذا الرأس الشريف وكيف جاء مصر.

ولنتحدث باختصار عن سيدى زيد. الذى ذكرناه، ونحن نكتب عن أبيه الإمام على زين العابدين، زهرة آل البيت.

فالمعروف، أن سيدى على زين العابدين، هو الوحيد الذى بقى من بنى الحسين

ابن على بعد مأساة كربلاء. وقد عاش حياته قطبًا كبيرًا، ونفحة عطرة زكية، وأنجب بذورًا صالحة منها سيدى زيد.

وفى نطاق اغتصاب بنى أمية للخلافة من آل البيت، كان سيدى زيد أول من طالب بحقه فى الخلافة فى أيام الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك. فكانت الجفوة والصراع مع الخليفة الأموى، وكانت السبب فى خروج سيدى زيد على بنى أمية.

وكما سار جده الإمام الحسين إلى الكوفة، سار إليها أيضًا سيدى زيد.

وفى اللحظات الأخيرة حين هم بالعودة إلى المدينة المنورة لعدم ثقته بأهل الكوفة، أقنعوه بالنصرة والبقاء، ومحاربة الأمويين معه، قائلين له:

«نعطيك الأيمان والعهود والمواثيق، ما تثق به فإنا نرجو أن تكون المنصور، وأن يكون هذا الزمان، الذى تهلك فيه بنى أمية».

وما زال أهل الكوفة على إغرائهم - وهم الذين خذلوا جده - حتى اقتنع سيدى زيد، وبقى هناك.

وهكذا نشب القتال بين سيدى زيد ومناصريه وبين يوسف بن عمر والى الكوفة، من قبل هشام بن عبد الملك. وتفرق الكوفيون كعادتهم من حول سيدى زيد، ليبقى فى فئة قليلة من أهله يحارب الأمويين، حتى سقط شهيدًا فى صفر عام ١٢٢ هـ. وقبل زوال ملك الأمويين بعشر سنوات.

واختلفت المصادر على مكان دفن رأس سيدى زيد.

فقيل إن جسده الشريف حمل إلى الكوفة ثم أحرق وذر رماده فى النهر، ليكون عبرة لمن تحدثه نفسه بالخروج على الأمويين.

وقيل إن رأسه احتز وبعث به إلى الخليفة الأموى، فنصبه على باب دمشق، ثم أعيد الرأس الشريفة إلى المدينة.

لكن أغلب المؤرخين، يقول إن الرأس جاء مصر. فالكندى فى كتابه «الولاة والقضاة» وهو من المؤرخين الثقاة - يؤكد قدوم الرأس إلى مصر. وفى «الجوهر

المكنون» نص يقول: «إنه بعد أن قدم رأسه - يقصد رأس سيدى زيد - إلى مصر، طيف به، ثم نصب على المنبر الجامع بمصر - جامع عمرو - فى سنة ١٢٢ هـ. فسرق، ودفن فى هذا الموضع، إلى أن ظهر، وبنى عليه مشهد فى عهد الدولة الفاطمية».

* * *

ثم يأتى الحديث حول الرأس الثانى. رأس سيدى إبراهيم بن عبد الله. المدفون فى مشهده، داخل المسجد الحالى، الذى يعرف باسم مسجد سيدى إبراهيم، فى حى المطرية. وهو مسجد تعددت أسماؤه فى الماضى. فقد عرف باسم مسجد التبر، ومسجد التبن، ومسجد البئر ومسجد الجميزة.

أما الاسم الذى يعتمد على أسانيد تاريخيه صحيحة، كما ترى الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» فهو مسجد «تبر» أو مسجد «سيدى إبراهيم». ولكل دلالة.

لكن، من هو سيدى إبراهيم، الذى تدور الحياة حوله فى المطرية، ويأتيه الزوار من كل أنحاء عالم الإسلام؟!

سيدى إبراهيم - كما تجمع المصادر عليه هو إبراهيم الجواد بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب. وهو من أوائل الذين جمعوا بين سلالة الحسن والحسين رضى الله عنهما، من خلال جده الحسن المثنى بن الحسن السبط، ومن خلال جدته السيدة فاطمة النبوية بنت الحسين بن على.

وثابت فى المصادر أن سيدى إبراهيم قتل فى عهد الخليفة المنصور العباسى سنة ١٤٥ هـ. وكما يقول المقريزى فى خططه «أرسل رأسه إلى مصر فنصب فى المسجد الجامع العتيق»، أى مسجد عمرو بن العاص ويقول المؤرخ أبو المحاسن فى كتابه «النجوم الزاهرة»: «.. وبينما الناس فى ذلك، قدم اليزيد برأس إبراهيم بن عبد الله فنصب فى المسجد أيامًا فى محلة مطر، وهو الاسم القديم للمطرية. وفى

«الولاة والقضاة» للكندى يقول: «ثم قدمت الخطباء إلى مصر برأس إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب، فى ذى الحجة سنة خمس وأربعين ومائة، لينصبوه فى المسجد الجامع، وقامت الخطباء فذكروا أمره..».

ويقول القضاعى فى كتابه «عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف»، حول مسجد سيدى إبراهيم: «مسجد تبر بنى على رأس إبراهيم بن عبد الله. أنفذه المنصور، فسرقه أهل مصر، ودفنوه هناك..». ويقصد بهناك أى المطرية.

أما الشيخ الشبلنجى فى «نور الأبصار»، فهو يحقق الاسم، ويذكر بعضًا مما جرى لسيدى إبراهيم، ويقول: «هو إبراهيم بن عبد الله المحض، أخو محمد المهدى - يقصد محمد النفس الزكية - وكان مرضى السيرة من كبار العلماء. قال أبو الحسن المعمرى: قتل إبراهيم فى ذى الحجة سنة خمس وأربعين ومائة، وهو ابن ثمان وأربعين سنة، وحمل ابن أبى الكرام، رأسه الشريفة إلى مصر».

* * *

والسؤال الذى ينبغى طرحه هنا لنعرف تسلسل الأحداث حول آل البيت:

كيف قتل سيدى إبراهيم؟ ولماذا؟. وكيف جاء رأسه الشريفة إلى مصر بالذات دون بقية الولايات أو الأمصار الإسلامية؟!

حين انتهت دولة الأمويين فى ١٣٢هـ وظفر العباسيون بالخلافة أدرك آل على بن أبى طالب، أن أبناء عمومتهم من العباسيين قد خدعوهم، واستأثروا بالخلافة دونهم، مع انهم - بالطبع - أحق بها منهم.

وطبيعة الأمور، أن ينشأ نتيجة لذلك صراع يغذيه وينفخ فى جذوته الكثيرون من المخلصين، وأيضًا الكثير من المتآمرين على دين الإسلام، والذين يعرفون كيف يصيدون فى المياه العكرة.

وهكذا، ألقت الظروف على كل من محمد وإبراهيم ولدى عبد الله المحض، أن يكونا أول المطالبين بالخلافة لبنى على، وأول الخارجين من آل البيت على العباسيين،

رغم أن محمدًا وإبراهيم لم يكونا وحدهما من أعمدة آل البيت فى ذلك الوقت. فقد كان هناك من أحفاد الإمام الحسين: جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على، إمام الشيعة الإمامية، لكنه لم يحرك ساكنًا، وأوصى أصحابه ومشايعيه بالخلود إلى السكينة، حتى تحين الفرصة الذهبية.

كان محمد إذن، وأخوه إبراهيم أول المطالبين بالحق.

ومحمد كان الأخ الأكبر لإبراهيم.

ولذلك فقد طالب محمد النفس الزكية بالخلافة، وساعده أخوه إبراهيم، استنادًا على دعواه الأساسية من أنه من أولاد على وفاطمة الزهراء، وهو الوصى والإمام، كما ذكر ذلك فى خطابه إلى أبى جعفر المنصور، ضمن الخطابات التى تبودلت بينهما وسجلتها كتب التاريخ.. وأهمها كتاب «ابن طباطبا»: «الفخرى فى الآداب السلطانية».

وكذلك فإن محمدًا - وهو الذى يعرف فى التاريخ باسم محمد النفس الزكية - طالب بحقه أيضًا استنادًا إلى أحداث واتفاقات جرت فى أواخر دولة الأمويين، يقول عنها ابن طباطبا:

«إن بنى هاشم من العلويين والعباسيين، اجتمعوا فى مغرب دولة الأمويين، وتذاكروا حالهم، وما تعرضوا له من الاضطهاد، وما آل إليه أمر بنى أمية من الاضطراب، وميل الناس إلى آل البيت، ورغبتهم فى أن تكون لهم دعوة، واتفقوا على مبايعة محمد النفس الزكية، الذى كان فى ذلك الوقت من سادات بنى هاشم، علوييهم وعباسييهم، فضلا وشرفًا وعلمًا وكانت مبايعته بعد اجتماع حضره كبار آل البيت، ومنهم الإمام جعفر الصادق وعبد الله المحض، وأبناه محمد وإبراهيم. كما حضره أبو العباس السفاح، والمنصور، وغيرهم».

ثم تغرب شمس دولة الأمويين. لكن العباسيين هم الذين يخلفون الأمويين ويضربون بالاتفاق عرض الحائط، ومن هنا يمتنع محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم عن مبايعة (أبو جعفر السفاح) وحين حاول أخوه المنصور أن يأخذ له

البيعة فى الحجاز. يمتنع النفس الزكية عن البيعة، لأنه أحق بها، ويمتنع أخوه تدعيماً له.

وكان لابد من احتدام الصراع، الذى وصل إلى حد استخدام السلاح، والقتل والصلب، واجتزاز الرءوس!

* * *

حين ولى المنصور الخلافة، كانت دعوة محمد النفس الزكية وإبراهيم قد جمعت حولها الأنصار والمشايعين. وصارت خطراً يهدد الدولة العباسية. وهنا رأى المنصور أنه لابد من التخلص منهما، ولابد من الظفر بهما، مع إعمال كل الحيل. كما يقول الطبرى فى تاريخه فى الجزء التاسع.

بل إن المنصور العباسى أصدر تعليماته إلى واليه بالمدينة المنورة، أن يبذل كل ما فى طاقته للقبض على الأخوين، لكن الوالى - فى الواقع - تهاون فى القبض عليهما، بل إنه اتصل سراً بمحمد النفس الزكية، وساعده على الهروب من المدينة المنورة، فسافر إلى عدن ثم إلى السند ثم الكوفة. بعدها عاد إلى المدينة المنورة، بعد أن جمع عدداً كبيرا من الأعوان والمشايعين.

وهنا يقسو المنصور على واليه فى المدينة، فيعزله، بل يأمر بتكبيله بالحديد ويحبسه، بعد أن يصادر أمواله ويولى مكانة خالد بن عبد الله القسرى، الذى اتهم أيضاً بالتهاون والتفريط فى مطاردة النفس الزكية وأخيه إبراهيم. ثم يولى المنصور على المدينة رباح بن عثمان بن حيان، وهو عم مسلمة بن عقبة المرى، قائد معركة «الحرة» فى عهد يزيد بن معاوية الأموى.

ويتولى مسلمة بن عقبة المرى، المدينة المنورة سنة ١٤١هـ.

ويعتلى المنبر، يخطب فى أهل المدينة مهدداً، إذا ساند أهلها محمد النفس الزكية وأخاه إبراهيم. ويستخدم فى خطبته ألفاظاً لا تختلف عن ألفاظ خطبة الحجاج بن يوسف الثقفى، فى أهل الكوفة. لكن أهل المدينة لم يخافوا، أعلنوا الاستمرار فى

موقفهم، وتدفق شعورهم حماسة نحو آل البيت. فرجموا الوالى بالحصى حتى أنه بعث للمنصور يشكو له ما حدث من أهل المدينة.

وهنا تثور ثائرة المنصور، ويبعث بخطاب لأهل المدينة ويتوعدهم ويقرأ الخطاب من فوق المنبر مسلمة بن عقبة المرى، فكان نصيبه مثلما حدث له أثناء خطبته العنترية السابقة.

لكن، ما العمل، والمنصور يشدد على واليه فى طلب محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم؟

هنا يبدأ التنكيل الحقيقى بآل البيت من قبل العباسيين.

ويأتى مسلمة بن عقبة المرى بعبد الله المحض، والد محمد وإبراهيم من سجنه. وكان المنصور قد حبسه، بعد قيام ابنيه ومعارضتهما مبايعة العباسيين. وهدد مسلمة عبد الله بالويل والثبور وعظائم الأمور، إن لم يأته بابنيه. ويزداد الاضطهاد والتنكيل فيقبض مسلمة على إبراهيم القمر، والحسن المثلث إخوة عبد الله المحض، وأعمام محمد وإبراهيم. ويعتقل مجموعه كبيرة من رجالات آل البيت، بل إنه يعلن على المنابر سب محمد وإبراهيم ومن يناصرهما فى المدينة المنورة.

كل ذلك يحدث والأخوان مختفيان بالمدينة.

وحين عرفا ما حل بأهلهما، بعث محمد - كما يقول اليعقوبى فى تاريخه، والمسعودى فى «مروج الذهب ومعادن الجوهر» - إلى أبيه فى سجنه بمن يشاوره، لكن أباه شجعه على الكفاح والنضال من أجل حق آل البيت، هذا رغم ما كان يلاقيه الأب وأسرته من اضطهاد وتعذيب.

وهنا بدأ محمد وإبراهيم يعدان العدة للخروج من دعوتهما السرية إلى الدعوة العلنية. ويستفحل أمرهما مما أزعج المنصور لأنهما هددا أركان الدولة العباسية بأسرها.

ويحج المنصور فى سنة ١٤٤هـ. ويأتى إلى المدينة المنورة. فجاءوا له بالمسجونين

من آل البيت. لينكل ببعضهم، ويرسل البعض الآخر إلى سجون أخرى، على أقتاب جمال بغير وطاء أى جمال بغير سروج وغطاء- كما يقول الطبرى. ويحبس أغلبهم فى سراديب تحت الأرض «لا يفرقون فيها بين ضياء النهار وسواد الليل».

ويزيد المنصور فى تعذيب كبار آل البيت، حتى يموت عبد الله المحض وأخواه إبراهيم القمر، والحسن المثلث، خنقًا داخل السراديب المظلمة.

وكان مما ليس منه بد.

كان لابد لمحمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم من الظهور، بعدما جرى لأهلهما، أهل البيت النبوى الكريم.

وفعلا ظهرا علنًا فى جمادى الآخرة سنة ١٤٥هـ. «٧٦٢م». ظهر محمد النفس الزكية، بعد أن بايعه الناس بالإمامة فى مكة والمدينة «أى الحجاز» وتلقب بأمير المؤمنين. وقد شجعه أيضًا على الظهور فتوى الإمام مالك، بنقض بيعة المنصور، حين قال لأهل المدينة: «إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين».

كما شجع محمد النفس الزكية وإبراهيم على الظهور، تلك الخطابات التى جاءت من الأمصار الإسلامية بتأييد الناس له وهى خطابات- كما يقول المؤرخون غالبيتها دسيسة من تدبير الخليفة المنصور وأعوانه، لكى يظهر محمد وأخوه ويسهل على العباسيين اصطيادهما.

يظهر محمد وإبراهيم. ويكون الصراع سافرًا بين من لهم الحق ومن اغتصبوا هذا الحق.

ويرسل محمد أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته وأخذ البيعة له. وقبلها توجه الاثنان وأشياعهما إلى سجن المدينة، وأخرجا من لا يزال حيًّا فيه من آل البيت، كما قبضا على والى المنصور وحبساه.

وقيل إن المنصور حاول أن يقبض على إبراهيم، وهو فى طريقه إلى البصرة متخفيًا، لكنه- أى المنصور- لم يوفق. وبالفعل وصل إبراهيم إلى البصرة. «سرًّا

فى عشرة أنفس» كما يقول الذهبى.. ووجد الأشياع كثيرين. واستولى على دار الإمارة بعد أن هزم والى المنصور هناك. وقد شد من أزره ورحب به فقهاء البصرة، وغيرهم هناك من ذوى الجاه والرأى. وانضوت الزيدية والمعتزلة تحت لوائه. وعاونه الإمام أبو حنيفة، وأرسله سرًّا. كما سبق أن ذكرنا معاونة الإمام مالك للنفس الزكية.

وقد استطاع سيدى إبراهيم، إدخال أهل واسط والأهواز وفارس فى دعوته. وحصل منهم على اعتراف بمبايعة أخيه محمد النفس الزكية بالإمامة، بل إن الاخوين - قبل ذلك - أرسلا الدعاة إلى الأمصار الإسلامية ومنها مصر التى رحبت بذلك.

ويوالى محمد وإبراهيم انتصاراتها. وبدت الصورة أن الخلافة العباسية أوشكت على زوالها.

ولكن، الأخبار تصل إلى إبراهيم بمقتل أخيه النفس الزكية فى المدينة المنورة، وقبل عيد الفطر بثلاثة أيام فى عام ١٤٥ الهجرى. فقد أرسل المنصور إلى المدينة بجيش كبير. وحين وجد محمد النفس الزكية أنه لا قبل له بجيش المنصور، أشار عليه البعض أن يرحل إلى مصر، لأنه سيجد فيها أرضًا خصبة وقلوبًا مفتوحة مرحبة ومشايعة. لكن البعض الآخر رجوه أن يبقى فى المدينة ويصمد، رغم أن المدينة من الناحية الاستراتيجية العسكرية غير صالحة، وقد انقاد النفس الزكية للرأى الذى غلب ببقائه فى المدينة لحرب قوات المنصور. وكان لابدّ مما ليس منه بدّ. إذ كانت المدينة هى المصيدة بالنسبة لمحمد النفس الزكية. الذى هزم وقتل، واجتز رأسه.

وفى كتاب «العبر فى خبر من غبر»: أن محمد النفس الزكية ظهر فى المدينة المنورة، وخرج فى مائتين وخمسين نفسًا بالمدينة. فندب الخليفة المنصور لحربه ابن عمه عيسى بن موسى، يدعوه إلى الإنابة، فلم يسمع. ثم أنذر عيسى أهل المدينة ورغبهم ورهبهم، ثم زحف على المدينة فظهر عليها. وقتل محمدًا وبعث برأسه إلى المنصور.

وقد أثر فى إبراهيم مقتل أخيه. حتى أنه صعد المنبر ونعاه، فأبكى الناس.

ويقال إن إبراهيم جمع حوله حوالى مائة ألف محارب، وأنه لو أحكم التخطيط لانهزمت الدولة العباسية. وكان المنصور يستشعر هذا الأمر، فجند كل القوى ضد إبراهيم.. وأرسل إليه المنصور - ابن عمه - عيسى بن موسى، الذى قتل النفس الزكية، بجيش عباسى كبير، فدارت معركة هائلة فى.«باخمرى»، أو«باغمرى»، ما بين واسط والكوفة وكادت الهزيمة تلحق بالجيش العباسى، لولا أن عيسى بن موسى ثبت فى المعركة، وأبى أن يغادر ساحتها حتى يقتل أو ينتصر.

ومازال الفريقان يقتتلان، حتى بدا أن جيش إبراهيم ينهزم، بعد أن تخلى عنه الكثيرون. ومع ذلك، فإن إبراهيم ثبت فى عدد قليل من أنصاره، حتى أصيب بسهم فى حلقه فأنزلوه وهو يقول «وكان أمر الله قدرًا مقدورًا ، أردنا أمرًا وأراد الله غيره» .

وبسرعة حمل عيسى بن موسى على إبراهيم ومن بقى معه وكان عددهم سبعين رجلا، فتفرق عنه حتى أنصاره. وجاء ابن قحطبة - من قواد عيسى بن موسى - فاجتز رأس إبراهيم وأرسله للمنصور، فى يوم الاثنين لخمس ليال بقين من ذى القعدة سنة خمس وأربعين ومائة.

يقول د. حسن إبراهيم حسن، فى كتابه «تاريخ الإسلام السياسى» «كانت هزيمة إبراهيم بسبب تقسيمه جيشه إلى «كراديس» يقدم منها إلى المعركة كردوسًا، فإذا انهزم قدم آخر. وهكذا. بمعنى أن إبراهيم لم يقاتل بجيشه صفًا واحدًا، بالإضافة إلى أن الخطة التى رسمها مع أخيه النفس الزكية فى المدينة لم تنفذ. وهى خطة كانت تهدف بدء القتال فى المدينة والكوفة فى وقت واحد. وقيل إن تأخر إبراهيم فى بدء القتال. يرجع إلى مرضه. وقيل أيضًا إن تعجل أخيه محمد للحرب، كان سبب الهزيمة، ولو خرج الأخوان فى وقت واحد لحرب قوات المنصور، لتغير وجه التاريخ».

* * *

هز سيدى إبراهيم - شهيد باخمرى - أركان دولة العباسيين هزًا عنيفًا، وكاد

يصدع أركانها، حتى أن المؤرخ الحافظ الذهبى يقول: «إن الخليفة العباسى المنصور مكث لا يقر له قرار. فجهز العساكر، ولم يأو إلى فرش خمسين ليلة، وكل يوم يأتيه فتق فى ناحية». والمقصود بالفتق هنا هو الهبات والثورات على الحكم العباسى. ويضيف الذهبى عن المنصور العباسى: «..ولولا السعادة لثل عرشه بدون ذلك، فلو هجم إبراهيم بالكوفة، لظفر بالمنصور، ولكنه كان فيه دين - أى إبراهيم - قال: أخاف إن هجمتها أن يستباح الصغير والكبير، وكان أصحابه يختلفون عليه».

والواقع أنه من بين أسباب هزيمة إبراهيم خلافًا لما ذكرنا، أن الخليفة المنصور استطاع أن يحتفظ بالكوفة، لأنها موقع استراتيجى. وأثناء ثورة إبراهيم ألزم الناس بلبس السواد، وجعل يقتل كل من أتهم بالتعاون والتعاطف مع العلويين، ويحبسه. ولو أن سيدى إبراهيم سيطر على الكوفة بجانب البلدان التى ذكرناها لتغيرت المقادير، خاصة وأن محمدًا النفس الزكية وإبراهيم، بعد أن خرجا، بعثا بإخوتهما وأبناء عمومتهما إلى الأمصار الإسلامية ليأخذوا البيعة لمحمد.

ففى مصر - كما يقول ابن ظهيرة - فى كتابه «الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة».

«وفى أيام يزيد بن هاشم والى مصر من قبل الخليفة المنصور، ظهرت بمصر دعوة بنى الحسن بن على بن أبى طالب، وتكلم بها الناس، وبايع منهم لبنى الحسن فى الباطن. وماجت الناس بمصر. وكاد أمر بنى الحسن أن يتم، والبيعة كانت باسم على بن محمد بن عبد الله - أى ابن محمد النفس الزكية أخى إبراهيم - وبينما الناس فى ذلك قدم يزيد برأس إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ابن على بن أبى طالب فى ذى الحجة سنة خمس وأربعين ومائة، فنصب فى المسجد أيامًا».

وهذا يعنى أن مصر كولاية إسلامية، لعبت دورًا خطيرًا ومرموقًا فى هذه الثورة العلوية.

بل إن مصر منذ أيام كربلاء وربما قبلها. أيام الخلاف بين على ومعاوية أعلنت - كما ذكرنا - تعاطفها مع آل البيت، ولذلك فليس بغريب أن نجد الكثير من آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم مدفونين بمصر .

ومما يدل على تحرج الحالة فى مصر - كما يقول ابن ظهيرة - أثناء ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم، أن يزيد بن حاتم والى مصر قد منع أهلها من الحج بسبب خروج محمد وإبراهيم على العباسيين وأن هذا الوالى لم يسمح للمصريين بالحج، إلا بعد أن جاءت الأنباء بقتل إبراهيم فى باخمرى، عقب قتل أخيه النفس الزكية فى المدينة المنورة.

* * *

ويبقى بعد ذلك الحديث عن مسجد سيدى إبراهيم، والذى يسميه بعض العامة تجاوزًا وخطأ باسم مسجد سيدى إبراهيم الدسوقى، وفى بعض الأحيان يخلطون بين إبراهيم بن عبد الله، وإبراهيم بن سيدى زيد الشهير على ما يذكر الإمام الشعرانى.

يقول المقريزى، معرفًا هذا المسجد:

«هذا المسجد خارج القاهرة مما يلى الخندق، عرف قديمًا بالبئر والجميزة. وعرف بمسجد تبر، وتسميه العامة مسجد التبن، وهو خطأ وموضعه قريب من المطرية. وتبر هذا أحد الأمراء فى أيام كافور الأخشيدى. وقد ثار تبر هذا على جوهر الصقلى لما قدم من المغرب. وحاربه، فانهزم - أى جوهر - ومن معه. ثم هزمه جوهر بناحية صهرجت. وقبض عليه، وأدخل إلى القاهرة على فيل. فسجن فى صفر سنة ستين وثلاثمائة، فاشتدت المطالبة عليه وضرب بالسياط، وقبضت أمواله، وحبس عدة من أصحابه فى القيود إلى ربيع الآخر، ثم أطلق وأقام أيامًا مريضًا، ومات، فسلخ بعد موته وصلب عند كرسى الجبل. قال ابن عبد الظاهر أن جلده حشى تبنًا وصلب، فربما سمت العامة مسجده بذلك. وقبره بالمسجد المذكور».

وكما يقول عثمان المدوخ، المكنى الحسينى الشافعى فى كتابه «العدل الشاهد فى التحقيق المشاهد»:

«هذا المشهد خارج القاهرة من بحريها قريبًا من الخندق، بينه وبين المطرية. اشتهر بمسجد تبر الأخشيدى، لأنه بناه على مسجد السيد إبراهيم. عرف بمسجد تبر،

والعامة تسميه بمسجد التبن، وهو خطأ».

أما على باشا مبارك، فيقول فى خططه:

«زاوية التبر، هى خارج قبة الغورى من ضواحى القاهرة، مما يلى المطرية، قرب قنطرة ترعة الجرف، المعروفة بترعة التبرى، القاطعة لطريق المطرية، وكانت تعرف بمسجد التبر».

ويضيف على باشا مبارك قائلا: حول المسجد، فى القرن الماضى أيام الخديو توفيق:

«.. والآن هو زاوية لطيفة عامرة، وبها قبة حسنة على ضريح الشيخ التبرى، وصهريج فوقه سبيل، ويتبعها جنينة، يحيط بها سور عليه درابزين من حديد. وخلف جميع ذلك دورة مياه. وكل ذلك من إنشاء صاحبة العصمة «شفق نور» والدة حضرة الخديو الأفخم محمد باشا توفيق، وذلك فى سنة أربع وتسعين ومائتين وألف وقد أزالت هذه العمارة ما كان هناك من الآثار القديمة، وأنشات الزاوية الإسماعيلية إنشاء حسنًا، ورتبت لها خدمات، وجلبت لها ماء النيل من ترعة الاسماعيلية بواسطة المواسير، ولما تم بناؤها عملت بها ليلة حافلة، اشتملت على أذكار، وتلاوة قرآن، ودلائل الخيرات، ومد بها سماط».

والحقيقة أن النص الذى اقتبسناه من على باشا مبارك، فيه خلط كثير، بين سيدى المطراوى وبين سيدى إبراهيم. وأيضًا بين الأخشيدى والأمير تبر. والدليل على ذلك. كما قال لى فضيلة الشيخ محمد عباس. إمام وخطيب مسجد سيدى إبراهيم: أن وصف المسجد بالجميزة والبئر، وصف صحيح. فقد نشأت فى المنطقة أنا وأبى وأجدادى، وكانت زمان الجميزة باسقة، وكان البئر موجودًا، والأخير أقيمت عليه دورة المياه، وكان المسجد كما سمعت من أجدادى قائمًا منذ قديم الزمن، ثم تحول إلى زاوية صغيرة.. ثم إلى مقبرة فقط، بقيت زمنًا ثم اندثرت. ومنذ عهد قريب، فى عام ١٩٢٢ تطوع بعض الأهالى ببنائه، فأعيد إلى حاله الموجود عليها الآن، فى شارع البرنس- ماهر حاليًا- بالمطرية وعليه ضريح يزار.. ووزارة

الأوقاف لا تلتفت إليه حتى كسوة الضريح تبرعت بها سيدة ليبية من نسل سيدى إبراهيم، وتأتى للزيارة كل عام. وحجارة الضريح جلبها أهل الخير.

وهذا الكلام الذى يقوله شيخ مسجد سيدى إبراهيم صحيح ويتفق مع ما ورد فى كتاب «تحفة الأحباب وبغية الطلاب» لابن محمود السخاوى الحنفى، الذى يقول: «وقد ظل هذا المسجد يعرف باسم مسجد تبر إلى عهد قريب، ثم تحول إلى زاوية صغيرة، ثم اندثرت المبانى وبقيت التربة فقط».

وتضيف د. سعاد ماهر صاحبة كتاب «مساجد مصر».

«لعل السبب فى اختيار جهة المطرية لتكون مقرًا لرأس سيدى إبراهيم، هو إبعاد الناس فى مصر عن زيارة المقبرة، حتى تخمد الثورة وتضعف شوكة العلويين. فقد كانت المطرية فى ذلك الوقت- حوالى منتصف القرن الثانى الهجرى- مهجورة، غير مسكونة، لبعدها عن العاصمة، وهى الفسطاط أو العسكر. كما أن مقابر المسلمين فى ذلك الوقت كانت عند جبل المقطم».

وتقول د. سعاد ماهر:

«ومما ينهض دليلا على أهمية هذه المقبرة فى تلك المنطقة النائية،- وأعنى بها المطرية- هو اهتمام الأمير تبر ببناء مسجد بجوارها».

على أن المؤرخ ابن ظهيرة ينفرد وحده برأى دون بقية المصادر عن سيدى إبراهيم، حول مكان دفن الرأس. فهو يقول: «ومسجد البئر والجميزة، فى طريق الجب بنى على رأس إبراهيم بن عبد الله أرسله المنصور إلى الأمصار، فأخذه أهل مصر ودفنوه فى هذا الموضع» وفى تفسير ابن ظهيرة لمكان البئر والجميزة يقول: إنها «العريش». وهو رأى ذكرناه للأمانة العلمية، لكنه لا يقوم على أسانيد.

وربما ابن ظهيرة قد خلط بين ما حدث لسيدى إبراهيم، وما حدث للأمير الأخشيدى تبر. والأخير قبض عليه عند مدينة صور.

فالمقريزى يقول فى تبر: «... فسير إليه عسكرًا - يقصد جوهر الصقلى-

حاربه بناحية صهرجت - محافظة الدقهلية - فانكسر وصار إلى مدينة صور التى كانت على ساحل البحر، فقبض عليه بها وأدخل إلى القاهرة».

* * *

على أية حال، فنحن نختم الحديث حول سيدى إبراهيم الجواد، بما قاله المبرد فى كتابه «الكامل فى التاريخ». وهو فيما أعتقد أصدق رواية عنه. يقول عن سيدى إبراهيم منذ مقتله، وحتى وصول رأسه الشريف إلى المطرية:

«إنه لما أدخل الرأس على المنصور ورآه بكى، حتى خرجت دموعه على خد إبراهيم. ثم قال: أما والله إنى كنت لهذا كارهًا، ولكنك ابتليت بى، وابتليت بك.

«ثم جلس المنصور مجلسًا عامًّا وأذن للناس، فكان الداخل يدخل، ويتناول إبراهيم ويسىء القول فيه. ويذكر فيه القبيح التماسًا لرضى المنصور، والمنصور متمسك، متغير لونه. حتى دخل جعفر بن حنظلة الدارمى. فوقف فسلم، ثم قال: أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين فى ابن عمك، وغفر له ما فرط فيه من حقك. فاصفر لون المنصور، وأقبل عليه: يا أبا خالد مرحبًا بك ههنا. فعلم أن ذلك يرضيه. فقال مثله. ثم طيف برأسه - أى رأس سيدى إبراهيم - فلما وصل مصر، ونصبوه على منبر الجامع العتيق، سرقه بعض الناس. ودفنه فى هذا الموضع، كما فعل برأس زيد بن الإمام على زين العابدين بن الإمام الحسين، عليهم السلام».

الإمام الشافعى

كان رجلاً .. معه نصف علم الدنيا

منذ الخامسة عشرة من عمره القصير، والناس يلتفون حوله كلما جلس يفتحون عقولهم يركزون على كل ما يقول، ويحفظون داخل قلوبهم كل حرف يخرج من فمه.

التفوا حوله داخل المسجد الحرام فى مكة المكرمة. والتفوا حوله داخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة. وقلت الحلقات، وقل عددها فى مساجد الكوفة وبغداد واليمن لأن روادها هرعوا إلى حلقته ومجلسه، ثم جاء مصر. واجتذب الناس فى مسجد عمرو بن العاص فى الفسطاط، وكان مسجدها الجامع، وقلب نبضها السياسى والدينى.

الذين التفوا حوله فى زاوية الخشابية، ليسوا ناسًا من العامة، بقدر ما كانوا من المبرزين. الذين لمعت أسماؤهم فى تاريخ الإسلام بعده، وظلوا شموسًا مضيئة على مر الأيام ومراكز إشعاع فى عقيدة الإسلام.

إنه القطب الشريف محمد بن إدريس الشافعى. الفقيه وصاحب المذهب المعروف، والذى كان - كما وصف - معه نصف علم الدنيا.

* * *

هذا الرجل كان كالشمعة المضيئة فى زمنه. ظل يحترق ويحترق، حتى ذبل وانتهى جسده. لكنه ظل فكرًا مضيئًا، استطاع أن يضيف إلى الفقه الإسلامى أبعادًا وأبعادًا.

كان الشافعى ينظر إلى مستقبل العقيدة والتشريع الإسلامى، بعدما تخطى حدود أرض الرسالة، بعلاقاته الجديدة، وناسه الجدد رأى أن فكر مالك جاء فى وقت كان مجتمع الحجاز أقرب إلى حياة البداوة، فلم يكن فيه الفقه فى حاجة للفتوى إلا من خلال الحديث والسنة، ورأى أن فقه الإمام أبى حنيفة رغم تقدمه عن فكر الإمام مالك، رأى فيه الاجتهاد وتحكيم العقل، ولكن ينقصه بعض الحدود والضوابط.

من هنا رأى بثاقب فكره، وواسع ثقافته: وتعدد رحلاته، واحتكاكه بالناس، أن الأمر بالنسبة للإسلام يحتاج إلى فقه متجدد شامل، لا ينسف فقه من سبقه – مالك وأبى حنيفة – وإنما يحترم ويحتفظ بالأصول الأولى ممثلة فى الكتاب والسنة، ثم يضع فكرًا متقدمًا، لا يصلح لعصر دون سواه، وإنما يصلح لكل العصور.

هذا الفكر الجديد الذى حاوله الشافعى، كان مطلبًا ملحًّا فى ذلك الوقت الذى نضج فيه الشافعى من جهة، وأيضًا لظروف العصر من جهة أخرى. فقد كان عصرًا مزدهرًا. لأنه عصر المناظرات الفقهية، وعصر تبلور فرق الإسلام، التى كانت لها مجادلاتها، ووجهات نظرها.

عاش الشافعى ٥٤ عامًا فقط. كانت بمثابة قرون.

ومن هذه السنوات – سنوات عمره – ظل يرحل ويجادل ويتحاور ويناظر ويدرس ويقرأ ويكتب مدة ٤٥ عامًا. ثم فى أربع سنوات أو يزيد قضاها فى مصر، بلور كل ذلك فى مذهب يحمل اسمه، انتشر فى دنيا الإسلام، حتى فى تلك البلاد التى كانت تعتبر معاقل لمذهبى من سبقوه من المالكية والحنفية.

* * *

فى زاوية الخشابية فى جامع عمرو بن العاص، كان يجلس الشافعى وحوله العلماء: رجالاً ونساء على السواء، كنظام الجامعات الحديثة الآن. وكأن الشافعى كان يحس بأن عمره قصير فى مصر. ولابد من الجهد لإرساء قواعد مذهبه وتأصيله. وكأن تلاميذه كانوا يشعرون بأن الشمعة أوشكت أن تنطفئ زبالتها، فحاولوا الانتفاع بضوئها إلى آخر لحظة. ولذلك: وكما يقول تلميذه الربيع المرادى: «كان

يجلس فى حلقته إذا صلى الفجر، فيجيئه أهل القرآن فإذا طلعت الشمس: قاموا وجاء أهل الحديث. فإذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر. فإذا ارتفع الضحى تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر، فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار».

فى هذه الحلقات كان الشافعى أول من تكلم عن «القياس» ضابطًا لقواعده مبينًا أسسه. فقد كان علماء المسلمين قبل الشافعى يتكلمون فى مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعترضون، دون أن يكون لهم قانون كلى يرجع إليه فى معرفة دلائل الشريعة وكيفية معارضاتها وترجيحاتها وهنا يستنبط الشافعى، أو يضع علم «أصول الفقه» فى إطار قانون كلى يرجع إليه فى معرفة أدلة الشرع. ولذلك- وكما يقول د. أحمد الشرباصى- كان الشافعى بما جاء به يمثل دور الازدهار الفقهى فى التشريع الإسلامى. وعصر الشافعى- كما يرى الشيخ أبو زهرة- هو عصر الخصب العلمى: بل هو عصر العقل الإسلامى العربى. وبهذا فإن الشافعى- كما يقول الفخر الرازى فى كتابه «مناقب الإمام الشافعى» نسبته إلى علم الأصول، كنسبة أرسطو إلى علم المنطق ونسبة الخليل بن أحمد الفراهيـدى إلى «علم العروض».

بمعنى أن الشافعى جاء ليجدد فكر الإسلام وفقهه. وهو فى مجال التجديد، حاول إعطاء الفكر الإسلامى حقيقة وجوده، ونجح فى محاولته بعد جهد جهيد ومشقة شاقة- كما يقولون- من خلال السياحات العلمية فى أرض الإسلام فقد عاش الشافعى فى المدن والعواصم، ودرس وحفظ فكرها وعلمها، وتحاور مع علمائها، واطلع على عاداتها وتقاليدها، وساعده على ذلك أنه كان لديه حافظة غريبة قوية، وذاكرة فولاذية، وملاحظة تقترب من الفراسة.

ولقد مزج الشافعى ما شاهده، وما سمعه، وما درسه، وحفظه - بما فى ذلك فكر المالكية والحنفية- وخرج من ذلك كله بالفقه المنسوب إليه. لكن على أية حال فإن فكره لم يخرج من فراغ، وإلى فراغ، وإنما أعد كوادر من العلماء، كانوا بمثابة الدعاة النابهين. وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل، صاحب المذهب الرابع فى تاريخ المذاهب الإسلامية.

وفكر الشافعى - بالإضافة إلى عشرات الألوف من الحلقات فى المساجد- يتبلور فى ١١٣ كتابًا، وقيل فى ١٤٢ كتابًا جاءت فى التفسير والفقه ومباحث الأصول والأدب. وهذا الفقه تلقاه التلاميذ والمريدون سواء من الكتب التى ألفها وأملاها أو نسخها حتى لقد قيل: إن ما أملاه الشافعى على تلاميذه فى مصر فقط يربو على العشرين مجلدًا، وما كتبه فيها يربو على الألف وخمسين ورقة.

وفى مصر ألف الشافعى فكرا جديدا وأعاد النظر فى أغلب ما ألفه من القديم قبل أن يأتى إليها. كما أعاد تصنيفات كثيرة لكتبه أيضًا. وكما يقول السيوطى فى «حسن المحاضرة»: «وصنف بها أى مصر - كتبه الجديدة، كالأم، والأمالى الكبرى، والإملاء الصغير، والجديد، الذى كان يدرس به مذهبه فى جامع عمرو».

هذا إلى أن الشافعى أعاد فى مصر تأليف أول كتاب صدر له، وهو كتاب «الرسالة» وكان عبارة عن رسالة كتبها إلى «عبد الرحمن بن مهدى» فى بغداد عام ١٩٥ هـ. قبل أن يجيء إلى مصر ثم قام بإعادة كتابتها فى مصر، وقام بتحقيقها الأستاذ أحمد شاكر. وقيل أيضًا إن «الرسالة» أعاد الشافعى كتابتها ثمانين مرة، وفى كل مرة يزيد وينقص فيها، حتى كتب نسختها المعروفة.

«والرسالة فى أصول علم الفقه» هى فى الواقع أهم ما كتب الشافعى: لأنه دون بها أصول العلم الذى جاء ابتكارًا للشافعى. ففيها منهج عام يحدد للفقيه الطرائق التى يسلكها لاستنباط الأحكام. وقد صدر الشافعى فى ذلك النهج الذى خالف به المنهج الارسطاليسى عن فكر الإسلام ذاته. وكما يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق: «إن هذا الاتجاه يأتى بضبط الاستدلالات التفصيلية، بأصول تجمعها».

والواقع أن «الرسالة فى أصول علم الفقه» تعتبر ثانى أقدم المخطوطات فى دار الكتب المصرية، بعد مصحف عثمان إن صحت نسبته إلى الخليفة الثالث. كما يقول مصطفى منير أدهم فى كتابه «رحلة الإمام الشافعى رضى الله عنه».

على أن هناك كتبًا للشافعى ألفها ولم يعد تصنيفها، مثل : الصيام والحدود،

والرهن الصغير، والإجارة، والجنائز. ثم هناك كتابه الحجة، أو الزعفران فى ٤٠ مجلدا، وهو عن السهو فى الصلاة بالإضافة إلى كتاب السنن، وإبطال الاستحسان وجماع العلم، ثم كتاب «خلاف مالك»، الذى وضعه الشافعى كما يقول الفخر الرازى: لأنه بلغه تعصب بعض المسلمين فى الأندلس لمالك تعصبًا أعمى، وبلغه أيضًا أن هناك قلنسوة لمالك يستقى بها. وأن هؤلاء الأندلسيين حين كان يقال لهم «قال رسول الله»، يقولون: قال مالك!

ويرى الفخر الرازى أن الإمام الشافعى ساءه ذلك، فقال إن مالكا آدمى قد يخطئ ويغلط، وأراد الشافعى أن ينقده، ولكنه كره ذلك، واستخار الله فيه سنة كاملة ثم وضع الكتاب وقد جر هذا الكتاب المتاعب على الشافعى لأن المالكين فى مصر ثاروا عليه وطعنوا فيه. وسألوه كيف تضع كتابًا على مالك وهو أستاذ لك؟ فأجاب الشافعى: «إن ارسططاليس تعلم الحكمة من أفلاطون ثم خالفه. فقال ارسططاليس: أستاذى صديقى، والحق صديقى. فإذا تنازعنا فالحق أولى بالصداقة».

وهذا الموقف العلمى الصادق، الذى اتخذه الشافعى من مالك يوجد موقف شبيه له أيضًا مع الشافعى فى مصر. فقد كان الشافعى يحب محمد بن الحكم أحد تلامذته حبًّا جما يفوق الوصف، لكنه كان يرى فى تلميذه الآخر أبى يعقوب البويطى، أنه أعلم من ابن الحكم وأفقه فلما سأل المصريون الشافعى عن خليفته فى حلقته أمام ابن الحكم، تطلع ابن الحكم للشافعى، وكان يعتقد أنه سيذكر اسمه لكن الشافعى اختار البويطى، لأنه - كما قال الشافعى - الحق شىء والصداقة شىء آخر.

كان الشافعى فخرًا للعالم والفقيه الإسلامى بحق. وكان واسع الثقافة والأفق، حافظا من الطراز الأول. سندباد العلم بحق، مثله فى ذلك مثل الإمام البخارى الذى جاب الأمصار، سياحة فى الله لجمع الأحاديث.

ويقول المستشار عبد الحليم الجندى: «كان الشافعى ناصرًا للسنة وواضعًا لعلم الأصول».

ويصفه الإمام أحمد بن حنبل قائلا:

«وما علمنا المجمل من المفصل، ولا ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالسنا الشافعى. وما رأيت أحدًا أتبع لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشافعى».

بمعنى أن الشافعى لم يقم بثورة علمية، تهدم القديم. إنه كان غير ذلك، فقد كان عالمًا يعترف بأنه استفاد ممن سبقوه، ولذلك يقول أبو نعيم فى كتابه «حلية الأولياء»: كان الإمام الشافعى رضى الله عنه للآثار والسند تابعًا، وفى استنباط الأحكام والأقضية رائعًا، وبالمقاييس المبنية على الأصول قائلا، وعلى الآراء الفاسدة المخالفة للأصول عادلا»

* * *

من هو الشافعى إذن، الرجل الذى وصف بأنه حمل نصف علم الدنيا فى حياته القصيرة؟

الشافعى قطب من أقطاب الدوحة المباركة، دوحة رسول الله صلى الله عليه وسلم. يلتقى نسبه مع النبى صلى الله عليه وسلم فى جده الثالث عبد مناف، الذى هو أيضًا جد الشافعى التاسع.

والشافعى - دون بقية أصحاب المذاهب الفقهية - هو القرشى الهاشمى الوحيد. بمعنى أنه يوصف بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. أى أنه هاشمى مطلبى قرشى. واعتبر الشافعى نفسه من سلالة «ذوى القربى» الذين ناصروا الرسول صلى الله عليه وسلم، ولهم سهم فى «ذوى القربى» ولذلك فإن اسم الشافعى كاملا هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد ابن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف.

هذا من ناحية الأب..

أما من ناحية الأم، فهى تنتمى إلى قبيلة الأزد المشهورة، التى كرمها الرسول صلى الله عليه وسلم - كما يروى النووى - حيث قال الرسول عن هذه القبيلة:

«الأزد أسد الله فى الأرض، يريد الناس أن يضعوهم، ويأبى الله إلا أن يرفعهم. وليأتين على الناس زمن يقول الرجل ياليتنى كنت أزديًّا، ويا ليت أمى كانت أزدية». وقد ذكر البيهقى، أن يونس بن عبد الأعلى كان يقول: لا أعلم هاشميًّا ولدته هاشمية إلا عليًّا بن أبى طالب، ثم الشافعى رضى الله عنه». فأم الإمام على ابن أبى طالب، هى فاطمة بنت أسد بن هاشم. وجدة الشافعى هى الشفاء بنت أسد ابن هاشم.

والشافعى ولد بغزة. وأكد ذلك فيما نقله معجم ياقوت عن إحدى الروايات أنه قال: «ولدت بغزة سنة خمسين ومائة، وحملت إلى مكة وأنا ابن سنتين». ومدينة غزة المرجح أن الشافعى ولد بها، مات فيها هاشم جد الرسول عليه الصلاة والسلام، وأخوه عبد المطلب وهو جد الشافعى. وأسرة الشافعى - كما يقولون - نزحت إلى غزة - أو فلسطين - ضمن نزوح الأشراف العلويين. حيث شتتهم الاضطهادات السياسية فى الحجاز. ويقال إن الشافعى ولد فى نفس اليوم الذى مات فيه أبو حنيفة النعمان فى العراق، والمدفون فى «الرصافة» شرقى بغداد. والشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه عن الشافعى يعلق على ذلك فيقول: «إنه قيل مات فى الليلة التى توفى فيها أبو حنيفة، ليقال مات إمام، وفى ليلة موته جاء إمام».

* * *

قبل أن نغوص فى بحر الشافعى العلمى هناك حقيقة لابدّ أن تقال، - وهى حقيقة لا نقصد بها تعصبًا - إن رحلة الإمام الشافعى إلى مصر هى التى أضفت الشهرة والذيوع لفقه الشافعى، فمصر كنانة الله فى أرضه، هى على طول الأزمان صانعة الرجال الأفذاذ.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الشافعى حين جاء إلى مصر، جاءها وأمامه جبال عالية، ومذهب مستقر، هو مذهب الإمام مالك. ولكنه حين جاءها خدمته الظروف، لأن تلامذة الإمام مالك الذين استمعوا ودرسوا «الموطأ» فى المدينة المنورة، جلسوا كثيرا إلى الشافعى، وصاروا أساتذة فى التشريع والفقه. وهؤلاء التلاميذ الأساتذة عرفوا قدر الشافعى وأجلوه فى مكانه.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الشافعى خدمه أيضًا التصاقه بواحدة من أقطاب آل بيت الرسول فى مصر. وأقصد بها سيدتنا نفيسه، رضى الله عنها. فقد كان أهل مصر يلتفون حولها كالتفاف الفراش حول الضوء، وكانت هى بالإضافة إلى شريف نسبها عالمة متبحرة متصوفة. نبعًا فياضًا للإيمان القوى الصادق، ومرجعا خصبًا وثريًّا للفتوى.

لقد كان الإمام الشافعى يتردد على سيدتنا نفيسة بصفة دورية، ويستمع إليها ويصلى بها التراويح فى شهر رمضان. بل إنه – وكما ذكرنا – كان إذا مرض يرسل لها أحد تلاميذه بالسلام ويطلب دعاءها له بالشفاء.

وحين توفى الشافعى يوم الخميس من رجب سنة ٢٠٤هـ. مروا بجسده على بيت السيدة نفيسة، بناء على طلبها لضعفها عن الحركة من كثرة التهجد والعبادة. وقد صلت السيدة نفيسة، على الشافعى، مأمومة بتلميذه أبى يعقوب البويطى. وبعد الصلاة سمع من يقول: «إن الله غفر لمن صلى على الشافعى بالشافعى، وغفر للشافعى بصلاة السيدة نفيسة عليه».

وقد قيل إن السيدة نفيسة، حين سمعت بوفاة الشافعى قالت قولتها المشهورة فى الكتب : «رحمه الله، كان رجلا يحسن الوضوء». وهذه شهادة عظيمة، لأن الوضوء أساس العبادة. وإذا كان الأساس حسنًا، فكل ما يبنى عليه هو حسن، فكأنها شهدت بأن الشافعى كان حسن الاجتهاد، صادقه، وأن فقه الشافعى كان جديدًا نافعًا. وهذه شهادة يعتز بها من عالمة متصوفة، وجوهرة من كنوز آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مصر.

* * *

الشافعى رضى الله عنه كان سوّاحًا. كان سندباد علم ومعرفة – إن صح هذا التعبير – منذ عامه الثانى. ولمدة ٤٨ عامًا. بعد ذلك ظل الشافعى لا يهدأ له قرار، سائحًا فى سبيل العلم، ولم يستقر سوى سنوات أربع ونصف قضاها فى مصر.

ورحلة الشافعى، كانت رحلة مثيرة حقًّا. كلها من أجل تحصيل العلم والمعرفة.

من فلسطين إلى مكة المكرمة. ومنها إلى المدينة المنورة، ثم إلى بغداد، واليمن والرقة وما بين النهرين وجنوب آسيا الصغرى والشام ومصر.

وفى كل هذه البلاد كان اللقاء والاحتكاك والحوار والمناظرات والتهام العلم والمعرفة.

ورحلات الإمام الشافعى دعمتها شخصيته فكما يقول الشافعى: «لقد كانت همتى وأنا صغير فى الرمى، ولذتى فى العلم». وكانت له حافظة قوية غريبة مثل البخارى، حتى لقد قيل عن الشافعى، إنه «إذا جىء له بالجبال صحفًا لحفظها». ولذلك، فهو فى سن الصبا ـ ١٥ سنة ـ كان قد أتمَّ فى مكة المكرمة حفظ الحديث وعلوم القرآن، وغيرها من مختلف علوم ذلك الزمان، لدرجة أنه فى هذه السن كان يجلس على كرسيه فى المسجد الحرام، ويفقه الناس فى دينهم، بعد أن أذن له شيخ الحرم مسلم بن خالد الزنجى.

والدليل على ذلك أن الإمام أحمد بن حنبل، جاء فى تلك الفترة إلى مكة للحج، ومعه صاحباه إسحق ويحيى، فوجدوا الشافعى يقرأ للناس. فقال إسحق لابن حنبل: بالله سله عن معنى قول النبى «صلى الله عليه وسلم»: «أمكنوا الطيور فى أوكارها» فرد عليه ابن حنبل يقول: هذا معلوم، أعنى دعوا الطيور فى ظلمة الليل فى أوكارها.

لكن إسحق لم يقتنع بتفسير ابن حنبل، والتفت إلى الشافعى، وقال له: يا مطلبى، ما تفسير هذا الحديث النبوى؟

هنا يقول الشافعى بهدوء العلماء الواثقين: «كان أهل الجاهلية إذا أرادوا سفرًا، أخرجوا الطيور من أوكارها، فإن أخذت يمينًا أو إلى الأمام، استحسنوا ذلك الفأل وسافروا. وإن أخذت شمالا أو رجعت للخلف تطيروا ورجعوا عن السفر. فلما جاء النبى نهى عن ذلك وقال: «أمكنوا الطيور فى أوكارها، وبكروا على اسم الله تعالى».

وهنا يقول إسحق لابن حنبل «والله لو لم نأت من العراق إلى الحجاز إلا لطلب

تفسير هذا الحديث لكفى. إننى ما رأيت أحدا أفقه فى كتاب الله من هذا الفتى القرشى».

وللشافعى مع ابن حنبل روايات وروايات. ويكفى الشافعى فخرًا أن ابن حنبل كان يعتبر نفسه تلميذًا له. فقد قال فيه «لقد كان للفقه قفلا ففتحه الله بالشافعى». ثم شهد له ابن حنبل، فقال «ما أعلم أحدًا أعظم منه على الإسلام فى زمن الشافعى من الشافعى. وإنى لأدعو الله فى أدبار صلواتى، فأقول: اللهم اغفر لى ولوالدى ولمحمد بن إدريس الشافعى».

بل إنه يروى أن نجل أحمد بن حنبل سأل والده عن الشافعى، فقال له: «إنه كان كالشمس للدنيا والعافية للبدن. فانظر يا بنى هل من هذين خلف، أو عنهما من عوض ؟!».

وقد روى ابن حنبل عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، أنه قال: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد دينها». وقد فسر ابن حنبل ذلك، فقال: «نظرنا إلى رأس المائة الأولى، فإذا هو الشافعى». وفى قول آخر لابن حنبل «وأرجو أن يكون الشافعى رأس المائة الثانية».

* * *

الإمام الشافعى رضى الله عنه تتلمذ على الكثيرين. وهو أيضًا أستاذ لكثيرين.

كان أول أساتذته مسلم بن خالد الزنجى، مفتى الحرم المكى الشريف.

وثانى من تتلمذ عليهم هو الإمام مالك فى المدينة المنورة. وكانت له قصة ذكرها بتفصيل الفخر الرازى فى كتابه «مناقب الإمام الشافعى»، ملخصها: أنه لفت نظر الأستاذ حين ذهب إليه من مكة حافظًا «للموطأ». مما جعل الأستاذ يستضيفه، ويستعين به فى إلقاء الدروس، وإملاء «الموطأ» على المريدين من علماء الأمصار الإسلامية. وألقى عليه الإمام مالك موعظة حفظها الشافعى فى قلبه طول حياته، حين قال له: «يا محمد، إن الله تعالى قد ألقى على قلبك نورًا فلا تطفئه بالمعصية، واتق الله فإنه سيكون لك شأن».

على أن الشافعى قبل أن يذهب لمالك من مكة إلى المدينة، كان قد سلح نفسه بالكثير. فقد تربى الشافعى تربية عربية خالصة، بل إنه فى مكة قضى عشر سنوات من عمره الحافل فى بادية مكة فى شعب الخف، وسط بنى أسد، المعروفين بأنهم كانوا من أفصح العرب. وهناك درس شعر الهذليين وأتقنه وحفظه حتى أن الأصمعى قال يومًا «صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس». وقال ابن هشام النحوى المعروف: «طالت مجالستنا للشافعى فيما سمعت منه لحنة قط، ولا كلمة غيرها أحسن منها».

والواقع أن الشافعى كان أديبًا كبيرًا، بجانب أنه فقيه لا يبارى.

يقول أحمد أمين فى كتابه «ضحى الإسلام»: «يعرف الناس كلهم الشافعى الفقيه، ولكن قلما يعرفون الشافعى الأديب. وتظهر فصاحة الشافعى فى كتاب «الأم»، أكثر ما تظهر. لكن ربما منع الشافعى من الاشتغال بالأدب ـ خاصة الشعر ـ هو أن الاشتغال بالفقه والإمعان فيه كما يرى ابن خلدون يضعف الملكة الشعرية والملكة البلاغية. وربما أيضًا الذى منعه من الاشتغال بالشعر، أنه كما يرى أن الشعر يزرى بالفقه، فلم يطاوع فى شعره نفسه».

والذى أريد أن أقوله هنا: إن الشافعى قد تمكن من الأدب ليطوعه فى خدمة هدفه ورسالته فى أصول الفقه. فقد كان قوى الحجة وقد بلغت قوة حجته وإقناعه، أنها افتدت روحه. فقد حاج هارون الرشيد وعلماء بغداد من حوله، حتى فك أسره وعفا عنه. ثم إن الشافعى مع قوة حجته وبلاغته كان جميل الصوت.

* * *

إلى المدينة المنورة كانت أولى رحلات الشافعى، حيث صار التلميذ أستاذًا، بعد أن وثق فيه الإمام مالك، حتى أن الأخير ـ كما قلنا ـ استضافه ثمانية أشهر، وجعله يعطى «الموطأ» للشافعى ليمليه على الناس ليكتبوه، بدل أن يقرأه مالك عليهم.

بل إن الشافعى فى المدينة المنورة ـ كما يقول مصطفى منير أدهم فى كتابه «رحلة الإمام الشافعى رضى الله عنه إلى مصر» ـ بدأ يتعرف على المصريين الذين مالت

قلوبهم إليه. ومن هؤلاء عبد الله بن عبد الحكم، وأشهب، والليث بن سعد، حتى أن الشافعى حين جاء مصر بعد ذلك كان ابن عبد الحكم أعظم نصير له.

كما أنه فى المدينة المنورة تعرف الشافعى على علماء العراق، وحدثوه عن علماء العراق، من أمثال محمد بن الحسن، وأبى يوسف صاحبى الإمام أبى حنيفة، بالإضافة إلى الإمام وكيع وغيره، مما جعل الشافعى يشتاق، ويصمم على الذهاب إلى بغداد.

وكانت رحلة الشافعى إلى العراق معقل فقه أبى حنيفة، هى الرحلة الثانية الهامة، أو المنعطف الثانى. فقد ذهب أولا إلى الكوفة، وقصد أول ما قصد مسجد على بن أبى طالب فى ظاهر الكوفة، وقت العصر.

ومن هذا المسجد، كان لقاؤه بعلماء العراق. فقد شاهد غلامًا يصلى، فلم تعجب الشافعى صلاته، فقام لينصحه، لكن الفتى لم ينتصح، وقال: أنا أصلى هكذا خمس عشرة سنة بين يدى أبى يوسف وابن الحسن صاحبى الإمام أبى حنيفة، فما عابا علىّ شيئًا، وأنت تعيبها؟! ونهض الفتى خارجًا غضبان، فتصادف أن رأى عند باب المسجد أبا يوسف ومحمد بن الحسن، والأخير مدون فقه أبى حنيفة، فروى الغلام لهما الحكاية فقالا له: اذهب إلى الرجل، وقل له بم تدخل الصلاة. فذهب الغلام للشافعى وسأله فأجابه قائلا: «إنى أدخل الصلاة بفرضين وسنة، أما الفرضان فهما النية والتكبيرة، وأما السنة فهى رفع اليدين».

ويتعارف الشافعى على أبى يوسف وابن الحسن ـ أكبر عالمين فى الكوفة وقتئذ ـ بعد أن عرفا أنه تلميذ مالك وسألاه فى «الموطأ». فأجاب كما تنبغى الإجابة، وهنا يستضيفه محمد بن الحسن فى داره ويفتح له مكتبته، ويقرأ «الكتاب الأوسط» للإمام أبى حنيفة، فيحفظه الشافعى فى وقت قياسى، كما فعل ذلك مع موطأ مالك. ثم إن الشافعى نسخ الكثير مما فى مكتبة ابن الحسن.

هذه الرحلة إلى العراق، أفادت الشافعى كثيرًا فى واقع الأمر، فقد كان فقه الحجاز غير فقه العراق بالطبع. لكن الشافعى لم يكتف بالكوفة، بل ساح، فى هذه

الرحلة التى استمرت حوالى سنتين من ١٧٢ هـ إلى ١٧٤ هـ، فى بلاد فارس وما حولها، ثم إلى ديار ربيعة ومصر، ومنها إلى شمال العراق حتى وصل إلى الأناضول، وعرج إلى حران، ثم إلى فلسطين والرملة بالذات، ليعود بعد ذلك إلى المدينة المنورة، حيث بقى هناك ـ وقيل فى مكة ـ تسع سنوات، كانت من أصعب سنواته العلمية. وكان فكره يتجه ـ فى هذه الفترة ـ إلى الكليات أكثر من الفروع. وفى هذه الفترة كذلك، قيل إنه تزوج من السيدة حميدة بنت نافع، حفيدة عثمان بن عفان، ورزق منها ابنه «أبو عثمان محمد» وابنتيه فاطمة وزينب. وابنه الوحيد هذا، ارتقى فى المناصب ـ فيما بعد ـ حتى صار قاضيًا لمدينة حلب. ويقال أيضًا إنه فى هذه الفترة مات مالك عام ١٧٩ هـ، والشافعى فى حوالى الثلاثين من عمره.

* * *

من الحجاز ذهب الشافعى إلى اليمن، حيث عاش فى صنعاء، يفتى الناس. ويلازم الإمام يحيى بن حسان صاحب الإمام الليث الذى كان قد توفى عام ١٧٥ هـ، فى مصر وظل الشافعى هناك يعلم ويتعلم العلوم الخاصة ببلاد اليمن ومنها الفراسة.

وقد كان تقدم الشافعى فى اليمن، ومكانته عند واليها وناسها، وعلو قدره فى العلوم والمعارف، سواء أكانت رياضية أم فلسفية أم طبية أم فلكية، أقول كان تقدمه وعلو كعبه سببًا فى الحقد عليه، حتى وشوا فى حقه لدى هارون الرشيد، واتهموه برئاسة حزب العلويين فى اليمن، وأنه يدعو إلى عبد الله بن الحسن.

وقد اهتم الخليفة العباسى بهذا الأمر، وأرسل أحد قادته إلى اليمن على وجه السرعة ليبحث الأمر. وأرسل القائد للرشيد بكتاب عاجل أيضًا يقول عن الشافعى: «إنه يعمل بلسانه ما لا يقدر المقاتل عليه بساقه وسنانه، وإن أردت يا أمير المؤمنين أن تبقى الحجاز عليك، فاحمله إليك».

وكان أن حمل الشافعى عام ١٨٤ هـ. إلى بغداد مكبلا بالحديد مع تسعة من العلويين. وأحضروا بين يدى الرشيد، الذى كان جالسًا من وراء ستار. وقدم التسعة واحدًا إثر واحد، وكلهم أمر الرشيد بقطع رءوسهم. كل ذلك والشافعى

جالس بالباب يدعو ربه بدعائه المشهور عنه «اللهم يالطيف، أسألك اللطف فيما جرت به المقادير».

وهنا تظهر بلاغة الشافعى أمام الرشيد فى لقاء تاريخى، ليس هنا مجال لذكر تفصيلاته. وإنما نقول: إن الرشيد حين طرح التهمة على الشافعى طلب منه أن يفك قيوده ليتكلم. وكان أن تكلم الشافعى حتى تهلل وجه الرشيد. وتحولت المحاكمة إلى مناظرة علمية بين الشافعى وبين العلماء والجالسين فى رحاب أمير المؤمنين، حيث أفحم الشافعى الجميع فى كل ما سألوه من علوم، لدرجة أن الرشيد قال له فى نهاية المحاكمة أو المناظرة: «عظنى ياشافعى». وقد وعظه الشافعى وعظًا تصعدت له القلوب فى الصدور، حتى بكى الرشيد بكاءً شديدًا، وأمر للشافعى بألفى دينار، لكنه رفضها من الخليفة قائلا: «كلا والله يا أمير المؤمنين، لا يرانى الله عز وجل، وقد سودت وجه موعظتى بقبول الجزاء عنها». وقال الرشيد معلقًا: «ألا إن بنى المطلب ما فارقوا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فى شرف ولا فى سخاوة».

فى بغداد أيضًا أقام الشافعى يجالس علماءها ويحضر عليهم، كالإمام وكيع ابن الجراح، وأبى أسامة وغيرهما، وأتم الشافعى أيضًا تأليف كتابه القديم، وأقبلت عليه الناس وصارت حلقته أكبر الحلقات، مما أوغر صدر البعض، فاتفقوا على أن يضعوا له عدة مسائل فقهية على شكل ألغاز، وحضر الرشيد المناظرة، وكان الشافعى رائعًا. أجاب على كل مسألة، مما جعل الرشيد يثنى عليه، ويقول له: «وأكثر الله فى أهلى مثلك».

وحاول الرشيد تكريمه، وأراد أن يوليه قضاء اليمن، لكن الشافعى رفض بأدب.

ومنذ ذلك الوقت صار الشافعى فى بغداد موضع إكرام أمرائها وعلمائها، لدرجة أنهم يذكرون أن الإمام أحمد بن حنبل مرض، فعاده الشافعى فى بيته، فنزل ابن حنبل من سريره وأجلس الشافعى مكانه، بينما جلس هو على الأرض يسائله ساعة. ولما أراد الشافعى الانصراف، أركبه ابن حنبل دابته، ومشى تحت ركابه وهو مريض، مخترقًا شوارع بغداد وأسواقها حتى أوصل الشافعى إلى مقره.

وقد بلغ ذلك يحيى بن معين، من علماء بغداد الكبار، فقال لابن حنبل مستنكرًا: «يـا أبا عبـد الله، يـاسبحـان الله، اضـطرك الأمـر إلى أن تمشى بجـانب بغلة الشافعى؟!». فرد عليه ابن حنبل: يا أبا زكريا لو مشيت أنت من الجانب الآخر لانتفعت به».

كما أنه فى بغداد أيضًا، وضع الشافعى كتابه «الزعفران» نسبة للشاب الذى أخطأ فى الصلاة، وضعه فى ٤٠ مجلدًا، وقد عرف الكتاب «بالحجة»، وهـو أحد الكتب القديمة التى وضعها الشافعى فى العراق.

ومن بغداد عاد الشافعى إلى مكة، عام ١٨١ هـ. وخرج إليه أهلها يستقبلونه. وأقام الشافعى فى مكة ١٧ سنة، مات خلالها الإمام أبو يوسف ١٨٢ هـ. وبعده محمد ابن الحسن ١٨٨ هـ. ثم مات الرشيد ١٩٨ هـ. وخلفه المأمون، الذى اشتهر بحبه للعلويين وحنوه عليهم.

ثم يسافر الشافعى إلى بغداد للمرة الثانية عام ١٩٥ هـ. ويسافر إليها مرة ثالثة عام ١٩٨ هـ. لكنه فى المرة الأخيرة بقى فيها شهرًا واحدًا، ألقى بها دروسه فى الجامع الغربى، وكانت حلقات العلماء فى هذا الجامع تربو على العشرين، فضارت ثلاثة فقط، لأن باقى الحلقات انضمت إلى حلقة الشافعى.

وتصادف فى ذلك الوقت أن غضب المأمون على عامله فى مصر وهو المطلب ابن عبد الله، فعزله وولى مكانه العباس بن موسى، فذهب الشافعى مع الأخير إلى مصر، بعد أن خـرجت بغداد لـوداعه، وكـان على رأس مـودعيه الإمـام أحمد ابن حنبـل، الذى بكى لفـراقه. ورافق الشـافعى إلى مصـر كـل من الـربيـع ابن سليمان المرادى، وعبد الله بن الزبير الحميدى.

ودخل الشافعى مصر فى ٢٨ شوال سنة ١٩٩ هـ. مع الوالى العباسى، الذى أراد أن ينزله فى داره، لكنه اعتذر ونزل عند أهله من بنى أزد.

وفى صباح اليوم التالى، دخل عبد الله بن عبد الحكم على الشافعى، وكان من كبار علماء مصر وأعيانها وممن أملى عليهم الشافعى «الموطأ» فى المدينة المنورة،

فرآه مخضبًا شعره بالحمرة، طويل القامة جهورى الصوت، كلامه حجة فى اللغة، عليه دلائل الشجاعة والفراسة، قليل لحم الوجه، مستطيل الخدين، طويل العنق، طويل عظم العضد والساعد والفخذ والساق.

وقد وضع عبد الله بن عبد الحكم تحت يدى الشافعى أربعة آلاف دينار، منها ألف دينار من عنده، والباقى من عند أعيان مصر وتجارها.

ومنذ ذلك الوقت أقام الشافعى فى مصر خمس سنوات وتسعة أشهر من ٢٨ شوال سنة ١٩٩ هـ. إلى ٢٩ رجب سنة ٢٠٤ هـ. يعلم الناس ويؤلف كتبه الجديدة، وينشر مذهبه بين الناس، حتى لاقى وجه ربه راضيًا مرضيًّا.

* * *

من خلال كتبه نجد الكثير من التغنى بالعرب وقريش بالذات وفضلها، وفى كتاب «الأم» روى الكثير من الأحاديث فى فضل قريش. ويرى أن الخلافة تكون فيها بالبيعة، إلا إذا دعت الضرورة، فإنها تقوم بغير بيعة. فلو تغلب أحد بالقوة وأجمع الناس عليه، جازت إمامته. والشافعى هنا يقترب من المالكية فى هذا الرأى. بينما يخالف مذهب أبى حنيفة الذى يميل إلى الشورى، ويرى أن الخلافة من حق المسلمين جميعًا، لو توفر إجماع جمهرة المسلمين أو أهل الحل والعقد منهم.

ونحن قد ذكرنا هذا الرأى كمثال، لأن الاتفاق مع المالكية والاختلاف مع الحنفية فى الآراء السياسية كثير، ليس هنا مجاله.

لكن الذى يذكر هنا، أن الشافعى كان عربيًّا متحمسًا بالحجة والدليل، وليس بإلقاء الرأى على عواهنه. ولأن الشافعى عربى قرشى فقد رتب على عربية القرآن – كما يقول المستشار عبد الحليم الجندى – فرضية تعلم اللغة العربية على كل مسلم ليشهد الشهادتين، بمعنى أن الشافعى رفع العربية إلى مستوى الدين فى الإسلام، ثم رفع العرب درجات، فقال: «وأولى الناس بالفضل فى اللسان من لسانه – لسان النبى صلى الله عليه وسلم – ولا يجوز، والله أعلم، أن يكون أهل لسانه اتباعًا لأهل لسان غير لسانه فى حرف واحد، بل كل لسان تبع لسانه».

والواقع أن الشافعى كان منعطفًا كبيرًا فى تاريخ الإسلام الفقهى. لكن يكفيه أن يكون هو ذلك العالم المسلم الذى شغل الدنيا، ولا يزال يشغلها حتى الآن.

ويكفى أن نقول هنا: إن أقوال الشافعى وآراءه فى كتبه القديمة والجديدة، فى العراق ومصر، وفى غيرها، صارت متنازعة آراؤها، واختلف العلماء فيها، بل اختلفت فيها الترميات والتصحيحات.

والذى يمكن أن يقال إن مذهب الشافعى انتشر أكثر من مذهب الأئمة الثلاثة الآخرين فى كثير من بلاد الإسلام وهذا إن دل على شىء، فإنما يدل على عظمة ما جاء به الشافعى. إن مذهب الشافعى بعد مقامه فى مصر وتبلوره، انتشر فى العراق، وبلاد خراسان، والشام، واليمن، وبلاد ما وراء النهر، وفارس، والحجاز، والهند. كما تسرب إلى بعض بلاد شمال أفريقية. ثم، وكما يقول الشيخ محمد أبو زهرة، انتشر فى الأندلس بعد عام ٣٠٠هـ. وهذا الرأى الأخير استقاه الشيخ أبو زهرة نقلا عن كتاب «الفوائد البهية».

ويؤكد ذلك ما يقوله ابن خلدون فى مقدمته: «أما الشافعى فمقلدوه بمصر أكثر من سواها». وقد انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وما وراء النهر. وقاسموا الحنفية فى الفتوى والتدريس فى جميع الأمصار وعظمت مجال المناظرات بينهم، وجاء فى طبقات ابن السبكى عن مصر والشام بالنسبة لمذهب الشافعى: «هذان الإقليمان مركز ملك الشافعية منذ ظهر مذهب الشافعى. اليد العالية لأصحابه فى هذه البلاد لا يكون القضاء والخطابة فى غيرهم».

وقد ظلت مصر، منذ القرن الثالث الهجرى، مزدهرًا فيها مذهب الإمام الشافعى، كما يقول ابن خلدون، حتى جاءت الدولة الفاطمية، فأبطلت العمل بالسنة على وجه العموم، وجعلت العمل على مقتضى مذهب الشيعة الإمامية. لكن ما إن جاء الأيوبيون حتى رجع إلى مصر فقه الشافعى. ولما خلفت دولة المماليك البحرية، دولة الأيوبيين، لم تنقص المذهب الشافعى خطوة واحدة. فقد كان سلاطينها من الشافعيين باستثناء سيف الدين قطز الذى كان حنفيًّا، وإن كان

السيوفى فى «حسن المحاضرة» يقول: إنه لم يكن بدولة المماليك البحرية سوى شافعى فقط. وكان القضاء فى عهدهم - كما كان فى عهد الأيوبيين - على المذهب الشافعى، إلى أن أحدث الظاهر بيبرس فكرة أن يكون بمصر قضاة أربعة، كل قاض يعمل ويتحدث بما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفسطاط، ينصب النواب ويجلس الشهود. ومع ذلك، ظل مكان الشافعى أعلى من سائر الأئمة، ثم يليه المالكى فالحنبلى.

واستمرت الحال كذلك فى دولة المماليك الجركسية، حتى استولى العثمانيون على مصر.. فحصروا القضاء فى المذهب الحنفى، لأنه مذهبهم. ولم يزل الأمر كذلك حتى الآن، بيد أنه - وكما يقول الشيخ أبو زهرة - قد أخذ الاقتباس من المذاهب الأخرى فى الأحوال الشخصية أو الوقف، والمواريث والوصايا، وهى المسائل التى بقى القضاء فيها على مقتضى أحكام الشريعة الإسلامية دون سواها.

ويعلق الشيخ أبو زهرة فى كتابه «الشافعى» قائلا:

«وإذا كان المذهب الشافعى قد فقد مكانته الرسمية فى الدولة، فقد بقيت له منزلته فى الشعب المصرى. فإنه هو والمذهب المالكى، قد تغلغلا فى نفس الشعب، حتى أنه يتدين فى عبادته على مقتضى هذين المذهبين فى ريف مصر وقراها إلى يومنا هذا. فالناس فى ريف مصر، فى عباداتهم يختارون بين هذين المذهبين. فالمالكى أغلب فى صعيد مصر. والشافعى أغلب فى الوجه البحرى».

* * *

ونأتى إلى قبة الإمام الشافعى، والتى تعتبر من أقدم آثار دولة الأيوبيين فى مصر.

فحين توفى الشافعى، دفن فى تربة أولاد ابن عبد الحكم، بالقرافة الصغرى، ووسط قبورهم. وقد ظل قبر الشافعى موضع تكريم العلماء والزوار، يقصدونه لقراءة الفاتحة على روحه، والتبرك به، حتى عنى بنشر مذهبه السلطان صلاح الدين الأيوبى، وبعد حوالى أكثر من ثلاثة قرون ونصف من تاريخ دفن الشافعى. ولذلك فإنه فى عام ٥٧٢ هـ. «١١٧٦م» بنى صلاح الدين مقبرة الشافعى، وأقام عليها

تابوتًا خشبيًا، فرغ العمل منه سنة ٥٧٤هـ. وفى نفس هذا العام شرع صلاح الدين فى بناء المدرسة الصلاحية بجوار قبر الشافعى. وفرغ منها بعد عام وقد عرفت هذه المدرسة بـ«تاج المدارس» وصارت معقلا لنشر مذهب الشافعى، وتدريس فقهه، ثم تحولت إلى مسجد.

وقبة الشافعى تولاها بالرعاية كثير من الأمراء والسلاطين.

تولاها بالرعاية السلطان قايتباى. كما جددها الأمير عبد الرحمن كتخدا فى ١١٧٦ هـ. وأنشأ سبيلا على يسار باب القبة. كما نقش على أعتاب باب المسجد الذى جدده محل المدرسة الصلاحية يقول:

مسجــد الشـافعى بحــر علوم   أشــرقت شمسـه بنــور محمـد

وعلى عتب آخر:

أكرم به من مسجـد مصباحـه   كنز الهدى المولى الهمام الشافعى

وقد جدد القبة أيضًا السلطان الغورى، وسجل عليها ما نصه: «أمر بتجديد هذه القبة المباركة السلطان قانصوه الغورى».

وتوالى الاهتمام بقبة الشافعى ومسجده.

ففى سنة ١١٨٧ هـ غير على بك الكبير الميضأة، وجعلها على شكل مستطيل ووسعها. كما قام بتغيير رصاص القبة برصاص جديد. ونقش القبة باللازورد، وموهها بالذهب.

كما أمر محمد على باشا فى سنة ١٢٣٠ هـ أن يساق الماء من القلعة إلى مسجد الشافعى، ومد ابنه إسماعيل باشا الأنابيب لمسجد الشافعى عام ١٢٨٧هـ.

وفى عام ١٣٠٣ هـ تهرأت جدران المسجد، الذى جدده قايتباى، فأمر توفيق باشا بتجديد المسجد وتوسيعه. وكان أن جددت وزارة الأوقاف المسجد عام ١٨٩١م «١٣٠٩هـ» ليأخذ شكله الموجود عليه الآن. وهو مسجد جميل بنيت واجهاته بالحجر، وله منارة رشيقة عملت على مثال المنارات المملوكية، ومنبره مطعم

بالسن والأبنوس، وكان الفراغ سنة ١٣١٠هـ «١٨٩٢م».

وقد بقى الآن من عمارة صلاح الدين الأولى ـ كما يقول الأثرى حسن عبد الوهاب ـ تابوت قبر الشافعى، وهو تابوت من الخشب، مستطيل الشكل، غطاؤه هرمى، حافل بالنقوش والكتابات الكوفية والنسخية، وجميع وجوه هذا التابوت، مكونة من أطباق عربية كبيرة منقوشة بزخارف بنائية دقيقة، من غصون مفرغة، وأوراق مفرقة فى مجموعات متماثلة، تتخللها أشكال نجمية ومسدسة.

ومن أهم الكتابات على التابوت، ذلك النص المشتمل على تاريخ صناعته، واسم الصانع عبيد النبى، المعروف بابن معالى، وتاريخه عام ٥٧٤ هـ. بالإضافة إلى العمود الرخامى المشتمل على اسم الشافعى ونسبه وتاريخ وفاته. وهذا العمود وجد مطمورًا، وواضح فيه أنه كتب للمرة الثانية، إذ أن وجهه الآخر مكتوب بالخط الكوفى، بنص آخر. ويسبق هذين النصين، نص أقدم كان على بلاطة قبل العمود، قرأه الحسن بن رشيق. وفى البلاطة نسب الشافعى وتاريخ وفاته، بأسلوب شواهد القرن الثالث الهجرى.

وقد دفن بجوار قبر الشافعى، من أسرة صلاح الدين. زوجته وابنه العزيز عثمان، وأم الملك الكامل ابن الخليفة العادل، والتى كانت سببًا فى إنشاء القبة الحالية، كما دفنت الأم هناك ودون تاريخ إنشاء القبة عليها فى ٧ جمادى الأولى سنة ٦٠٨ هـ. وكذلك يوجد تحت القبر قبر يقال إنه لأحد أولاد ابن عبد الحكم.

والمرجح كما تقول د. سعاد ماهر أن والدة أم الملك الكامل هى المنشئة للقبة، ثم أكملت بعد وفاتها. وهناك على قبرها تابوت خشبى لا يقل أهمية فى صناعته وأثريته عن تابوت الإمام الشافعى، فهو آية فى الدقة والجمال، كما يصفه الأثرى حسن عبد الوهاب.

* * *

وقبة الإمام الشافعى تعتبر من أقدم القباب الخشبية، وأجملها فى مصر، وقد كسيت جدرانها الداخلية بالرخام، كما كسيت جدرانها الخارجية بالرصاص. وفى

جدار القبة الشرقى محاريب ثلاثة طواقيها خشبية، ثم محراب رابع حديث انشىء لتصويب اتجاه القبلة. وقام بإصلاح الوزرة الرخامية السلطان قايتباى.

ويحيط بمربع القبة إفريز خشبى عليه نقوش بارزة، كما يحيط بها إفريز خشبى آخر محفور عليه بالخط الكوفى الأندلسى آية الكرسى. أما باقى زخارف القبة، فإنه من أثر عمارة على بك الكبير، حيث جدد أخشاب القبة، وجدد كسوتها الرصاصية. ونجارة الشباك تعتبر من أنواع النجارة الدقيقة، والتى تتفق ونجارة تابوت أم الملك الكامل. ومثلها باب القبة المكون من مصراعين ومكتوب عليه أبيات تقول:

الشـــافعى إمـام النـــاس كلهم　　فى العلم والحلم والعلماء والبأس
أصحابه خير أصحاب، ومـذهبه　　خير المذاهب عند الله والناس

ومما يذكر هنا أن إدارة حفظ الآثار العربية، منذ حوالى أربعين عامًا، قد اكتشفت فى القبة عند الكشف عن أخشابها، وإزالة جزء من رصاصها أنها كانت مكسوة بالقاشانى الأخضر.

على أن الذى يميز قبة الشافعى، مركب كبير فى أعلاها من الخارج، أو كما يسمى «العشارى» تتدلى منه سلسلة حديدية، فى طرفها الآخر «الهلال». ويقال إن العشارى كان لوضع الحبوب للطيور. وهذا مما يصعب تصديقه، فهذا المركب يعود تاريخه إلى تاريخ إنشاء القبة، ويؤكد ذلك أن الإمام البوصيرى صاحب «البردة» المتوفى سنة ٦٩٥هـ. «١٢٩٥م» عاين القبة والعشارى، وأنشد فيها هذه الأبيات:

بقبــة قـبر الشـــافعى سفينــة　　رست فى بناء محكم فوق جلمود
وقد غاض طوفان العلوم بقبره　　ثوى الفلك من ذاك الضريـح

وقد تبع البوصيرى، شعراء القرن الثامن والتاسع الهجريين «١٤ و ١٥ الميلاديين». ومن يقرأ بعض هذه الأشعار، يستنتج أن هذا المركب، أو هذا «العشارى» كان يرمز لعلم الشافعى، لأنه كان رحمه الله عليه بحر زاخر من العلوم.

لكن هناك تساؤل: لماذا اهتمام الأيوبيين بالشافعى وبقبته بالذات.

البعض يقول: إن سبب هذا الاهتمام، إنه فى عام ٤٧٤ هـ بنى الوزير نظام الملك فى بغداد المدرسة التى عرفت به، وهى المدرسة النظامية. وقد أراد هذا الوزير نقل رفات الشافعى إلى بغداد لدفنها والتبرك بها هناك، وأرسل نظام الملك هدية إلى بدر الجمالى، وزير الخليفة المستنصر الفاطمى. وبالفعل استصدر بدر الجمالى مرسومًا بموافقة الخليفة على ذلك.

ولما علم أهل مصر بذلك، هاجوا وماجوا واحتجوا، وكادوا يرمون بدر الجمالى بالحجارة.

وهنا أمام هذا التيار الجارف يتحدى بدر الجمالى الجماهير ويجمع الجند، ويضرب نطاقًا حول قبر الشافعى. ثم يحضر العمال والفعلة، ويبدءون العمل. حتى إذا ما وصلوا إلى اللحد، خرجت رائحة من قبر الشافعى أسكرت العمال. فلما أفاقوا، استغفروا ربهم، ورفضوا العمل.

وهنا أمر بدر الجمالى بإعادة ردم القبر كما كان. وكتب محضرًا بذلك. ووقع عليه هو والحاضرون، ثم رفعه للخليفة، الذى أمر بدوره أن يرسل نسخة من المحضر مع الهدية إلى نظام الملك فى بغداد.

ويقرأ نظام الملك المحضر على أهالى عاصمة الرشيد، ويأمر بإرسال نسخ منه إلى باقى البلاد، فارتفع بذلك صيت الشافعى بين الناس، وتمذهب بمذهبه خلق كثير.

وفى مصر ـ بعد الذى حدث ـ لازم أهلها قبر الشافعى أربعين يومًا بلياليها. وكان الزائر لا يصل إلى القبة إلا بشق النفس من كثرة الزحام.

تسع عقبات لابد لك من اجتيازها، لكى تدخل فى طريقته ومن أجل أن تعيش صافى الذهن والقلب مطيعًا لربك. مؤملا أن تدخل جناته، يوم الحشر العظيم. حيث لا مال ولا ولد ينفعك. ولكن قلبك السليم وأعمالك هى التى تكون مقياس الحكم عليك، وهى التى يمكن أن ترجح كفة أعمالك الحسنة.

والعقبات التسع هى: لا تتعلق بالدنيا، وراع الإحسان فى العمل، وابعد النفس عن الشح بالعطاء، واستمر فى ذكر الله، ولا تغفل عن القيام بالليل، ولا تكن سيئ الخلق فى المعاملة، واصبر على تحمل الأذى، ولازم الصدق دائمًا. وأخيرًا كن صافى القلب حسن الوفاء، حافظًا للعهود.

هذه درجات لا بد منها، لكى تصبح مسلمًا مؤمنًا كما حدد ذلك القطب الصوفى النبوى وواحد من آل بيت رسول الله ﷺ سيدى أحمد البدوى.

* * *

ويفصل السيد البدوى ذلك، من خلال ما قاله لتلميذه وخليفته عبد العال المدفون بالقرب منه. وعبد العال هو أول الرجال الذين التزموا، وساروا على الدرب، من بين الرجال الذين جاهد السيد البدوى، فى تربيتهم ليكونوا مؤمنين مجاهدين.. بعد أن جعل من طنطا قلعة صلاح وإيمان.

والواقع أن وصايا السيد البدوى، لم تكن لعبد العال وحده، بل هى وصايا لكل المؤمنين، وهى ليست للطريقة السطوحية وحدها - حيث أتباع السيد البدوى - بل

هى طريقة لكل مسلم. وهى ليست ابتداع السيد، وإنما هى اجتهاد وتوفر على دراسة القرآن الكريم والسنة.

يقول السيد لأول تلامذته عبد العال:

«يا عبد العال، إياك وحب الدنيا، فإنه يفسد العمل الصالح، واعلم أن الله يقول: «إن الله مع الذين اتقوا، والذين هم محسنون». ويا عبد العال، اشفق على اليتيم، واكس العريان، واطعم الجوعان واكرم الغريب والضيفان، عسى أن تكون عند الله من المقبولين. واعلم أن كل ركعة بالليل، خير من ألف ركعة بالنهار. لا تشمت بمصيبة أحد، ولا تنطق بغيبة أو نميمة، ولا تؤذ من يؤذيك واعف عمن ظلمك، واعط من حرمك، واحسن إلى من أساء إليك. وأحسنكم أخلاقًا أكثركم إيمانًا».

هذه التعاليم التى نادى بها القطب الصوفى منذ سبعة قرون، ليس فيها لبس أو غموض. وإنما فيها وضوح الرؤية الإسلامية. بعيدًا عن الخرافات والأساطير، التى نسجت على مر الأيام، والتى يمكن أن تعشش فى أذهان السذج والجهلاء. وحاشى للقطب الصوفى، جوهرة آل بيت رسول الله ﷺ، أن ينسب إليه شىء من ذلك خاصة وأنه من الثابت أن السيد البدوى كان يردد دائما: «إن طريقتنا قائمة على كتاب الله وسنة رسوله، وما خالف ذلك فهو مدسوس، ولابد من الحذر منه».

* * *

من هو سيدى أحمد البدوى، الذى دارت الحياة فى طنطا حوله منذ أن نزل فيها ويتلهف على زيارة ضريحه الملايين من أبناء عالم الإسلام، وهو يحمل أكثر من ٢٩ لقبًا؟

قبل أن تعرف هذه اللؤلؤة من كنوز آل البيت، إليك لمحة عن العصر الذى عاش فيه ومات.

هذا العصر شاهد فى مشرق العالم الإسلامى أحداثًا هامة. شاهد الزحف التترى على مركز الخلافة الإسلامية فى بغداد. أسقطها وقتل الخليفة، وأحرق مكتبتها العامرة وألقى نفائس الكتب فى النهر وانتشر الذعر والهلع بين المسلمين، وكان هذا

قرب منتصف القرن السابع الهجرى عام ٦٥٦هـ.

وزحف التتار حتى وصلوا إلى غزة.

كذلك، وقبل زحف التتار بعشر سنوات، شاهدت مصر قوات صليبية، فيما يعرف بحملة لويس التاسع، وأسطولاً ضخماً يزحف إلى دمياط ويستولى عليها، ويواصل زحفه إلى المنصورة.

هذا فى مشرق العالم الإسلامى. لكن ماذا عن مغربه؟

لقد حدث انحسار لدولة الإسلام فى الأندلس، فى بداية القرن السابع الهجرى (١٣ الميلادى) بحيث لم يبق من هذه الدولة العريضة ذات الحضارة الزاهرة سوى رقعة صغيرة حول غرناطة.

وفى المغرب أيضًا دالت دولة المرابطين، وشعبها من المسلمين الذين فرّوا من اضطهادات الأمويين والعباسيين لآل البيت. أقول دالت دولة المرابطين، وحلت محلها دولة الموحدين، حيث ادعى محمد بن تومرت، الذى أسس هذه الدولة، بأنه المهدى المنتظر. وهذه الدولة قامت على أساس فكر المعتزلة، فاضطهدت أهل السنة، وكفرت الفقهاء، وأحرقت كتبهم.

فى هذا الوقت، كان الخوف على الإسلام ودولته.

ومن الطبيعى فى عصر الكوارث، أن يعود الناس أو يراجعوا سلوكهم ومنهجهم فى الحياة، ويقارنوا بين ما كانوا عليه من عز ومجد وبين ما أمسوا فيه من ضعف وخوف وتهديد. ومن الطبيعى كذلك أن تنتشر الطرق الصوفية، وأن يقوم أولياء صالحون بأدوار هامة دفاعًا عن الإسلام ومحاولة سلوك الطريق القويم. لأن ما حدث من كوارث، كان تفسيره المنطقى أن المسلمين تحولوا كثيرًا عن دينهم وعن تعاليمه وآدابه. ومعنى ذلك أن الحل الوحيد لاستعادة ما سلب منهم وإنقاذ أنفسهم وبلادهم من الأخطار الخارجية والداخلية، لا يكون إلا فى العودة إلى الله. فمن المبادئ التاريخية والاجتماعية المسلم بها، كما يرى المؤرخ الكبير د. سعيد عاشور، أستاذ تاريخ العصور الوسطى، أن أية حركة روحية تقوى وتشتد، نتيجة

لتأنيب الضمير، الأمر الذى يأتى مصحوبًا برغبة خالصة فى التوبة، والتوجه إلى الله.

فى هذه الفترة عاش السيد البدوى ٧٩ عامًا. فقد ولد فى عام ٥٩٦ هـ. وتوفى فى عام ٦٧٥هـ. وهذه الحياة الحافلة قضى منها حوالى الأربعين عامًا فى طنطا، والـ ٣٩ عامًا قضاها ما بين فاس، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة والعراق. وأسس أضخم مدرسة صوفية شهدتها مصر والعالم الإسلامى، وألف طائفة عظيمة من التلاميذ والمريدين. لعلها كما تجمع المصادر أضخم المجموعات فى تاريخ التصوف الإسلامى.

وقد دعم ذلك أن السيد البدوى من آل بيت الرسول، وهذا ثابت تاريخيًّا واتفقت عليه المصادر ولم تختلف. وحين نقول إنه خفيد من نسل الرسول، فإنما نعنى أنه حفيد فاطمة الزهراء وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما. فمن خلال ما هو منقوش على المقصورة النحاسية نجد أن السيد البدوى هو: أحمد بن على بن إبراهيم بن محمد بن أبى بكر بن إسماعيل بن عمر بن عثمان بن على ابن حسين بن محمد بن موسى بن يحيى بن عيسى بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب .

هو إذن شريف علوى، من لآلئ البيت الكرام الذين يرصعون بمشاهدهم أرض مصر.

وحياة السيد البدوى من مشرقها إلى مغربها كلها جهاد. جهاد النفس، وهو الجهاد الأكبر، وجهاد فى سبيل إعلاء راية الإيمان. ويذكر له أنه ربىَّ نفوسًا مؤمنه، نافحت عن العقيدة. ولقد دارت حياته حول البحث عن الحقيقة، وظل طول حياته ظمآن، يغترف من مناهل العلم. حتى نوَّر الله قلبه وبلور فكره فى معالم طريق صوفى كان هو قطبه. وصار كما يصفه الإمام الشعرانى «نور المتصوفة الذى لا يخبو، وصارت شهرته فى جميع أقطار الأرض تغنى عن تعريفه».

بل إن السيد البدوى حمل حوالى ٣٩ لقبًا، أطلقها عليه تلاميذه ومريدوه وأفاضت الكتب فى هذه الألقاب ومدلولاتها. ونذر نفسه لرسالته، حتى أن أخاه حسينًا حين عرض عليه الزواج، أبى وقال: «أنا موعود بألا أتزوج إلا من الحور العين».

يقول الشيخ أحمد محمد حجاب فى كتابه «العظة والاعتبار.. آراء فى حياة السيد البدوى الدنيوية وحياته البرزخية». وهو شيخ مات فى التسعين، صوفى عاش فى رحاب السيد البدوى ولم يتزوج. إلى أن توفاه الله فدفن بجوار سيدى أحمد البدوى، يقول: «قضى سيدى أحمد حياته الطويلة مستغرق القلب بمعرفة الله، مستغرق الجوارح بعبوديته، يغترف من موارد أنوار الذات، ويقتبس من معينها، ويستمد من فيوضاتها، لا ينثنى عن ذلك ولا يحيد..»

ويقول إبراهيم أحمد نور الدين فى كتابه عن حياة السيد البدوى «أنه رضى الله عنه اشتهر بقوة الروح، وصفاء النفس، وكان يؤمن كصوفى مطهر أن الله قريب يجيب الدعاء، ولاسيما إذا كان الداعى من عباده المخلصين».

* * *

تنقسم حياة سيدى أحمد البدوى إلى قسمين: أحدهما فى طنطا، التى عرفت بذلك الاسم منذ أيام الحملة الفرنسية. والآخر قبل أن يأتى إلى طندتا وهو اسم طنطا القديم، منذ ميلاده، وإلى أن جاء إلى مصر.

ونقول: إن أجداد السيد البدوى تركوا مسقط رأسهم فى الحجاز سنة ٧٣هـ. بعد موقعة كربلاء، التى انتهت باستشهاد جده الإمام الحسين. ورفعت الدولة الأموية درجة اضطهاد ومطاردة العلويين إلى عنفوانها. كما يقول الشيخ أحمد حجاب فى كتابه عن السيد البدوى: «حينما استأثروا بتوليه بالملك ونحوا عنه أبناء على كرم الله وجهه، وخاصة زمن الحجاج ومطاردته لابن الزبير. وكانت هجرة معروفة فى التاريخ إلى غرب العالم الإسلامى، الذى يشمل مصر، وحتى المغرب والأندلس».

وقد ظلت أسرة السيد البدوى، التى هاجرت إلى المغرب، تعيش هناك، حتى نهايات القرن السادس الهجرى. حيث ولد القطب الصوفى سيدى أحمد البدوى، عام ٥٩٦هـ. «١١٩٩ ـ ١٢٠٠م» فى زقاق الحجر فى مدينة فاس، وظلت الأسرة تعيش فى أمان، حتى واجه العلويون ظروفًا قاسية بعد قيام دولة الموحدين، فرحلت أسرة السيد إلى مكة المكرمة، وعمره حوالى سبع سنوات. وهذه الرحلة من فاس إلى مكة استغرقت خمس سنوات كما يرى د. سعيد عاشور. وترجح د. سعاد ماهر أن الأسرة أقامت فى مصر أغلب هذه السنوات الخمس. ويؤيدها على باشا مبارك فى ذلك، حيث يقول: «ثم رحل بالبدوى أبوه على بن إبراهيم مع سائر أولاده وأهله سنة ٦٠٣هـ. يريد الحجاز للحج، فمر فى طريقه بمصر وأقام فيها مدة».

ولقد ألححت فى ذكر أن الأسرة مكثت فى مصر، لأسباب سنعرفها فيما بعد.

وهناك من المتحمسين لآل البيت من يقفز على الأحداث، ويرجع الهجرة من فاس إلى مكة المكرمة إلى أسباب كثيرة منها ـ كما يقول بعض الصوفية ـ إن هاتفًا جاء لوالد السيد فى المنام يقول له: «ارتحل من هذا المكان إلى مكة المكرمة، فإن لك فى ذلك شأن آخر».

لكن السبب الأساسى ـ كما يبدو ـ فى الارتحال هو أن أسرة السيد البدوى كانت تحظى بعطف الحكام المرابطين الذين كانوا على مذهب مالك، الذى تفقه عليه السيد أحمد البدوى وآباؤه وأجداده وكان هذا المذهب سائدًا فى المغرب العربى. فلما دالت دولة المرابطين، وحلت محلها دولة الموحدين، أقاموا دولتهم الجديدة على أساس فقه المعتزلة كما ذكرنا. ومن هنا أخذ الأشراف العلويون يتسللون من المغرب إلى المشرق، فتظاهر والد السيد بالخروج للحج، وفى نيته الهجرة نهائيًا. وفعلا، خرجت الأسرة عام ٦٠٣هـ. إلى مصر ثم إلى مكة. وكانت مصر هى التى لفتت السيد البدوى فى سنه المبكرة، وتأكد لديه فيما بعد أنها أصلح مكان لدعوته.

* * *

وصل الركب إلى مكة المكرمة عام ٦٠٩هـ. وكان السيد البدوى سادس الإخوة فى أسرته. فقد تزوج الشريف إبراهيم، جد سيدى أحمد البدوى بابنة أخى

السلطان فى المغرب، فولدت له عليًّا، الذى تزوج بدوره من فتاة عالية القدر، هى فاطمة بنت أحمد بن عبد الله بن مدين بن شعيب المزنية، فولدت له ستة أبناء، ثلاثة منهم بنات وكان البدوى أصغر الذكور.

ومنذ أن جاء السيد البدوى مكة، كان البدء الروحى لحياته الحافلة، فقد تفقه على مذهب الإمام الشافعى، وأتقن لعلوم وعكف على العبادة والتأمل. وكان دائم الابتعاد عن الناس، صامتًا، واضعًا اللثام على وجهه- وهى عادة مغربية- حتى سمى بالبدوى. وفى مكة أيضًا تعلم البدوى الفروسية، حتى صار فارس مكة وشجاعها الذى لا يبارى- كما يقولون- لدرجة أن أخاه الشريف حسن، وصفه قائلا: «ولم يكن فى مكة والمدينة من الفرسان، أشجع، ولا أفرس من أخى أحمد فسميته العطاب محرش الحرب».

والواقع أنه فى مكة فتح الله على الصبى العلوى. ويؤكد أبو السعود الواسطى فى تاريخه، أن سيدى أحمد ازداد اعتكافه بعد وفاة والده وأخيه، وكان اعتكافه فى جبل أبى قبيس، أحد الجبال السبعة التى تلف مكة المكرمة، ففى مغارة من مغاراته بدأت تأملات السيد البدوى، وكانت هذه مرحلة ثرية، فكر فيها البدوى فى مسئوليته كمسلم. وفكر فى أمة الإسلام والأخطار التى تتهددها فكانت محاولة التعرف على ذاته هو أولا، ومراجعة ما حصله من علم ومعرفة، وزيادة القرب من الله تعالى، بالعكوف على عبادته.

واستمر السيد فى تأملاته وعباداته عدة سنوات فى شعاب مكة وجبالها. ثم أحس أنه مشوق إلى مزيد من علوم السيدين أحمد الرفاعى، وعبد القادر الجيلانى، وأعلام الصوفية فى العراق. وقيل فى ذلك إنه شاهد رؤيا فى صورة خطاب من السيد أحمد الرفاعى تقول له: «لا تنم فمن طلب المعالى لا ينام. وحق آبائك الكرام، سيكون لك حال ومقام» وربما كانت هذه رؤيا أطلقها مؤرخو السيد تبريرًا لرحلته إلى العراق موطن تجمعات المتصوفة.

* * *

وصل السيد أحمد البدوى إلى العراق فى شهر ربيع أول ٦٣٤هـ. ومعه أخوه الشريف حسن. وقد بدأ بزيارة آل البيت وأقطاب الولاية المدفونين هناك. زار الكاظمية، حيث مقابر الشيعة، وفيها قبر جده الإمام موسى الكاظم وحفيده محمد الجواد. كما زار قبور الجيلانى، والحسين بن منصور الحلاج، وعدى بن مسافر، وموسى الزوالى، وتاج العارفين أبى الوفاء فى وادى لوسان، حيث بات فى الضريح ليلة، ليرى فى المنام من يأمره بزيارة قرية «أم عبيدة» مركز الطريقة الرفاعية وفعلا ذهب إلى القرية حيث استقبله الرفاعية أروع استقبال وأقام فيها ثلاثة أيام، عاد بعدها إلى بغداد.

وفى أم عبيدة توجه إليه النداء الباطنى ـ كما تقول الصوفية ـ من السيد أحمد الرفاعى يشير عليه بالذهاب إلى فاطمة بنت برى، بالعشائر فى شمال العراق، كى يقوم سلوكها المعوج، ويؤدبها. وهذا فى الواقع كان امتحانًا عليه أن يجتازه؛ ليكون قطبًا صوفيًّا.

هنا يفترق البدوى عن أخيه الشريف حسن.

ويعود أخوه إلى مكة، بينما يواصل السيد مسيرته إلى فاطمة بنت برى.

ولقاء السيد ببنت برى نسجت حوله القصص والروايات وألفت فيه القصائد. وهو فى معناه انتصار الخير على الشر. فقد كانت فاطمة بنت برى كما يقول الإمام الشعرانى «امرأة لها حال عظيم وجمال بديع، وكانت تسلب الرجال أحوالهم فسلبها السيد حالها».

وفاطمة بنت برى، كانت ـ كما وصفت ـ سيدة تتمتع بقسط وافر من الجمال والمال. وكان الاختبار الذى تمتحن به كل من يريد أن يتتلمذ عليها، هو موضع الحسن الذى تتمتع به من نفسها. فيقع فيها من يطيل النظر إليها، وهنا لا يصلح أن يكون صوفيًّا مؤمنًا، لأنه ضعيف القلب، سريع التأثر.

وقد تجمع حول بنت برى قومها وأنصارها يؤازرونها فى مسلكها الخاطئ. «بيد أن حق الشرع لا يذهب جفاء، فأشار قطبا التصريف ـ الرفاعى والجيلانى ـ على

أبى الفتيان ـ سيدى أحمد البدوى ـ بدرء هذه الفتنة، فذهب إليها سيدى أحمد البدوى، بعدما ودع أخاه حسن الذى عاد إلى مكة».. كما ذكرنا.

وقد أطنبت المصادر فى تصوير لقاء السيد البدوى بفاطمة بنت برى. ويقولون إنه ما إن وقع بصرها عليه، حتى أحست بنهاية أمرها حيث وجدت ما لديها من حال أمام أحوال بطل الرجال، لا يعدو أن يكون ذرة، بجوار هذا الجبل الشامخ من الصلابة والإيمان. فلقنها سيدى أحمد البدوى الدرس هى وعشيرتها، وآمنت بولاية السيد وصلاحه، وعدلت فاطمة بنت برى عن خطتها، والتزمت جانب الحق واتبعت طريق الشرع، وقالت: «اشهدوا على يا جميع من حضر، أنى ما عدت أتعرض لأحد من الرجال، وأنا أستغفر الله بداية ونهاية، وفرضا عن كفاية».

وقد كان لقاء السيد ببنت برى كما تقول المصادر شهادة ميلاد للسيد البدوى، حيث تأكدت ولايته، وصار قطب الأقطاب، وهى أعلى مراحل الصوفية.

* * *

من العراق، عاد السيد البدوى إلى مكة مشهودًا له بقطبانيته.

وفى مكة تزايد حاله، وطال استغراقه فى الذات الإلهية، واتسع مدده، حتى أن أخته فاطمة قالت لأخيه حسن ذات ليلة، بعد أن أيقظته من نومه: «يا ابن والدى، إن أخى أحمد قائم طول الليل وهو شاخص ببصره إلى السماء، ونهاره صائم، وانقلب سواد عينيه إلى حمرة تتوقد كالجمرة، وله مدة أربعين يومًا ما أكل طعامًا ولا شرابًا».

عاد سيد أحمد البدوى إلى مكة، وعظم ميله إلى الزهد والتعبد والإكثار من قراءة القرآن الكريم بالقراءات السبع. فضلا عن القراءة فى كل العلوم. وذات ليلة من رمضان فى عام ٦٣٤ هجرية، رأى رؤية ألحت عليه ثلاث مرات، تقول له: «سر إلى طندتا، فإنك تقيم بها وتربى رجالا».

ويحلل د. سعيد عاشور هجرة السيد البدوى إلى طنطا، بعد أن تخطى الثلاثين من عمره، وأوشك على الأربعين، فيقول: «إن الدارس لسيرته رضى الله عنه،

لا يستطيع أن ينكر حقيقة هامة هى أنه كان طموحًا، وطموحًا جدًا. وأنه سمع عن السابقين من كبار الأئمة، فأراد أن يحاكيهم ويتفوق عليهم بزهده وتقشفه، وقدرته على اكتساب الاتباع» ويضيف قائلا: «إن من يقصد مكة، كان يستحيل عليه أن يولى ظهره للكعبة، وهى بيت الله الحرام، ليتوجه شطر السيد أحمد البدوى».

وهذا يعنى أن السيد البدوى ترك مكة إلى مصر ليحقق فيها هدفه، ووصلها تقريبًا عام ٦٣٧هـ. فى عهد الملك العادل الثانى أواخر دولة الأيوبيين، لتصبح كما يقول الفن الشعبى الذى يتردد فى الموالد:

السيد اللى نزل طنطا ملاها نور.
جت الرسالة يا روحى من اللى فج منه النور.
السيد اللى نصب كرسى ع العالى.
السيد اللى ملا طنطا نور.

كان السيد البدوى قطبًا صوفيًا ورجلا مؤمنًا، يرى أن الدين قوة محركة وليست كهنوتًا. ولهذا صار فى مصر زعيمًا سياسيًا. فهو بجانب التصوف ـ كما يرى د. رشاد رشدى من خلال مسرحية «بلدى.. يا بلدى» ـ يمثل بطولة شعبية معينة. لم يترك أورادًا كثيرة كباقى المتصوفة. وإنما كان يؤمن بأن الإنسان إذا استطاع ألا يملك شيئًا فلن تملكه قوة على الأرض.

هو قطب وولى وجوهرة من كنوز آل البيت، وهو زعيم شعبى ـ كما يراه البعض ـ عبر بصدق عن آمال شعب مصر فى تلك الفترة، وفى وقت عصيب. فقد كان شعب مصر فى الوقت الذى جاءها فيه السيد البدوى ليستقر فيها، يعانى من ظلم المماليك واستبدادهم كما كان يعانى من التهديدات الخارجية، من التتار والصليبيين، ومن المؤامرات على الإسلام.

لقد أجاد السيد اختيار طنطا مكانًا لدعوته، التى تتلخص فيما قاله لتلميذه عبد العال: «إياك يا عبد العال وحب الدنيا، فإنه يفسد العمل الصالح، كما يفسد الخل العسل» إن هذا الورد ـ كما يرى د. رشاد رشدى ـ تتجمع فيه فلسفة

السيد البدوى، ولقد وجدت هذه الفلسفة فى طنطا مرعى خصبًا بين الفلاحين المظلومين. ومن هنا بدأت دعوة السيد تستقطب ٤٠ مريدًا، أطلقوا على أنفسهم «السطوحيين». وهؤلاء خرجوا من طنطا يدعون لتعاليم السيد، حتى صار الأتباع بالملايين.

* * *

وفى طنطا نزل السيد أحمد البدوى بدار تاجر العسل والزيت والحبوب الشيخ ركن الدين ركين. ويبدو أن هذا الشيخ كان معروفا من السيد فى مكة فى موسم الحج وأنه التقى به هناك. ودعاه إلى طنطا. وقد ظل السيد البدوى عند ركن الدين مدة ١٢ عامًا.

وحين توفى الشيخ ركن الدين ركين، انتقل البدوى إلى دار مجاورة هى دار ابن شحيط شيخ الناحية. وظل يتعبد فيها وينشر دعوته ٢٦، أو ٢٨ سنة – على قول آخر – حتى مات.

وارتباط السيد بطنطا ـ فى الواقع ـ قد ترك كما يرى المؤرخون، أثرًا عميقًا فى تاريخ مصر الدينى والاجتماعى والاقتصادى والفكرى. قرونًا عديدة. بل إن الناحية الاقتصادية بالذات لفتت نظر الكثيرين.

مثلا د. زكى مبارك، يقول فى كتابه «التصوف الإسلامى»: «وأغلب الظن أن التجار فى الأقطار الفرنسية والإنجليزية والألمانية، يحسدون مصر على قيام السيد البدوى، ويودون لو نقلوه بزواره وأتباعه ومريديه، كى يظفروا بسوق رابحة قليلة النظائر والأمثال».

والجبرتى فى نهاية القرن الثامن عشر يتحدث عن مولد السيد البدوى وزيارته فيقول: «... أصبحت موسمًا وعيدًا، لا يتخلفون عنه للزيارة والتجارة أو للنزهة ويجتمع فى مولده العالم الأكبر وأهالى الإقليم البحرى والقبلى».

بل إن الشاعر حافظ إبراهيم لم يغفل مولد السيد البدوى فى شعره، وهاله ما رأى من كثرة مريدى السيد وزائرى ضريحه فى طنطا، وقال فيه قصيدته التائية التى

وصفت ما للسيد من مكانة فى نفوس المصريين، وكثرة النذور التى تأتى كالأنهار فيقول حافظ إبراهيم:

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم	وبألف ألف ترزق الأموات
للسيد البدوى ملك دخله	خمسون ألفًا، والحظوظ هبات
من لى بحظ النائمين بحفرة	قامت على أرجائها الصلوات
يسعى الأنام لها ويجرى حولها	بحر النذور، وتقرأ الآيات
ويقال هذا القطب باب المصطفى	ووسيلة تقضى بها الحاجات

لقد قبع السيد البدوى فوق سطح دار ابن شحيط. قطبًا صوفيًّا كبيرًا يلقى تعاليمه على مريديه، وتنطلق من هذا السطح دعوته. وهذه العادة ـ العيش فوق السطح ـ ربما اقتبسها السيد البدوى عن الرفاعية فى العراق، وكان السطح ـ كما وصفه البعض فى طنطا أشبه بمسجد الصفة الذى كان يتعبد فيه صحابة رسول الله ﷺ، وينقطعون لربهم، ويعمرون جوف الأسحار بالذكر والإنابة والاستغفار. وأن السطح كان يمثل للعراقيين الراحة والهواء، ينامون فوقه كل ليلة فى يسر لأن مناخهم شديد الحرارة.

وقد ربى السيد البدوى من فوق السطح رجالا مؤمنين مجاهدين، كانوا مع العناية الإلهية على ميعاد، وفى مقدمتهم سيدى عبد العال، وأخوه عبد المجيد، المدفونان فى ضريحين فى مسجد السيد البدوى. بالإضافة إلى المجاهدين الآخرين عبد الوهاب الجوهر، وقمر الدولة، وحسن الصائغ، وغيرهم.

ومما أذاع صيت السيد البدوى فى حياته أنه صار قطبًا مجاهدًا، وجعل من مريديه بمثابة «التوجيه المعنوى» فى الجيوش الحديثة، بالإضافة إلى أنْ الكثير من أتباعه شاركوا فى مقاومة الغزو الصليبى قتالا وجهادًا، وقد انتصرت مصر فى حملة لويس ملك فرنسا، بل أسر ملك فرنسا فى دار ابن لقمان بالمنصورة، وأسر الكثير من جنوده المحاربين، وأبرزت الملاحم الشعبية السيد البدوى بأنه جاء بالأسرى، وكانت الأغنية الفولكلورية «الله.. الله يا بدوى جاب اليسرى».

* * *

كان للبدوى طريقة خاصة مع أتباعه وتلامذته، كما كان له تأثير كبير عليهم ـ كما يقول الشيخ الأحمدى الظواهرى فى مذكراته التى نشرها ابنه ـ لدرجة أنه «قد يأتى إليه الرجل البسيط القروى، فلا ينقلب إلى أهله إلا وقد امتلأ بالحب الربانى، والكمال النفسانى».

وما يقوله الشيخ الظواهرى، يؤكد ما نسب إلى السيد البدوى من مقولته إلى عبد العال: «فقرائى كالزيتون، فيهم الكبير والصغير، ومن لم يكن فيه زيت، فأنا زيته». بمعنى أن السيد البدوى، كان مؤمنًا شديد الإيمان. وهذا الإيمان ينتقل إلى مريديه الصادقين مثل العدوى.

وكما يقول الشيخ أحمد محمد حجاب فى تفسير ذلك أى من لم يكن على نور من ربه، فإن نور السيد البدوى يرشده إلى طريق الحق، ويهديه ا!   ويكون له عونًا فى الوصول إلى غايته وقضاء حوائجه، لا بحوله ولا بقوته، ولكن ببركة النبى ﷺ».

والمهم أن السيد البدوى رضى الله عنه، لم يرتق إلى المكانة التى صعد إليها، إلا بعد أن جاهد واجتاز العقبات تلو العقبات فى مصر ـ وفى خارج مصر بالطبع ـ فقد بلغ من صيت هذا القطب النبوى الصوفى، أن علماء القاهرة الذين لم يكونوا يعرفونه، كانوا يظنون به الظنون، ويتشككون فى صلاحه وتقواه، ومنهم شيخ الإسلام وقاضى القضاة فى عصره ابن دقيق العيد.

وقد أوفد شيخ الإسلام إلى طنطا سيدى عبد العزيز الدرينى، ليمتحن السيد البدوى. وكان الدرينى ـ المدفون فى مسجده قرب قصر العينى ـ من العلماء الكبار الصالحين. وقد رجع سيدى عبد العزيز الدرينى من عند سيدى أحمد البدوى، يقول فى تقريره الذى رفعه إلى شيخ الإسلام: «إن السيد البدوى بحر لا يدرك له قرار».

وقد دفع ذلك بشيخ الإسلام أن يذهب إلى طنطا بنفسه، ويصعد السطح، كما يقول على باشا مبارك، ويدور بينه وبين السيد حديث طويل ومساجلات علمية

وفقهية، يعود بعدها شيخ الإسلام يتباهى بأنه من أتباع السيد البدوى.

وكما ذاعت شهرة السيد بين العامة والعلماء، ذاعت أيضًا بين الحكام، ومنهم سلطان مصر الظاهر بيبرس، الذى ـ كما يقول الشعرانى ـ كان يعتقد فى سيدى أحمد اعتقادًا عظيمًا، وكان ينزل لزيارته فى طنطا. بل إن دائرة المعارف الإسلامية تقول عن السيد البدوى. «ان معاصره الملك الظاهر بيبرس كان يجله، وأنه قبل رجله» هذا بالرغم من أنه كان يعاصر السيد البدوى فى مصر أولياء كبار وعارفون بالله، مثل أبى الحسن الشاذلى، وسيدى إبراهيم الدسوقى وسيدى أبى العباس المرسى، وسيدى أبى القاسم القبارى، وسيدى عبد الله الشاطبى. وهؤلاء جميعًا ـ كما يرى أنور طلب فى كتابه «ذو الكرامات السيد البدوى» شهدوا للسيد بالولاية والقطبانية. وكما يقول أحمد الشرنوبى فى كتابه «مناقب الأقطاب الأربعة»: أنه أثر عن سيدى إبراهيم الدسوقى، أنه قال عن السيد البدوى: «فضل الله علينا عم، كل الجماعة تبع والسيد عم».

* * *

لم يترك السيد البدوى عند وفاته ثروات أو عقارات. ذهب إلى الآخرة كما جاء إليها.

لكنه ترك رجالا وطريقة وحبًّا، ومريدين يتزايدون عامًا بعد عام بالملايين. فضلا عن بعض كلمات وأوراد وتعاليم نسخت فى مؤلفات، وأشهرها «وصايا» و «صلوات» و «الحزب».

وحين توفى السيد دفن داخل منزل ابن شحيط، فأقام تلميذه عبد العال بجوار القبر خلوة، تحولت فيما بعد إلى زاوية عرفت بالأحمدية، بقيت على حالها. حتى عصر السلطان قايتباى فى ٨٨٨هـ «١٤٨٣م»، حيث أقيمت قبة على الضريح، ومئذنة للزاوية.

وفى عصر على بك الكبير ـ كما يقول ابن إياس ـ أراد أن يكسب المتصوفة والمصريين ويستقل عن الدولة العثمانية، فكان اهتمامه بزاوية الأحمدى ـ وكانت

الاسم اللامع بين الأولياء - وتحويلها إلى مسجد. وقد أوقف على بك الكبير وقفين على مسجد السيد البدوى يغلان ريعًا صافيًا قدر بحوالى ٢٦٢٦٤ جنيها من خلال حجتين: الأولى فى شعبان من عام ١١٨٣ هـ وهى أراضى زراعية بناحية القوصية والثانية عبارة عن ١٧ فدانًا بنواحى طنطا، وبلتاج، فضلا عن عمائر ووكائل (وقياسر) وعقارات- كما يقول الأثرى حسن عبد الوهاب- والحجتان- كما أكد د. سعيد عاشور- موجودتان فى أرشيف الأوقاف برقم «٧٤٣ أوقاف» وقد أشارتا إلى استخدام الريع لخلفاء السيد. وخدم الضريح والقائمين من العلماء والمجاورين والفقراء والعجزة والأيتام وأرباب الأشاير، والمنسوبين للطريقة الأحمدية.

كذلك - وكما تقول د. سعاد ماهر - فإن على بك الكبير فى عام ١١٨٢ هـ «١٧٦٨ م» بنى ثلاث قباب على المسجد أكبرها فوق ضريح السيد، وواحدة فوق تلميذه عبد العال والثانية فوق الشيخ مجاهد كما صنعت مقصورة نحاسية على ضريح السيد، هى الموجودة الآن، ونقش عليها اسمه ونسبه الشريف. وأنشأ سبيلا فى مواجهة المسجد، وفوقه مدرسة لتعليم القراءة. بالإضافة إلى أنه أنشأ (قيسارية) عرفت بالغورية لنزول تجار القاهرة فى حوانيتها أيام مواسم الموالد لبيع الأقمشة والطرابيش والعصائب.

أما المسجد الأحمدى الحالى، فقد وضع أساسه عام ١٢٦٩ هـ. «١٨٥٢م». وتمت عمارته فى عهد الخديو إسماعيل. وقد أدخلت فى عمارة القبة بعض الشبابيك النحاسية التى بقيت من عمارة مسجد محمد على باشا بالقلعة. كما أنشئ له محراب من الرخام الدقيق، ومنبر جميل وفريد من الخشب المجمع. وهذه العمارة ظلت حتى سنوات قليلة مضت فى السبعينات حيث بدأ توسيع المسجد وإضافة منارتين له. وهى عمارة حاولت قدر جهدها الاحتفاظ بالقديم وترميمه وخاصة القبة على ضريح سيدى عبد العال.

والمسجد الآن يحوى غرفة مخلفات السيد البدوى، وفيها سبحة ألفية «ألف حبة» قيل إن السيد جاء بها من العراق، بالإضافة إلى عمامة بيضاء، وقميص أحمر وعباءة من نفس اللون والنسيج. ويبدو أنها ليست أصلية، لأن الأصلية من المؤكد

أنها بليت من سبعة قرون. هذا فضلا عن حجابين، ومهراش. وربما تكون بالفعل من آثار السيد، حيث إن المهراش يبدو أنه كان من موضة العصر الذى عاش فيه السيد البدوى.

وفى ركن من قبة السيد، ما يعرف بآثار قدمى الرسول «صلى الله عليه وسلم» وقد بحثت عن أصلها لكننى لم أتوصل إلى تلك الحقيقة التى تقول إنها من العصر العثمانى، ويبدو أنها من ابتداع العثمانيين لأنه يوجد مثلها فى متحف توب كابى، وهى من المرمر.

أما شعرة الرسول الموجودة بدولاب تحت قبة سيدى عبد العال، فيبدو أنها حقيقية، وهى تنتمى للشعرات الموجودة فى غرفة المخلفات بالمشهد الحسينى. وكذلك الشعرات الموجودة فى غرفة «الأمانات المقدسة» فى تركيا ويقال إن الخديو عباس حلمى نقل هذه الشعرة المباركة إلى مسجد السيد البدوى وكانت ضمن مخلفات الرسول فى مصر، بعد أن نقلت من أثر النبى إلى المشهد الحسينى عام ١٣١٥هـ.

السلطان أبو العلاء

و٤٠ عامًا فى خلوة على النيل

حياة ثرية مملوءة بالإيمان. خاصة فى جانبها الآخر. وأقصد بها الحياة الثانية للإنسان. وهى بالطبع أهم من الحياة الأولى الفانية فى دنيا الغرور. هذه الحياة امتدت على غير عادة الأعمار العربية فى عصرنا إلى مائة وعشرين عامًا قضاها ما بين مكة المكرمة، وبين القاهرة، وحى بولاق على ضفة النيل الشرقية. كان سلطانًا، أو هم خلعوا عليه هذا اللقب، وإن كان ليس مثل السلاطين ـ سلاطين المماليك ـ الذين عاش فى عهدهم سلطانًا للعارفين بالله، سلطان العلم والإيمان والفكر الصوفى، كان سلطانًا على العقول وسلاطين العقول أخطر وأهم من السلاطين الحكام، الذين كانوا يتواترون على حكم مصر، ويسقطون كأوراق الشجر فى خريف كل عام.

كان السلطان أبو العلا ـ وهو اسمه تجاوزًا، أو هو اسم الشهرة ـ رجل إيمان. أو كان كالقمر ـ وسط تاريخ مصر المملوكى ـ يشعُ النور الإيمانى، وهو نور عراقة المنبت، وشريف السلالة، فالثابت أنه من آل بيت رسول الله ﷺ. ينتهى نسبه إلى سيدى على زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام على وسيدتنا فاطمة الزهراء رضى الله عنهم جميعًا. هو إذن من تلك النبتة المباركة، تلك النماذج الإسلامية الشريفة التى أنعم الله عليها بالعلم والإيمان. والتى نذرت نفسها للدفاع عن عقيدة الإسلام، دين جدها الرسول: محمد ﷺ. لا يهمهم ما يلاقون فى سبيل المبدأ من الصد والعنفوان والنكران والجحود.

* * *

لماذا اختار منطقة بولاق، ليخلو فيها إلى نفسه، وليصبح قبل لقاء ربه قطبها، وقبلة ناسها، وسرًّا من أسرار بركتها بإذن الله؟!

كانت بولاق، ذلك الحى الذى يعتبر من أقدم أحياء القاهرة، منذ العهد الفاطمى وحتى أوائل العصر المملوكى، أى فى الفترة ـ تقريبًا ـ من منتصف القرن الرابع إلى منتصف القرن السادس الهجريين، قطعة من الأرض الفضاء الفسيحة، التى يكسوها البوص والحلفا، ولم تكن أرضا ممهدة، بقدر ما كانت مملوءة بالتلال الرملية، والمنخفضات. والمياه والترع.

ثم بدأ اكتشافها. حين كان ينزل إليها المماليك للرياضة، ورمى النشاب. وربما حملت بولاق هذا الاسم من لعبة الصولجان، أو البولو ـ كما نعرفها الآن ـ وكان المماليك مولعين باللعبات الرياضية، وعلى رأسها الفروسية والبعض يقول إن بولاق هى تسمية فرنسية. تعود إلى أيام الحملة الفرنسية. وهى كلمة من شقين «بو» أى جميل (ولاك) أى بحيرة، بمعنى (البحيرة الجميلة) وحرفت إلى (بولاق).

لكن مصادر التاريخ ترى أن بولاق بدأت تعمر فى عصر سابق للمماليك. وربما منذ أواخر العصر الأيوبى.

فالمقريزى ـ فى «أتعاظ الحنفا» ـ يقول إنه لما قدم المعز لدين الله الفاطمى إلى القاهرة، ورأى أنه لا ساحل لها. لم يعجبه موقع القاهرة، وقال لقائد جنده جوهر الصقلى: «يا جوهر فاتتك عمارتها ها هنا» وكان يقصد المقس، على ضفة النيل الشرقية عند قرية كانت تعرف بأم دنين فى حى مصر القديمة، ومن هنا ظلت (المقس) مرفأ القاهرة التجارى.

وقد ظلت (المقس) حتى تأسست بولاق، كما يقول المستشرق ستانلى لين فى كتابه (مصر فى العصور الوسطى) حين تحول مجرى النيل فى القرنين السادس والسابع الهجريين (١٣ و١٤ الميلاديين). صارت بولاق مرفأ تجاريًّا منذ عام ٨١٣هـ. حينما أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى فترة حكمه الثالثة التى امتدت أكثر من ثلاثين عامًا ـ بعمارتها، وبنى فيها الدور على شاطئ النيل، فسكنها

الناس وعمروها، حتى ـ وكما يقول المؤرخون ـ لم يبق بها موضع من غير عمارة، وصارت شوارعها مسلوكة، وأزقتها مطروقة، وقصورها عامرة، وبساتينها ناضرة .

وقد ظلت بولاق حول مسجد السلطان أبى العلاء، قلعة إيمان وميناءً كبيرًا حتى أن المؤرخ المغربى أبو بكر العباسى الذى زار القاهرة عام ١٠٣٥ هجرية وصفها بأنها «مرسى القاهرة الكبير التى تجتمع فيها مراكب دمياط ورشيد والصعيد». ووصف جامع أبى العلاء بجامع الساقية.

والرحالة عبد الغنى النابلسى الذى زار القاهرة عام ١١٠٥ هجرية قال فى بولاق: «ذهبنامع حضرة الشيخ زين العابدين إلى جهة بولاق المعروفة فى مصر على شط بحر النيل، فمررنا فى الطريق على قبر الشيخ أبو العلا، فقرأنا الفاتحة».

إن وجود هذا القطب من أقطاب آل البيت وسط البولاقيين جعلهم مؤمنين مكافحين، وصار هو كالرحى يدور حوله الناس.

يدل على ذلك ما فعله أهل بولاق فى ثورة القاهرة الثانية أيام الحملة الفرنسية على مصر، فالجبرتى يصف البولاقيين الذين ثاروا للقاهرة ضد الغزاة الفرنسيين، ويقول: «أما بولاق فإنها قامت على ساق واحدة، وتحزم الحاج مصطفى البشتيلى «سر التجار» وأمثاله وهيجوا العامة وهيئوا عصيهم وأسلحتهم ورمحوا وصفحوا. وأول ما بدءوا به أنهم ذهبوا إلى وطاق الفرنسيس الذى تركوه بساحل البحر ـ يقصد النهر ـ وعنده حرس منهم، فقتلوا من أدركوه منهم، ونهبوا جميع ما به من خيام ومتع ومتاع وغيره، وأخذوا ما أحبوا منها، وعملوا كرنك حوالى البلد ومتاريس».

بمعنى أن أهل بولاق هم الذين بدءوا ثورة القاهرة الثانية. وكان مما ذكرته كتب التاريخ أن أهل بولاق صنعوا «القنابل من حديد المساجد وأدوات الصناع، وفعلوا ما لا يمكن تصديقه. صنعوا المدافع».

وقد ضحت بولاق فى الثورة ضد كليبر، فاحترقت كلها، حيث يقول الجبرتى: «هجموا على بولاق من ناحية البحر، ومن ناحية بوابة أبى العلاء، وقاتل أهل

بولاق جهدهم، ورموا بأنفسهم فى النيران».

ويقول عن الفرنسيين، إنهم «فعلوا بأهلها ـ بولاق ـ ما تشيب له النواصى، وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والأزقة، واحترقت المدينة والدور والقصور».

على أية حال فإن أهمية بولاق كميناء قلت فى القرن ١٩ حين افتتح أول خط حديدى بين القاهرة والإسكندرية. ولكن أهميتها كمزار ظل يتزايد حول مسجد (أبو العلا) وحول ضريحه، وأهميتها كمكان للمنشآت تزايدت

ويكفى أن نقول إنه فى عصر محمد على احتلت بولاق مكانة كبيرة، حين أنشأ الوالى بها دار صناعة السفن، ومدرسة المهندسخانة ومصانع للغزل والنسيج، وديوانًا للجمارك، ثم ما تبع ذلك من إنشاء المطبعة الأميرية، وأول مدرسة للشرطة فى مصر.

* * *

مؤرخو السلطان أبى العلا، يقولون إنه من مواليد مكة المكرمة فى أواخر القرن الثامن الهجرى. وإنه حين نزح إلى مصر، مكث فى القاهرة فترة ثم استقر فى بولاق، واختارها مكانًا لتصوفه ولمعيشته، حتى توفى أواخر القرن التاسع الهجرى، فى سنة ٨٩١هـ أو ٨٩٥هـ بعد حياة امتدت ١٢٠ عامًا.

وحتى الآن، لا تحدد المراجع فى أى سن جاء السلطان أبى العلا إلى مصر، وكيف عاش فى القاهرة، ثم هجر القاهرة إلى ظاهرها، أى إلى بولاق حيث اختار المكان الذى فيه مسجده الآن. اختار خلوة صغيرة يقال إنه عاش فيها ٤٠ سنة.

ويبدو أنه عاش الأربعين عامًا الأخيرة من حياته فى هذه الخلوة التى دفن فيها، وأنه قد يكون عاش وسط القاهريين مثل هذه السنوات أو أقل منها، بعد أن جاء من مكة المكرمة. فالمؤرخون الذين تناولوا سيرة السلطان أبى العلاء أهملوا تقريبًا هذا الجزء من حياة القطب النبوى واهتموا فقط بالسنوات الأربعين من عمره فى بولاق على شاطئ النيل.

والسلطان أبو العلا، اسمه الحقيقى والمكتوب داخل ضريحه ومسجده هو: «الحسين أبو على بن الحسن بن على بن إبراهيم بن محمد بن أبى بكر بن عمر

ابن على بن عثمان بن حسن بن محمد بن موسى بن يحيى بن عيسى بن محمد ابن حسن بن على بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب).

بمعنى أن السلطان أبا العلاء أحد الجواهر من كنوز آل بيت رسول الله ﷺ فى مصر، ويبدو أنه جاء من أم القرى - مكة المكرمة - فى الأربعينات من عمره، جاء فى قمة تقواه، بعد أن قرأ عن أسلافه الكرام تفضيل كثير منهم أن يذهب إلى مصر ليعيش ويدفن فيها.

وفى مصر، شاهد علماءها والتقى بهم، ودرس أحوال الناس، وبدأ يدعو إلى الدين القويم. وربما لاقى الكثير من الصد والهجران، حتى أنه فضل أن يذهب إلى منطقة نائية نسبيًا عن قاهرة المعز، ليختفى فيها هناك. لكن الذين عرفوه، وعرفوا شريف منبته وصدق تقواه وعلمه، ذهبوا وراءه إلى هناك - فى بولاق - فكما يقول الأثرى عبد الوهاب إن الصوفية فى مصر التفت حول هذا الولى الصالح وكانوا يجلونه، ووصفوه بأنه «صاحب كرامات ومكاشفات، بل إنهم بالغوا فى كراماته».

يقول الإمام الشعرانى فى طبقاته، وهو فى تقديرى أشهر من كتب عن السلطان أبى العلا: «كان رضى الله عنه من أكمل العارفين، وأصحاب الدوائر الكبرى. وكان كثير التطورات، ومكث نحو أربعين سنة فى خلوة مسدود بابها، ليس لها غير طاقة. وكان من لا يعرف أحوال الفقراء، يقول هذا كيماوى سيماوى. وكان رضى الله عنه بريئًا من جميع ما فعله أصحابه من الشطح الذى ضربت به رقابهم فى الشريعة».

وكلام الإمام الشعرانى بين سطوره الكثير مما يمكن أن يلقى الأضواء على حياة السلطان أبى العلاء فى بولاق. فمعنى أن يصف السلطان أبى العلاء بأنه كثير التطورات، هو تعبير يعرفه الصوفية. ويفسر بأن هذا القطب فى بولاق كان من الصوفية الذين بلغوا درجة كبيرة من عبادة الله وفى مرضاته. وحين يكون العبد خالصًا فى مرضاة الله، فإنه يبلغ درجة من الشفافية. فالله يكون أقرب إلى عبده المؤمن الصادق من حبل الوريد. ولا شك أن السلطان أبا العلا فى السنوات

الأربعين التى قضاها فى خلوته.. قد ظل فى خاله «وله» دائم بذات الله جل جلاله. ومن هنا تأتى المكاشفات، وتغيرات الأحوال والتطورات والتقلب الذى لا يثبت على حال.

وفيها قاله الإمام الشعرانى نأتى إلى عبارته: «من لا يعرف أحوال الفقراء يقول هذا كيماوى سيماوى».

والفقراء فى تعبير الشعرانى، هم الصوفية، الفقراء إلى الله وليس إلى عبيده. بمعنى أن السلطان أبا العلاء كانت له ولاية ـ كما تقول الصوفية ـ والولاية درجة عالية من الصلاح والتقوى. والكرامات جعلت البعض ـ غير المؤمن ـ لا يصدقها. ويصفها بأنها من فعل ساحر أو من فعل الكيمياء. لكن الذين يقتربون من هؤلاء الفقراء ـ الزهاد العباد الصالحين ـ يتغير مفهومهم، ويصبحون من المريدين المصدقين، بل المتحمسين. لأن هؤلاء الزهاد العابدين المتصوفة بينهم وبين الله جل جلاله عمار، وأى عمار.

ولذلك، فليس غريبًا أن يصفه الشيخ توفيق على حسن فى كتيبه بعنوان «رسالتى فى مناقب السلطان أبى العلا الحسينى»، حيث يقول «إنه كان رضوان الله عليه من العباد الزاهدين والنساك العارفين، وصل فى المعرفة درجة عالية، وفى الولاية مكانة سامية، أفاض الله عليه بكثير من أسراره، وخصه بوافر بره ونفحاته، اعتزل الناس ليتفرغ لعبادة ربه وخالقه. مكث أربعين سنة فى خلوته، وليس بالخلوة نوافذ غير طاقة يأتيه منها أكله وشربه بواسطة أتباعه ومريديه، وذلك ليبتعد عن شرور الخلق ومظالم الناس. عاش رضوان الله عليه عمرًا يزيد على المائة والعشرين، قطعه كله فى طاعة الله وعبادته، فأكرمه الله تعالى بمنزلة أوليائه ودرجة أحبائه، والله يصطفى من يشاء من عباده ولا حرج، ويهب من يريد أسراره ولا مانع. فضل الله يؤتيه من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير».

والواقع أن مجىء السلطان أبى العلاء إلى القاهرة فى ذلك الوقت، ومحاولة لوى أعناق العصاة إلى الإيمان، كانت جرأة فى حد ذاتها، فالقاهرة كانت من العواصم الإسلامية الزاخرة بالعلم والإيمان والمجادلات، التى لا يمكن أن يجرؤ على الخوض

فيها إلا من بلغ الثقة بالنفس وصدق العقيدة كما يبدو أن بعض الذين التفوا حواليه أساءوا كثيرًا إليه فكان ما كان ـ كما يقول الشعرانى ـ من محاكمتهم.

* * *

فى مسجد السلطان أبى العلاء، وحول ضريحه سمعت كثيرًا حول هذه اللؤلؤة من لآلئ آل بيت رسول الله ﷺ. وفى أحياء بولاق، بل وفى خارج بولاق سمعت الكثير أيضًا.

سمعت الكثير من القصص والكرامات عن السلطان أبى العلاء، ومن خلال ما سمعت عثرت على الكثير مما يلقى الأضواء على هذا الولى من أولياء الله.

وقرأت أيضًا كل ما استطاعت أن تصل إليه يداى عن السلطان أبى العلاء وخرجت بلمحات عن قطب بولاق. منها أنه ـ رضى الله عنه ـ وجد الكثير من المكابرين والمعارضين، لأنه كان يسير فى طريق الحق. وبالطبع فإن هؤلاء الأقطاب يزدادون صلابة وتضحية فى سبيل المبادئ والمثل العليا.

وكان الذين حاربوا هذا الولى، يتهمونه بعمل الكيمياء فى خلوته. ولذلك، فقد أغروا به السفهاء وحرضوا عليه الجهلاء إلى حد الرمى بالحجارة، لكنه صمد لأنه مع الله. واستطاع الكثير من المعارضين أن يهتدوا، ويصبحوا من الصادقين المصدقين.

شاهدت فى ضريح السلطان أبى العلاء، سيدات ورجالا، يقبضون على الهواء، ويضعون قبضاتهم فى ستراتهم، ثم يخرجون أيديهم مفردة مثلما يفعل المغاربة فى مقبرة الرسول فهم يدخلون أيديهم فى الطاقة ويخرجونها ليعروها فى ستراتهم.

والواقع أن الناس حين تثق بصدق ولى من أولياء الله وبركاته، تأتى إليه. وهذه الثقة بالطبع جاءت من الكثير من الممارسات، والكرامات التى تنسب للولى من جيل إلى جيل. وهم يأتون إليه لاعتقادهم بأن ضريحه من الأماكن الطاهرة، التى يمكن فيها أن تستجاب دعواهم من الله العلى القدير. والسلطان أبو العلاء كان من أصحاب الولاية الذى كان ـ فى حياته ـ يأتيه السائلون فيقبض على الهواء

ويعطيهم أو يقبض على التراب ويعطيهم حفنات منه. إن الذى يأتى إلى ضريح السلطان كمكان طاهر، يكون قريبا من الله. فالملائكة ترفرف حول الطهارة والتقوى والنورانية.

ويقول الصالحون من أهل بولاق، وكيف لا تظهر كرامات لأولياء الله الصالحين، والسلطان أبو العلاء منهم. والله جل جلاله تفضل على عباده المخلصين ﴿... لهم ما يشاءون عند ربهم﴾. ومن الحديث القدسى يقول الله جل جلاله: «ما تقرب إلى عبدى بمثل ما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها. ولئن سألنى لأجيبنه، وإن استعاذنى لأعيذنه».

ثم سمعت أيضًا الكثيرين يتحدثون حول معجزات الرسل وكرامات الأولياء ويقولون: أتنكر على أولياء الله الكرامات؟

إن من ينكرها جاحد، جاهل، معاند ومكابر.

والواقع أن أولياء الله الصالحين، هم أفضل عباد الله إلى خالقهم. وهؤلاء - بلاشك - فى درجات عند الله سبحانه وتعالى، عالية. والإيمان هنا هو الذى يستطيع أن يحدد ويوضح ويفسر بركات هؤلاء. وأقول (الإيمان)، وأقصد بذلك (إيمان) العبد الصالح وإيمان هؤلاء الذين (يعتقدون) أنهم فى رحاب الصالحين من الممكن أن يستجيب الله لدعواتهم الصالحات.

❋ ❋ ❋

كيف تحولت. زاوية ولى الله (السلطان أبو العلاء) إلى مسجد يعتبر من أقدم مساجد القاهرة وأهمها؟

من الثابت أن السلطان أبا العلاء حين اعتكف فى خلوته، ازدحمت بولاق بالساكنين من أجل نيل بركات هذا الولى الصالح. ويقال إن السلطان أبا العلاء طلب من أحد تجارها، وهو الخواجا (أى السيد بالفارسية) نور الدين بن على الفنيش البرلسى، أن يجدد زاويته وخلوته، حتى تتسع لزائريه ومريديه الكثيرين.

وأن هذا التاجر كان سروره عظيمًا لاصطفائه بالقيام بهذه الرغبة الكريمة. فبادر بالبناء وأنشأ المسجد المعروف باسم (أبو العلا)، كما ألحق به - حسبما تقول د. سعاد ماهر - قبة، دفن فيها الشيخ أبو العلاء حينما توفى عام ٨٩١هـ. أو عام ٨٩٥هـ.

ويقول حسن عبد الوهاب إن الخواجا البرلسى بنى المسجد قبل أن يلاقى الشيخ أبو العلاء وجه ربه. وقد كان ذلك فى عهد السلطان قايتباى، الذى حكم من عام ٨٧٢هـ إلى ٩٠١هـ. وهذا السلطان كان متدينًا، محبًّا للأولياء والصالحين. وكان أكثر سلاطين المماليك شغفا بالبناء كما يقول د. على إبراهيم حسن فى كتابه (مصر فى العصور الوسطى). وكما يقول ابن إياس: «لا يعلم لأحد من الملوك آثار مثله، ومثل مماليكه، وقد تزايدت فى أيامه الديار المصرية والبلاد الشامية فى العمائر مقدار النصف من جوامع وقناطر، وغير ذلك».

وقد كان بناء المسجد - ولا يزال - من أفخم البنايات فقد حلى بزخارف ونقوش وكتابات بالقبة والمنارة. ففى القبة يقرأ الذى يدقق فيها ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين. والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ وفوق هذه الكتابة محفور (بارليف) بكتابة أندلسية «أنشأ هذا المكان المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى الخواجا نور الدين محمد بن الفنيش غفر الله له. لسيدنا ومولانا الشيخ حسين أبو على نفعنا الله ببركاته فى الدنيا والآخرة».

وكما يقول الأثرى حسن عبد الوهاب، أن الغالب على تصميم المسجد، أنه وقت بنائه كان على طراز مدرسة ذات ٤ أيونات متعامدة غنية بالنقوش والكتابات، كما تنبئ بقاياها القديمة التى تنحصر فى الباب البحرى مع قسم من الوجهة البحرية والشرقية والقبة والمنارة. وهذا الباب الذى يدخل منه المصلون الآن كان بابًا للضريح. وكان الباب العمومى هو الذى يقع فى حارة السر الآن، ومكتوب عليه ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾.

أما باب الضريح فمكتوب عليه بالخط الكوفى:

قف على الباب خاضعًا حسن الظن والتجى
فهو باب مجرب لقضاء الحوائج

وتحت هذين البيتين كتابة تاريخ سنة ثلاثة وستين ومائتين وألف للهجرة. وفى على باشا مبارك (الخطط الجديدة) يقول واصفًا مسجد السلطان (أبو العلاء): «هو جامع عامر، مقام الشرائع إلى الغاية، له ثلاثة أبواب أحدها على الشارع وهو الباب الكبير، والثانى تجاه المقام غربى الجامع موصل لعطفة ضيقة، والثالث للميضأة. ويشتمل على ليوانين (إيوانين) وثمانية أعمدة من الرخام، ومنبره من الخشب النقى المنزل بالعاج. ومحرابه مكسو بالرخام المقسم، ومنارته مرتفعة عليها نقوش كثيرة، منها سورة (تبارك) بتمامها وعلى سفحه مزولة، وبداخله ضريح سيدى أبى العلاء الحسينى، عليه قبة عظيمة، ومقصورة من الخشب المنزل بالصدف والعاج. والظاهر أن قولهم أبو العلاء الحسينى من التحريف، وإنما هو الحسين أبو على».

ومن الأجزاء الباقية القديمة فى المسجد المنبر، وهو - كما يرى الأثريون - من روائع النجارة فى عصره بل ومن مفاخر المنابر الإسلامية فى دولة المماليك الجراكسة. فقد طعمت حشواته بالسن والزرنشان، وامتازت جوانبه وأبوابه بتقاسيم فريدة، وخاصة فى دائرته الكبرى التى تتوسط ريشتى جانبيه، فإنها لم توجد فى منبر آخر، مع ما فيها من شذوذ. وما يزيد أهمية المنبر - حسب رأى الأثرى حسن عبد الوهاب - اشتماله على اسم صانعه فوق بابه بما نصه «نجارة العبد الفقير إلى الله تعالى، الراجى عفو ربه الكريم على بن طنين بمقام سيدنا حسين أبو على نفعنا الله به».

ويروى البعض أن المنبر من عمل أهل الهند، أوصى على صنعه هناك نور الدين ابن على الفنيش. وعند قرب وصول المنبر للسويس، ذهب هذا الرجل ليحضره، فعاجلته المنية فى السويس، ودفن بها وقبره هو المشهور باسم (سيدى محمد الغريب).

* * *

والواقع أن دولة المماليك، اهتمت اهتمامًا كبيرًا بمسجد السلطان أبى العلاء حتى أنها مدت جسرًا وسط الأراضى الزراعية شرقى النيل. التى كانت تمتد من بولاق حتى شارع رمسيس الحالى. ليواصل هذا الكوبرى بين النيل وبين حدود قاهرة المعز.

ولقد تواترت على المسجد عمارات كثيرة، منها فى سنة ١١٤٥ هـ. (١٧٤١ م). وأخرى فى سنة ١٢٦٣ هـ. (١٨٤٧ م). حيث حدث فى عهد الخديو اسماعيل خلل فى القبة وأمر بترميمها وإصلاحها. كما أعقب ذلك تلك العمارة التى قامت بها لجنة حفظ الآثار العربية فى الفترة من ١٩١٥ إلى ١٩٢٠ حيث أجرت به إصلاحات شاملة. وأنشأت فى واجهة المسجد البحرية سبيلا يعلوه كتاب لتحفيظ القرآن الكريم، وفكت أحجار المنارة وأعادت بناءها، وأكملت قمتها طبقًا لمنارات عصرها.

وبقى مسجد السلطان أبى العلاء موضع الرعاية والاهتمام باعتباره حرم بولاق.. حتى سقط سقف إيوانه الشرقى أثناء الاحتفال بمولد هذا القطب فى ١٣ يوليو ١٩٢٢. وقد تعطلت إقامة الشعائر فى المسجد، حتى جددته وزارة الأوقاف فى عام ١٩٢٥ لكنها أبقت على القبة والمئذنة والجزء القديم كله، وزادت مساحته من ٨٤٣ مترًا إلى ١٢٦٤ مترًا. وقد تكلفت هذه العمارة ١٧ ألفًا من الجنيهات. وقد راعت الأوقاف أن تكون أبوابه ثلاثة، لكنها ابتكرت فى عمارته طريقة لعمل السقوف الأثرية بالأسمنت المسلح.

وقد كان بالمسجد مغطس لاستحمام المصلين، يأتى إليه الماء من ساقية مجاورة وكان له ـ قرب المنارة ـ بئر ـ لا يزال ـ وقد قامت الأوقاف بإلغاء المغطس والبئر. حين افتتح المسجد ثانية عام ١٩٣٦.

إن قبة السلطان أبى العلاء، رغم أنها من الخارج قبة عادية، تشبه القباب الأولى فى العصور الإسلامية، فإن داخلها مملوء بالنقوش الملونة، ومحفور فيها كتابات وآيات، لا بد من الاهتمام بها حتى لا تتلاشى نهائيا.

وضريح السلطان (أبو العلا) تحت القبة، يضم جسده الطاهر كما يضم خمسة من

أجساد الصالحين والمريدين دفنوا إلى جواره وهم: الشيخ عبيد، الذى كان معاصرًا للسلطان والذى قيل إنه رضى الله عنه كان مثقوب اللسان لكثرة ما ينطق به من ذكر الله. ولكثرة ورعه وتقواه. هذا بالإضافة إلى جسد. الشيخ أحمد الكعكى الزاهد، والذى ـ كما يقول الجبرتى ـ كان كثير الغوص فى علم التوحيد، وقد توفى سنة ٩٥٣ هـ. ثم جسدى الشيخين مصطفى البولاقى، ورمضان البولاقى. وأيضا جسد السيد على حكشة، وكان من الصالحين الزاهدين، ويحكون عنه روايات كثيرة.

وبعد، فهذا هو السلطان أبو العلاء، وهذا هو مسجده، الذى يعتبر منارة إيمان عالية فى حى بولاق العريق. والذى يحتفل البولاقيون ومعهم الكثير من المؤمنين بمولده كل عام، وهو احتفال معناه تدعيم الإيمان، وتمثل حياة الصالحين من أولياء الله الكرام. وآل بيت رسول الله ﷺ.

سيدى إبراهيم الدسوقى
وفقراء التصوف

هذا القطب الصوفى.. بحق، يعتبر أحد فلاسفة التصوف الإسلامى الكبار. وفلسفته الصوفية، استطاعت أن تلفت الأنظار، لا فى مصر وحدها، أو عالم الإسلام كله فقط، وإنما هو أيضًا تخطى حدود «دار الإسلام» إلى الخارج.

فكما تعرفه أروقة جامعاتنا، تعرفه أيضًا أروقة جامعات العالم الكبيرة. داخل رحاب الدراسات الفلسفية الإسلامية واهتم به المستشرقون أيما اهتمام. إن فكره الصوفى وفلسفته، تعرفها جامعة ليدن بهولندا، كما تعرفها جامعات ألمانيا. وله قصيدة مشهورة من مقتنيات المتحف البريطانى فى لندن.

وهذا القطب الكبير، أثمر علمه واجتهاده، وتوفره على المعرفة. أثمر مؤلفات كثيرة. أغلبها تسرب إلى خارج مصر. حتى ليقال إنه لا يوجد فى مصر من مؤلفاته سوى جزء أول من مخطوط له بعنوان (الجواهر). أو الحقائق فى دار الكتب المصرية، اطلعنا عليه. وبعض شذرات من مجموعات أوراده وابتهالاته. وأشهرها (الحزب الكبير).. و (الحزب الصغير) و (حزب التحصين)، و(حزب التوسل). كما أن له كتابًا مشهورًا وهو (شرح الدسوقى على متن الغاية) للقاضى أبى شجاع، وهو كتاب خاص بالفقه الشافعى، الذى تفقه هو فيه، وفطم عليه منذ أوائل أيامه.

وكان هذا القطب حقًّا، من النابهين.

قرأ ودرس وعرف لغات كثيرة. منها الفارسية (أو الأعجمية)، والسريانية، والعبرية، والزنجية. بالإضافة إلى العربية بالطبع. ويضيف إليها البعض (لغات الطيور والوحوش) كما يقول مؤرخو سيرته!

والقطب الصوفى الذى نتحدث عنه هو سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه. الذى أضاءت أنواره فى القرن السابع الهجرى فى مصر، ضمن أنوار صوفية أخرى، بالقرب من دسوق، وهى مدينة طنطا أو (طندتا)، التى عاش فيها سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه. وكان هذان القطبان الصوفيان متعاصرين. وقد لاقى سيدى أحمد البدوى وجه ربه قبل سيدى إبراهيم بخمسة عشر عامًا. هذا بالإضافة إلى آخرين من الصوفية ترصعت بهم أرض مصر، فى القرن السابع الهجرى، وما بعده من قرون.

لكن لماذا القرن السابع بالذات. كثرت فيه الطرق، وتعددت أسماء الأقطاب؟

الحق أن هذا القرن بالذات، كان زمانًا وصفه سيدى إبراهيم الدسوقى بقوله:

«إن القلب فى هذا الزمان متعب، والقلب كل وقت يذوب، فأين الملجأ وأين المفر من أهل هذا الزمان؟.. زمان كثر فيه القيل والقال. ولكن الذى بلانا بأهله، يدبرنا ويعيننا بحوله وقوته»!

هذا الزمان ـ القرن السابع الهجرى، وما سبقه من سنوات ـ كان زمانًا انتشر فيه الجهل، وترك كثير من الناس دينهم، وفى هذا الزمان سلط الله على أمة الإسلام بذنوبها من لا يرحمها.

سلط التتار، أو المغول، الذين اجتاحوا أمة الإسلام، وفعلوا بالمسلمين ما لم يفعله قط غاز رهيب، كان التتار تسبقهم الرهبة فى زحفهم، وكانت تسبقهم المذابح والقتل والحرق والنهب. بل إن التتار قفزوا على عاصمة الخلافة الإسلامية فى بغداد. قتلوا الخليفة وحرقوا مكتبة بغداد العامرة بالنفائس وعيون الكتب، ونثروها فى نهر دجلة وأشعلوا فيها النيران وكأن القيامة قد قامت.

وليس التتار وحدهم الذين اجتاحوا أمة الإسلام. كما قلنا.

إن الصليبيين توجوا غزواتهم لمصر والشام، بحملة لويس التاسع على دمياط وهؤلاء الصليبيون الذين تخفوا تحت ستار دعوة دينية، كان هدفهم هزيمة الإسلام والمسلمين. كانوا يعتبرون حملتهم ردًّا على المسلمين الذين فتحوا إسبانيا، ووصلوا

جنوب فرنسا أيام الأمويين. وكانوا يهدفون كذلك الفوز بالأسلاب والغنائم.

وبالفعل، وصل الصليبيون دمياط، وساروا يطلبون مصر، وعاصمتها القاهرة. وأوشكوا أن يحققوا أهدافهم. لكن مصر ردتهم على أعقابهم، وأسرت لويس التاسع فى المنصورة، وحبسته فى دار ابن لقمان.

كما أن التتار، الذين زحفوا من مشرق العالم الإسلامى. أوقفت مصر زحفهم، وهزمتهم عند غزة. وكانت معركة «غزة» أول معركة نفسية أو سيكولوجية يهزم فيها التتار، الذين لا يقهرون.

والسؤال هو: لماذا مصر بالذات هى البقعة من أرض الإسلام التى هرع إليها أقطاب التصوف، وفضلوا العيش فيها والدعوة إلى طرقهم؟..

والسؤال من السهل الإجابة عليه.

فمصر حينئذ، كانت ـ دائماً ـ قلب القوى المكافحة عن الإسلام، وهى كنانة الله فى أرضه، وهى الأرض التى ترصعت بلآلئ من آل بيت الرسول ﷺ. وهى الأرض الطيبة أرض الرسالات والمعتقدات، وأرض التدين، والأمن والأمان.

* * *

شيخ الإسلام أبو العينين، سيدى إبراهيم الدسوقى، من مواليد مصر، ومدينة دسوق بالذات. وهو رضى الله عنه جوهرة من جواهر آل بيت الرسول ﷺ الذين عاشوا فى مصر، ودفنوا فى ثراها. ويقولون إن سيدى إبراهيم الدسوقى يلتقى مع سيدى أحمد البدوى فى الجد العاشر. وهو ينتمى إلى الدوحة المباركة التى ينتمى إليها سيدى أحمد البدوى، وسيدى حسين أبو على أو «السلطان أبو العلا».

وكما يؤكد مؤرخو سيدى إبراهيم الدسوقى، فهو قرشى الأصل ويقولون إنه ينتهى نسبه إلى الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام على زين العابدين بن مولانا الإمام الحسين بن على بن أبى طالب. رضى الله عنهم جميعًا وأرضاهم. فسيدى إبراهيم الدسوقى هو ابن إبراهيم بن عبد العزيز بن على ابن قريش بن محمد الرضا بن محمد أبى النجا.

كما أن السيدة والدة سيدى إبراهيم الدسوقى - كما يروى جلال الدين الكركى، فى كتابه «لسان التعريف بحال الولى الشريف سيدى إبراهيم الدسوقى» - هى السيدة فاطمة، ابنة ولى الله أبى الفتح الواسطى. وكان سيدى أبو الفتح الواسطى من أصحاب سيدى أحمد الرفاعى قطب التصوب الكبير، كما كان من شيوخ أبى الحسن الشاذلى.

وقد اختلف المؤرخون حول مولد سيدى إبراهيم الدسوقى. فقد ذكر الإمام الشعرانى، والإمام المناوى، والعارف النبهانى، أن سيدى إبراهيم من مواليد عام ٦٣٣ الهجرى. لكن جلال الدين الكركى والكثير من المؤرخين يرون أن التاريخ الصحيح لميلاد سيدى إبراهيم الدسوقى هو ٦٥٣ هجرية، فى ليلة ٣٠ شعبان من هذا العام لكن كلهم يتفقون أن سيدى إبراهيم مات فى مقتبل عمره، إذ لاقى وجه ربه وهو فى الثالثة والأربعين من عمره. وأنه عاش لم يتزوج مثل سيدى أحمد البدوى.

ونحن مع الذين يقولون إن سيدى إبراهيم من مواليد منتصف القرن السابع الهجرى، فلقد عاصر السلطان الظاهر بيبرس، وعاصر أيضا السلطان الأشرف خليل بن قلاوون فالظاهر بيبرس توفى عام ٦٧٦ هـ. «١٢٧٧ م». كما أن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون تولى السلطنة من ٦٨٩ إلى ٦٩٣ هجرية. «١٢٨٩ - ١٢٩٣ م». وهى الفترة التى عاش فيها سيدى إبراهيم الدسوقى. وقد مات سيدى إبراهيم فى سنة ٦٩٦هـ . أى بعد موت الأشرف خليل بن قلاوون بثلاث سنوات.

* * *

والذين أرخوا لحياة سيدى إبراهيم الدسوقى، رضى الله عنه، يقولون إنه كان نابغة منذ نعومة أظفاره، وأنه فطم على التدين والورع والتقوى. كما فطم على التعاليم الصوفية من ناحية أبيه، ومن ناحية أمه أيضًا.

فقد حفظ القرآن الكريم، وتفقه على مذهب الإمام الشافعى فى سن مبكرة، وكان ميالا إلى القراءة والتحصيل والتفقه فى أمور الدين، وقد عكف على التحصيل

فى خلوة فى مدينة دسوق، دخلها وأقام بها زمنًا طويلا، ولم يخرج منها إلا وعمره ثلاثة وعشرون عامًا. وخروجه منها كان بسبب موت والده. خرج ليدفنه ويعود إلى الخلوة مرة أخرى. ولكن بعض فقراء الصوفية، حلفوا عليه ألا يدخلها، فجلس تجاهها. وكان أن قطع الناس أسباب معاشهم، واشتغلوا بالجلوس إليه. ويقول المؤرخون: إن سيدى إبراهيم أرخى له برقعًا على وجهه، حتى لا يفتن الناس، وينشغلوا بالتطلع إليه.

والدسوقى أيضا من خلال مؤرخيه. كان ذا ميل شديد إلى حب المعرفة والثقافة الواسعة فهو قد حفظ القرآن فى الثانية عشرة من عمره وكذلك حفظ الأحاديث النبوية الشريفة. وكانت له حافظة قوية، ودأب على القراءة. وكان يعد نفسه ليكون قطبًا صوفيًّا ذا ولاية. ولهذا درس السلف، كما تعمق فى المجتمع الذى عاش فيه وتفاعل به، ويقولون على سبيل التدليل: إن الدسوقى رضى الله عنه حين أرسله والده إلى أحد المدرسين فى الكتاتيب التى كانت فى دسوق، رده العريف إلى والده، وقال له «ابنك أعلم منى». وبجانب عكوفه على العلم، وبعد أن خرج من خلوته ليفتى الناس فى أمور دينهم ودنياهم. كان دائمًا يوصى أتباعه بالعمل، وهو نفسه احترف صناعة الحصير والفخار.

ولهذا، فإن سيدى إبراهيم الدسوقى جعل من نفسه نموذجًا لأتباعه ومريديه وأهل طريقته التى أطلقوا عليها «الطريقة البرهمية».

فالتصوف عند سيدى إبراهيم الدسوقى، ليس فى لبس الصوف، وإنما الصوف من بعض شعار الصوفية. ولذلك يقول لأحد مريديه:

«يا ولدى، البس قميص الفقر النظيف الظريف. فما الأمر بلبس الثياب، ولا بسكنى القباب، ولا بلبس الصوف، إنما الفقر أن تخلص عملك بقلبك».

والتصوف عند سيدى إبراهيم، ليس كما نراه الآن من بعض الذين يسيئون إلى التصوف. إنه ليس أن تلبس الصوف، وليس عدم النظافة ومجافاة الاستحمام، هذه فى رأى سيدى إبراهيم أشياء منكرة، لابد للفقير – أى الصوفى – أن يقلع عنها. وكيف لا وديننا الإسلامى الحنيف دين نظافة وطهارة.

والتصوف أيضًا عند سيدى إبراهيم ليس التعطل. إن التصوف جهاد وعمل فى سبيل الله. وهو التشدد فى تحصيل العلم والمعرفة، والتفقه فى أمور العقيدة. والعمل عبادة بلاشك. والمؤمن العامل خير من المؤمن الكسول القاعد. والسعى إلى الرزق هو سعى إلى العبادة الصحيحة. ولذلك فإن سيدى إبراهيم الدسوقى كان من تعاليمه لأبنائه الفقراء «المتصوفة» الآتى:

* حياة العبد لا تكون إلا بالعلم والعمل.
* إذا جمع الله العلم والعمل فى رجل، أفاد منه الناس.
* العلم أساس العمل.
* العلم أعظم موعظة من الأقوال، فإذا رآك الذين بالعمل عاملا سمعوا وعلموا، فإن رأيت عمالا، فلا تعظهم، فعظتهم أعمالك.
* كلما أخلص العبد عمله، كلما هطل المدد عليه.

فالتصوف كما يراه، فيلسوف التصوف، سيدى إبراهيم الدسوقى، هو طريق الله، وليس معنى هذا أن يكون انعزالا ومجافاة للمجتمع. ولذلك فإن سيدى إبراهيم كان دائمًا يوصى تلامذته ومريديه بقوله: «ازهدوا عما فى أيدى الناس، وكونوا عاقلين، ولا تلتمسوا من أحد درهمًا ولا دينارًا. فهذه هى طريقتى».

* * *

كان سيدى إبراهيم فيلسوفًا للتصوف بحق.

والذى يقرأ رسالة الماجستير، التى قدمها لجامعة القاهرة، الباحث على محمد سعيد، يتضح له أن سيدى إبراهيم كان قطبًا كبيرًا ومعلمًا وفيلسوفًا، وأنه من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين منحهم الله تعالى جلت قدرته، أسباب النجاح والفلاح، ونور بصيرتهم وبصرهم.

ويصرح سيدى إبراهيم الدسوقى فى كتابه «الجواهر» و«الجوهر» أو «الحقائق» أن شيخه الذى أخذ عليه العهد إنما هو جده رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويقول: «إن النبى صلى الله عليه وسلم، أخذ على العهد بيمينه، وصار

يكشف لى عن الأمور، ويفتح لى أقفال الحجب». كما نسب إلى سيدى إبراهيم أنه قال أيضًا «أخذت الطريقة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعهد البيعة عن القطب أبى الحسن الشاذلى».

وما يقوله سيدى إبراهيم له معنى كبير فيما أعتقد، وحسب ما يصل إليه اجتهادى والمعنى، هو أن سيدى إبراهيم يريد أن يقول، إنه يعود فى نبع طريقته وتعاليمه إلى القرآن والسنة المحمدية أساسًا. وهذا يتفق بالطبع مع تعاليم أقطاب الصوفية الذين سبقوه والذين جاءوا بعده. ومنهم بالطبع سيدى أحمد البدوى. ولذلك يقال إنه فى «الخلوة» التى جلس فيها سيدى إبراهيم الدسوقى على انفراد مع ربه. كان يجلس قانتًا متبتلا، يسبح فى بحار القرب، بروح عشقت أنوار الذات، تغمدها نفحات التجليات. وقد قال سيدى إبراهيم شعرًا وكان شاعرًا كبيرًا، ولكنه ليس كالشعراء الذين يتبعهم الغاوون، يقول:

شربت دنان الصرف فى حضرة الرضا وكان دليلى فى الهدى.. سيد العرب

من هذا النبع الربانى، وهو القرآن الكريم، وسنة رسول الله الكريم صلى الله عليه وسلم، جاءت فلسفة التصوف عند سيدى إبراهيم. ولهذا صار هذا القطب الصوفى الكبير، كما يصفه سيدى عبد الوهاب الشعرانى، فى ترجمته له:

«.. له المعراج الأعلى فى المعارف، والمنهاج الأسنى فى الحقائق، والطور الأرفع فى المعالى، والقدم الراسخ فى أحوال النهايات، واليد البيضاء فى علوم الموارد، والباع الطويل فى التصريف الناقد، والكشف الخارق عن حقائق الآيات، والفتح المضاعف فى معنى المشاهدات».

ويضيف الإمام الشعرانى قائلا:

«وهو أحد من أظهره الله عز وجل إلى الوجود، وأبرزه رحمة للخلق، وأوقع له القبول التام عند الخاص والعام، وصرفه فى العالم ومكنه من أحكام الولاية، وقلب له الأعيان، وخرق له العادات، وأنطقه بالمعنيات، وأظهر على يديه العجائب، وهو فى المهد يرضى الله عنه».

أما الشيخ جلال الدين الكركى، فهو يرى أن سيدى إبراهيم الدسوقى، كان إذا ألبس أصحابه خرقة الفقر - أى التصوف - يقول: «تلقيتها عن سيد الأولين والآخرين، اعلموا - ألبسنا الله وإياكم لباس حبه، وألحقنا وأنتم بموجبات قربه - أن العارف قد يجذبه الله إليه، فلا يجعل عليه منة لأستاذ، وقد يجمع شمله بالنبى صلى الله عليه وسلم، فيكون آخذًا عنه. وكفى بهذا منة».

وقد روى أنه جاء لسيدى إبراهيم رجل يقول له: أريد أن أسلك طريق الحقيقة. فرد عليه سيدى إبراهيم قائلا:

«يا ولدى: الزم أولا طريق النسك على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. فإذا عملت بهما، انقدح لك منها علم الحقائق والأسرار، فاسلك يا أخى - كما قلت لك - على التدريج شيئًا بعد شىء، والله يحفظك إن صدقت».

وهذا - بالطبع - يعنى أن الطريقة البرهمية - أو البرهامية - قائمة على الكتاب والسنة. ولذلك - وكما أوثر عن سيدى إبراهيم - «إذا عمل الفقير على نسق الاتباع الشرعى، تروحنت نفسه، وصارت روحانية لطيفة نورانية، تجول جولان السن والقلب والمعنى».

لكن ليس كل واحد يستطيع أن يدخل الطريقة البرهمية، فهذه الطريقة أو الطريق إلى الله عمومًا. هو «طريق صعب، وليس سهلا، طريق تضنى فيه الأجساد، وتدفع السهاد، وتفنى الجلاد، وتفتت الأكباد» لكن من يواصل الطريق، فالنتيجة كما يرى سيدى إبراهيم الدسوقى «فإذا ارتفع الحجاب، سمع الخطاب، وقرأ من اللوح المحفوظ الأمور، واطلع على معان دقت، وشرب بأوان رقت.. و..».

أى أن الصوفى الحق، هو الذى يصل، وهو الذى يفنى فى الذات الإلهية.

وهذه كما يقول سيدى إبراهيم الدسوقى «طريقتنا، طريق تحقيق وتصديق، وجهد، وعمل، وتنزه، وغض بصر، وطهارة يد، وفرج ولسان. فمن خالف شيئًا منها رفضته الطريق، طوعًا أو كرهًا».

وما أكثر تعاليم سيدى إبراهيم الدسوقى لأبنائه الفقراء. يقول:

«من لم يكن متشرعًا متحققًا نظيفًا عفيفًا شريفًا، فليس من أولادى، ولو كان ابنى لصلبى. وكل من كان من المريدين ملازمًا للشريعة والحقيقة والطريقة والديانة والصيانة والزهد والورع، والتقوى، فهو ولدى، وإن كان من أقصى البلاد».

إن سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه، وضع نظامًا إسلاميًّا عقائديًّا قاسيًا لكل من يريد أن يسير على طريقته.

وهذا النظام يشبه إلى حد كبير الطريقة السطوحية، المنتمية لسيدى أحمد البدوى. فالصوفى كما يراه سيدى إبراهيم الدسوقى هو:

«لا يكون الفقير فقيرًا، حتى يكون حمالا للأذى من جميع الخلايق. فلا يؤذى من يؤذيه، ولا يتحدث فيما لا يعنيه ولا يشمت بمصيبة أحد، ولا يذكر أحدًا بغيبة، ورعًا عن المحرمات، موقوفًا عن الشبهات. إذا بلى صبر. وإذا قدر غفر. غضيض الطرف، يعمر الأرض بجسده، والسماء بقلبه. طريقه الكظم والبذل والإيثار، والعفو، والصلح، والاحتمال. لكل من يتحدث فيه بما لا يرضيه».

* * *

لقب سيدى إبراهيم الدسوقى بأبى العينين.

وهذه التسمية لها سبب.

فقد كان القطب الصوفى يقول:

«إنى أرى بعين الشريعة الحقيقة. فالشريعة هى الشجرة، والحقيقة هى الثمرة»
وكان أيضًا يقول:

«الحقيقة أصل، والشريعة فرع. فالشريعة ما ظهر من الشرع، والحقيقة ما خفى منه. وجميع المقامات متدرجة فيهما. ولكل منها أصل. والكامل من جمع بينهما - الحقيقة والشريعة - أى جمع بين طهارة الظاهر، وصفاء الباطن، فيكون عمله مطابقًا لسريرته».

والواقع أن سيدى إبراهيم كان بحرًا فى العلوم الشرعية، لا يدرك له قرار.

وطريقته تقوم على التبحر فى الشريعة. ولهذا وصفه عبد العال كحيل، بقوله:

«إن سيدى إبراهيم معدود عند الكافة بين القادة الصوفيين، الذين حققوا عمليًا فى مجالاتهم، منهجهم، الإلهى فى تربية الرجال الجديرين بخلافة الله فى الأرض».

وهذا يجعلنا نقول: إن سيدى إبراهيم لم ينشر طريقته إلا بعد عناء وجهد من الدراسة، فهو قد درس الطريقة الرفاعية، طريقة سيدى أحمد الرفاعى. كذلك درس فكر الشاذلية دراسة وافية، حتى أن السيد محمد توفيق البكرى حين تحدث عن سند «الطريقة البرهمية» قال: «أخذ سيدى إبراهيم الدسوقى عن سيدى أبى الحسن الشاذلى» ورغم أن الدسوقى رضى الله عنه- كما يقال- قد التقى بالشاذلى، لقاء سريعًا. فإنه، كما وصفه سيدى إبراهيم «كان لقائى السريع بالشاذلى، يساوى ربع قرن من العلم».

والثابت أن سيدى إبراهيم أيضًا، قد أخذ عن فكر سيدى أحمد البدوى، فالإمام الشرنوبى فى طبقاته ذكر لقاء بين سيدى أحمد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقى. وذكر ما دار من حوار فى هذا اللقاء، ومن قول سيدى أحمد البدوى للدسوقى:

أما تعلم أن الله تعالى حرم من يفرق بيننا؟

ويقول الدسوقى: نعم.

ويقول البدوى: أما تعلم أن الله تعالى لعن من يقول هذا على طريقة، وذاك على طريقة؟

قال الدسوقى: نعم.

قال البدوى: أما تعلم أن الله تعالى لعن من يقول، هذا له مجلس ذكر وهذا له مجلس ذكر؟

قال الدسوقى: نعم.

إن هذا الحوار الذى ذكره الشرنوبى، كما يوحى بوحدة الفكر الصوفى، لدى أقطاب التصوف، فهو أيضًا، قد أضاف إليه الدسوقى، كما أضاف إليه الذين سبقوه

والذين جاءوا بعده. وأن التصوف واحد، وإن اختلفت الأساليب. الأساليب تختلف باختلاف المفكرين الصوفيين. ولكن الهدف واحد. هو إعداد المؤمنين الصادقين المجاهدين فى سبيل الله وفى سبيل دين الإسلام.

والواقع أن سيدى إبراهيم الدسوقى رغم عظمته وصدقه وإيمانه، ورغم أنه يوصف بفيلسوف التصوف. فإنه كان يعتبر سيدى أحمد البدوى أستاذًا له. وشهد له أيضًا بالقطبانية.

وقد أخذ سيدى إبراهيم الكثير عن تعاليم السيد البدوى.

يقول أحمد الشرنوبى فى كتابه «مناقب الأقطاب الأربعة». إن الدسوقى كان يعلم تلاميذه طريق الخير، ويوجههم إلى الزهد والورع، وترك الأكل الكثير، وكثرة الذكر وملازمة مجالسه، ويوصى بترك الكبر، وحفظ العهد والأدب والأمانة، ويوصى بحفظ صلاة الليل، وقراءة القرآن، وطلب العلم الشريف، واتباع الكتاب والسنة، وحضور القلب فى الذكر والصلاة، وترك الكذب وفعل المحرم، وقول الزور والغيبة والنميمة .

ومن يقرأ تعاليم السيد البدوى لتلميذه عبد العال، يجد أن التعاليم متشابهة كما أن هناك تشابهًا بين سيدى أحمد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقى فى حياتهما.

فالاثنان لم يتزوجا، ونذرا نفسيهما لله.

مؤرخو سيدى إبراهيم الدسوقى ـ كمؤرخى سيدى أحمد البدوى ـ يذكرون له أنه أعد الرجال للجهاد ضد أعداء الإسلام، وخاصة الصليبيين. ويقولون أيضًا إن سيدى إبراهيم بشر السلطان الأشرف خليل بن قلاوون باستيلائه على حصن عكا فى عام ٦٩١هـ.

ويذكر لقاءه بالسلطان.

فقد كان سيدى إبراهيم الدسوقى شجاعًا لا يخاف فى الله لومة لائم. ويحكى الشيخ جلال الكركى، أن الدسوقى أرسل مرة للسلطان الأشرف خليل رسالة شديدة اللهجة بسبب ظلم اقترفه فى حق الرعية وقد غضب السلطان، وأرسل فى

استدعاء الشيخ. لكن الدسوقى رفض الانصياع للأمر، وقال: «أنا هنا، من يريدنى فعليه الحضور».

وقد جاء السلطان الأشرف خليل إلى دسوق، وبعد ما شاهد الدسوقى وفقراءه، ووقف على صدقه وكراماته وقوة حجته، اعتذر له بنفسه، عن خطأ الوقوع فى شرك الوشاية والوقيعة، وهنا يستقبله الدسوقى استقبالا حسنًا، ويبشره بانتصاره على الصليبيين.

ويقال إن السلطان الأشرف خليل، إكرامًا لهذا القطب الصوفى، ترك نصف الجزيرة المواجهه لدسوق وقفًا على أتباع الدسوقى، ينفقون منها على مصالحهم، ويستعينون بها على معاشهم.

كما يقال إن السلطان كان دائم السؤال عن الدسوقى، راجيًا دعواته وملتمسًا بركاته.

وكان الدسوقى يشجع أتباعه على الجهاد ضد الصليبيين، ويقول لهم: «يا أبنائى، قاتلوا عدو ربكم وعدوكم، فقد انتهك حرمات دينكم، وعطل دور العلم واقتحم بلادكم. يا أبنائى كونوا إخوانًا شجعانًا، ولا تكونوا للاعداء أعوانًا إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم، ولن تفلحوا إذًا أبدًا».

وكما كان للدسوقى مع الأشرف خليل بن قلاوون حكاية، كان له حكاية أخرى مع السلطان الظاهر بيبرس.

فبيبرس حين سمع بعلم الدسوقى وقطبانيته وتفقهه وكثرة أتباعه المجاهدين، وتفانى الكثيرين من حوله. أصدر قراره بتعيينه شيخًا للإسلام. ويقولون إن الدسوقى رفض المنصب. ولكن هناك مصادر تجمع على أنه قبل المنصب على شريطة ألّا يتقاضى مرتبه. وقد وهب المرتب لفقراء المسلمين.

وهذا هو سرّ إعجاب بيبرس بالدسوقى. ولذلك قرر بناء زاوية ليلتقى الدسوقى فيها مع مريديه، يعلمهم ويفقههم فى أصول دينهم. ويذكر أن الدسوقى ظل يشغل منصب شيخ الإسلام حتى وفاة بيبرس.

مسجد سيدى إبراهيم الدسوقى الحالى. هو مسجد حديث أعيد بناؤه مكان المسجد القديم الذى يعود إلى القرن التاسع عشر، والذى كانت مساحته تربو على عشرين ألف متر مربع، وكان يتكون من صحن مكشوف، يتوسط المسجد، تحيط به الأروقة من جميع جهاته، على نمط عمارة مسجد الرسول ﷺ.

والمسجد بدأ فى الأصل مقبرة صغيرة دفن فيها سيدى إبراهيم، ثم أقيم على المقبرة ضريح، وفوق الضريح قبة. ثم بنى مسجد بجوار الضريح، حبس عليه الكثير من الأموال والعقارات، التى كان يصرف ريعها على المسجد وخدمه، وعلى طلاب العلم. وكان ذلك فى عصر السلطان قايتباى عام ٩٠٠ الهجرى، وقد ظل المسجد القديم حتى أعيد بناؤه فى أيام الأسرة العلوية. ثم تهدم هذا المسجد، ليبنى من جديد خلال السنوات الماضية.

ودسوق، الرابضة على فرع رشيد، كما تقول د. سعاد ماهر كانت قرية عامرة من أعمال مصر. وذلك كما جاء فى «قوانين» ابن مماتى.

وكما جاء فى الخطط التوفيقية «لعلى باشا مبارك»: إن وجود القطب الدسوقى فى هذه المدينة، جعلها عامرة. وأنه كان فى دسوق ثلاثة قصور، فى القرن الثالث عشر الهجرى. وهذه القصور الثلاثة كانت تستضيف رواد مولد سيدى إبراهيم الدسوقى وكانت ملكًا لكل من السيد عبد العال، والإمام القصبى، وبسيونى الفار.

والواقع أنه منذ موت الدسوقى، ومدينة دسوق تستقبل مئات الألوف من الزوار والمريدين، والباحثين عن بركات هذا القطب الصوفى من كل أنحاء مصر، ومن خارجها، خاصة من السودان الشقيق فى أيام مشهورة خلال العام.. وبالأخص أيام ذكرى مولده.

ومن المعروف أن مشهد سيدى إبراهيم الدسوقى يضم قبور بعض إخوته. كما أن أخاه سيدى موسى مدفون معه. ووالد سيدى إبراهيم يقال إنه مدفون بقرية قرب الرحمانية، ويقال إن والدة الدسوقى مدفونة فى الإسكندرية بالقرب من مشهد سيدى أبى العباس المرسى.

* * *

أخيرًا.. نختتم، فنقول وندعو مع القطب الصوفى سيدى إبراهيم الدسوقى:

«اللهم ارزقنى حلاوة محبتك، واجعلنى من أحبابك، وأحباب حبيبك المصطفى ﷺ. اللهم إنى أسألك خير ما آتى وخير ما أفعل، وخير ما أعمل، وخير ما أبطن، وخير ما أظهر. والدرجات العلى من الجنة. آمين».

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آل بيته الأطهار. وجعلنا الله محبين لهم عاشقين. مقتفين آثارهم.

سؤال طرحه الكثيرون:

دوحة النبى المباركة

لماذا الكثير من أغصانها فى مصر؟

دوحة النبى المباركة، ظللت أرض مصر بكثير من أوراقها وأغصانها. ولآلئ من كنوز آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم رصعت جبين مصر، وصارت أنوارًا مضيئة يفوح عطرها الذكى.

وهذه الدوحة النبوية المباركة، ألقت ثمارها وأوراقها أكثر ما ألقت من نسل فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم. وبعضها من نسل الحسن بن على.

بل إن أرض مصر، وأهل مصر، حبًّا فى آل البيت وعشقًا وتشيعًا لم يكتفوا بتلك الأضرحة والمشاهد الحقيقية وإنما بنوا عشرات ومئات من أضرحة أو مشاهد الرؤيا، تأكيدًا لما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، «أهل بيتى كسفينة نوح من دخلها نجا، ومن تخلف عنها غرق». وتأكيدا كذلك لحديث نبوى آخر، يبدو أن أهل مصر حفظوه فى القلوب والعقول والأفئدة، منذ عصر صدر الإسلام وهو: «من مات على حب آل محمد مات شهيدًا، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنًا مستكمل الإيمان، ومن مات على بغض آل محمد مات كافرًا، ومن مات على بغض آل محمد، لم يشم رائحة الجنة».

* * *

إذا كانت القاهرة - خاصة القديمة منها - تعرف بمدينة الألف مئذنة. فإن ما على جغرافية أرضها من قباب ومشاهد يفوق العدد والحصر، ولا شك أن هذا

إن دل على شيء فإنما يدل على أن مصر، أرض الإيمان وأن أهل مصر، منذ أن ارتفعت الراية الخضراء فى سمائها، اختاروا الإسلام عن صدق ويقين، واقتناع. آمن المصريون برسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وتحمسوا للدين الجديد، بل إنهم قد انغمسوا فيها وقع من أحداث مصيرية ولا أكون متجاوزًا أو مبالغًا، إذا قلت: إن أهل مصر كانوا من صناع السياسة فى صدر الدولة العربية الإسلامية وما بعد ذلك من قرون.

وقد كان تحمس أهل مصر للنبى الكريم ولدعوته، ولآل بيته، تحمسًا يدعو إلى الفخر كما يدعو إلى التساؤل!

والذين يتساءلون لهم بعض العذر من تساؤلهم، لأنهم ليس لهم رؤية شاملة بالنسبة لمصر بالذات، وبالنسبة لتاريخها الإيمانى والعقائدى، حتى من قبل الإسلام، بل إن- وهذا ثابت تاريخيًّا- الذين ليس لهم رؤية بالنسبة للمصريين، ليس لهم هذه الرؤيا أيضًا بالنسبة للفرس، حول سر تحمس أهل فارس لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والإجابة التى يمكن أن نعطيها بالنسبة لمصر، هى نفس الإجابة بالنسبة لفارس، فأهل الحضارات والمعتقدات القديمة كان تحمسهم وتشيعهم رائعًا للدين الجديد ولآل البيت. وإن تشيع المصريين يختلف عن تشيع الفرس.

إن الإسلام جاء كسفينة أمان، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، بما فى هذه المعانى من أبعاد وأبعاد. بل إن الذين لم يدخلوا الإسلام من أهل تلك البلاد كان الإسلام بالنسبة لهم رائعا، لأنه حافظ على معتقداتهم واحترمها من خلال شريعته السمحاء.

فمثلًا فى مصر، حين جاء عمرو بن العاص وفتحها جند الإسلام، وجد منه القبط، ما لم يجدوه من الرومان، ومن كل غاز لها من قبل. ألف عمرو بن العاص بين المسلمين والقبط، وأرسل «كتاب أمان» إلى بنيامين بطريرك القبط، ورده إلى كرسيه وأعاد إليه إدارة شئون لكنيسة، وكان الرومان قد أقصوه عن هذا الكرسى

ثلاثة عشر عامًا، فعاد بنيامين إلى الإسكندرية، بعد أن كان مختفيًا فى الصحارى وعاش الأقباط فى ظلال حرية العقيدة والأمان.

* * *

سألنى أحدهم - بعد أن كتبت عن كوكبة من آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم فى الطبعة الأولى من الكتاب - هل هم فى مصر حقًّا؟ وهل دفنوا فيها؟! أجبته - وبثقة - نعم، على الأغلب.

وأضفت قائلا:

- إننى لم أكتب إلا عن الذين عاشوا فى حدود القرون الأولى تقريبًا للإسلام. بمعنى أننى كتبت عن بعض من دفن آل بيت النبى فى مصر، فى إطار قرون أربعة أو خمسة من الهجرة. ومن هم مدفونون فى مصر من آل البيت يفوق هذا العدد - بلا شك - أضعافًا مضاعفة.

وقلت إننى لم أتشرف بالكتابة عن بعض المشهورين والذين لهم قبور لا تزال فى مصر من آل البيت، وهم كثيرون. ومما هو ثابت أنهم مدفونون عندنا، وثابت أيضًا أنهم من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقلت: كذلك إننى أردت من هذه الحلقات القليلة.. أن أزيل النقاب عن الكثير مما لايعرفه الكثيرون، خاصة بالنسبة للشباب المسلم والشابات المسلمات. فحياة أهل البيت هى نماذج وقدوة.. ينبغى على الشباب المسلم - فتيانًا وفتيات - أن يتأسوا بها، ويعرفوا شيئا من سيرتها ومن تاريخها. ومن قوة إيمانها، ومن صدقها، ومن دفاعها عن العقيدة السمحاء، وعن دين محمد صلى الله عليه وسلم.

فليس من الدين فى شىء أن يذهب المسلم إلى ضريح سيد شباب أهل الجنة، الإمام الحسين ليزوره، وهو لا يعرف شيئا عن تاريخه وعن صلابته فى الإيمان والمبدأ، والنضال والكفاح إلى حد الاستشهاد. ومن غير المعقول، أن تذهب السيدة المسلمة إلى مقام سيدتنا زينب، أو سيدتنا فاطمة النبوية، أو سيدتنا نفيسة، دون أن تعرف شيئًا من التاريخ الإيمانى لتلك النماذج المسلمة الرائعة من آل البيت.

أن تعرف التاريخ والسيرة، يجعلك أن تقتنع أكثر، وتحب أكثر وتكون لك أسوة حسنة تتأسى بها، وتجعلها نبراسًا لك ومصباحًا هاديًا.

فالتاريخ والسيرة عظات وعبر، ومن لم يتأس بذلك يصبح كالببغاء، يظل يردد دون وعى ما يسمعه وهذا ليس من الإسلام فى شىء.

فالحب التلقائى الوراثى، وحده، لا يكفى، وإنما الحب المبنى على المعرفة، يصبح يقينًا، خاصة بالنسبة لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين ضربوا بسلوكهم وسيرتهم أعظم الأمثال وجمعوا حولهم قلوب المؤمنين فى حياتهم ومماتهم على السواء.

* * *

بعد كربلاء - كما قرأت فى هذا الكتاب - عادت السيدة زينب أخت الإمام الشهيد الحسين بن على إلى المدينة المنورة ومعها سيدات آل البيت، بالإضافة إلى الزهرة التى بقيت من صلب الحسين، سيدى على زين العابدين.

لكن حين ضيق عليها الأمويون الخناق فى المدينة، وخيروها أن تذهب إلى أرض الله الواسعة - غير مكة بالطبع - حتى لا تؤلب المسلمين عليهم، اختارت مصر، دارًا لإقامتها ومقامها. لماذا؟

تجمع كتب التاريخ أنها اختارت مصر أرض الكنانة، لما سمعته عن أهلها من محبتهم لآل البيت، ومودتهم لذوى القربى من آل محمد عليه الصلاة والسلام. وكذلك لما وعته عما حدثت به أم سلمة، من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى بأهل مصر، حين بدأ التفكير فى فتحها. وروى عنه قوله صلى الله عليه وسلم:

«إنكم ستفتحون مصر، وهى أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها، فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمّة ورحمًا» وفى رواية أخرى «ذمة وصهرًا». وقد فسر البعض «رحما وصهرًا». مارية القبطية التى يقال إنها كانت ابنة المقوقس عظيم

القبط فى مصر، التى أرسلها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتزوجها، وأنجب منها ابنه ابراهيم.

ويعجز القلم عن أن يصف موكب السيدة زينب حين بدأت تشارف أرض مصر، من الذين ذهبوا على اختلاف طبقاتهم لاستقبالها عند بلبيس عام ٦١ هجرية، حتى أنها رضى الله عنها حين شاهدت احتفاء أهل مصر بها ظلت تردد وتقول: «هذا ما وعد الرحمن، وصدق المرسلون».

ومنذ ذلك التاريخ كانت السيدة زينب أول جوهرة من دوحة النبوة المباركة ترصع أرض مصر، بل هى - رضى الله عنها - ظلت منذ هذا التاريخ قبسًا من أقباس النبوة فى مصر.

وما فعله أهل مصر مع السيدة زينب فعلوه مع تلك الأغصان من الدوحة النبوية المباركة التى جاءت إلى مصر بعدها.

فعلوه مع السيدة نفيسة بنت سيدى حسن الأنور، التى جاءت إلى مصر فى الخامس والعشرين من رمضان عام ١٩٣هـ تلقتها نساء مصر ورجالها بالهوادج والخيول رافعين المصاحف عند العريش، مبكرين مهللين، فرحين مستبشرين بتلك اللؤلؤة المباركة التى ستضاف إلى عقد لآلئ آل البيت فى مصر.

وحين فكرت السيدة نفيسة فى العودة من مصر إلى المدينة المنورة، فإن أهل مصر لم يتركوها وتكاثروا عليها من كل فج وفى كل وقت يرجون بركتها، وأسقط فى يدهم حتى أنهم ذهبوا إلى الوالى، كى يتشفع لهم ويرجو السيدة نفيسة البقاء. وقيل على لسان السيدة نفيسة: إن سبب تفكيرها فى العودة إلى المدينة المنورة هو كما قالت: «إنى كنت قد اعتزمت البقاء عندكم، غير أنى امرأة ضعيفة، وقد تكاثر الناس حولى، فشغلونى عن أورادى، وجمع زادى».

وما فعله أهل مصر، مع لآلئ آل بيت النبوة فعلوه أيضًا مع تلك الرءوس الشريفة، التى بذلوا من أجلها الغالى والنفيس لنقلها أو دفنها فى مصر.

فعلوا ذلك مع رأس الإمام الحسين بن على.

وكذلك مع رأس سيدى زيد بن على زين العابدين.

ورأس سيدى إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على. ويقال إن رأس الحسين، حفروا لها نفقًا من جامع الصالح طلائع إلى الباب الأخضر، ودفع الصالح طلائع ابن رزيك ٣٠ ألف درهم أو دينار ليؤتى بالرأس من عسقلان إلى مصر، ليدفن فى مصر.

أما رأس كل من سيدى زيد بن على زين العابدين، وسيدى إبراهيم بن عبد الله فقد جازف المصريون أيام الأمويين وأيام العباسيين على التوالى، وسرقوا الرأسين من المسجد الجامع - جامع عمرو - لكى يدفنوهما، ليصبحا مزارات، رغم أن التشيع لآل البيت كان فى أيام دولة الأمويين، وفى فترات كثيرة فى زمن العباسيين جريمة لا تغتفر. فرأس سيدى زيد دفن بالفسطاط، ورأس سيدى إبراهيم دفن بالمطرية.

لكن لماذا هذا كله؟

إن الرسول الكريم رأس هذه الدوحة المباركة يقول:

«المرء مع من أحب».

وأهل مصر أحبوا آل البيت ووقفوا معهم، بلا شك.

وأهل مصر أيضًا حفظوا عن ظهر قلب، ووعوا ما قاله الرسول، وما قاله صدق فقد روى الإمام أحمد بسنده، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«إنى أوشك أن أدعى فأجيب، وإنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله حبل ممدود من الأرض إلى السماء، وعترتى أهل بيتى، وأن اللطيف الخبير، أخبرنى أنهما لن يفترقا، حتى يردا على الحوض يوم القيامة فانظروا بما تخلفونى فيهما».

وروى الديلمى، والطبرانى، وابن حبان، والبيهقى، أنه صلى الله عليه وسلم قال:

«لا يؤمن عبد، حتى أكون أحب إليه من نفسه، وتكونى عترتى أحب إليه من عترته، وأهلى أحب إليه من أهله وذاته».

وقد كان أهل مصر - وما زالوا - مؤمنين محبين لرسول الله ودوحته المباركة، وسيظلون على هذا الإيمان، إلى أن يشاء الله. ومن هنا جاء تحمس أهل مصر لآل بيت النبى صلى الله عليه وسلم، ولكل أثر من آثار النبوة الكريمة.

وأقصد بآثار النبوة الكريمة تلك المخلفات النبوية الشريفة التى تقبع فى حجرة المخلفات فى مسجد سيدى الإمام الحسين. بعد أن جاءت إلى مصر فى القرن السابع الهجرى من مدينة «ينبع» حتى إن المصريين بلغوا من حرصهم على تلك المخلفات - كما تقول الدكتورة سعاد ماهر - أنهم جعلوا من بين وظائف الدولة الهامة، وظيفة «شيخ الآثار النبوية». بنوا لها رباطًا أى حصنًا من الحصون العسكرية، أو قلعة ليحفظوها بها، ولم تذهب الآثار النبوية إلى تلك الغرفة المباركة فى المشهد الحسينى إلا فى موكب هائل، وحراسة مشددة من مكانها فى سراى عابدين فى عام ١٣٠٥ هـ. وهذا الموكب اعتبره البعض من المواكب المشهورة فى تاريخ مصر الحديث.

* * *

والذين لم يقتنعوا ومازالوا يتساءلون أيضًا. لماذا آل بيت النبى صلوات الله وسلامه عليه فى مصر؟

أقول معهم الحق؛ لأنهم لا يعرفون أن مصر لم تكن بعيدة عن مكة والمدينة فى يوم من الأيام، ولا بعيدة أيضًا عن تلك الفتنة التى قامت بعد مقتل الخليفة عمر ابن الخطاب حيث قتله أبو لؤلؤة المجوسى فى عام ٢٣ هـ. وهذه الفتنة هى التى مهدت «للفتنة الكبرى» كما يسميها طه حسين.

ومنشأ هذا كان من مصر أيضًا.

لقد كانت الفتنة التى أدت إلى مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه من مصر! وأذكى نيرانها صحابى قديم، اشتهر - كما يقول صحيح مسلم - بأنه أول من حيا النبى بتحية الإسلام وبأنه رابع - أو خامس على رواية الطبرى - من اعتنق دين الإسلام، واشتهر بالورع والتقوى، وكان من أئمة الحديث، وأقصد به «أبو ذر الغفارى».

وكما يقول د. حسن إبراهيم حسن، فى كتابه «تاريخ الدولة الفاطمية»، فقد تحدى أبو ذر الغفارى سياسة عثمان، وسياسة معاوية عامله على الشام، بتحريض رجل استوطن مصر هو عبد الله بن سبأ من أهل صنعاء اليمن.

لقد أخذ ابن سبأ – كما يضيف د. إبراهيم حسن – يتنقل فى البلاد الإسلامية فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، فالكوفة، ومنها إلى الشام فمصر. ولما وفد على الشام قابل أبا ذر الغفارى، فوجد فيه الرجل الذى ينشده، لما آنسه فيه من الغيرة وطيبة القلب، فجاءه من ناحية الدين، وشكا إليه من معاوية، وما أتاه فى سياسته، خاصة من ناحية تصرفه فى أموال المسلمين، ولذلك فقد شمر أبو ذر عن ساعد الجد فى إعلان استيائه من الأمويين.

وهكذا كانت حملة أبى ذر على عثمان وعلى سياسته التى كانت تقوم على تفضيل بنى أمية، مما مهد للفتنة الكبرى، التى ذهب ضحيتها سيدنا عثمان عام ٣١ هـ.

ولا يمكن أن يشك فى حسن نية أبى ذر، وإنما قد يأتى الشك فى نية ابن سبأ. ولكن الذى أدى إلى الفتنة فى الواقع سياسة عثمان وولاته فى الأمصار الإسلامية، وولاها ذوى قرباه، وسمح للبعض بالخروج إلى الأقاليم وامتلاك الضياع، واستحدث عدة أشياء لم يسبق بها فى عهد الرسول، ولا عهد أبى بكر وعمر، فهو أول من أقطع القطائع، وأول من خفض صوته بالتكبير، وأول من أمر بالأذان يوم الجمعة، وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة. وهكذا.

المهم أن ابن سبأ أخذ ينشر دعوته، ضد عثمان، واتصل بالثائرين فى الكوفة والبصرة وتبادل معهم الكتب والرسل، وبعث الدعاة يدعون لعلى بن أبى طالب، واستطاع أن يؤثر فى نفوس الناس المتحمسة لآل البيت، حتى أنه هيأ العقول إلى الاعتقاد بأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق.

والواقع أنه لم يكن من الصعب على ابن سبأ أن يقوم بتنفيذ مخططه فى مصر، حيث اشتد سخط أهلها على عثمان وعامله عليها عبد الله بن سعد بن أبى سرح. وساعد على ذلك انضمام محمد بن أبى بكر، ومحمد بن أبى حذيفة، إليه فى مصر لصلة

النسب بينه وبين على بن أبى طالب وابنه الحسن فقد تزوج الإمام على من أسماء بنت عميس أم محمد بن أبى بكر بعد وفاة أبيه، فكان ابن أبى بكر ربيبًا فى بيت على. ومحمد بن أبى بكر تزوج من أخت زوجة الإمام الحسين بنت ملك فارس. كذلك فإن مروان بن الحكم - من شيعة عثمان - كتب إلى والى مصر بقتل محمد ومن معه من المهاجرين والأنصار حين جاءوا إلى مصر.

أما ابن أبى حذيفة.. فقد عادى عثمان على أثر الخلاف الذى حدث بينه وبين ابن أبى سرح فى غزوة السوارى - فى البحر المتوسط - فقد اختلف معه على التكبير فى الصلاة. وحين انتهت المعركة وذهب هو ومحمد بن أبى بكر إلى مدينة الفسطاط عاصمة مصر، وانضما إلى ابن سبأ، ووقفا موقف العداء من عثمان. أو أن ابن سبأ استطاع أن يغريهما بالانضمام لدعوته.

بل إن عمار بن ياسر - وهو أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - انضم إلى محمد بن أبى بكر وإلى ابن أبى السرح فى مصر، وكان عثمان قد بعثه إلى مصر، ليبحث أسباب الخلاف.

ويقال إن ابن سبأ قد حقق ما يرمى إليه من إثارة الولايات الإسلامية على عثمان وولاته. وجعل هؤلاء الأقطاب المسلمون - محمد بن أبى بكر، ومحمد بن أبى حذيفة، وعمار بن ياسر - يكاتبون أشياعهم من أهل البصرة والكوفة. واتفقوا على اللقاء قرب المدينة المنورة. وكان اللقاء، حيث اختلفوا فيمن يخلف عثمان فمال أهل البصرة إلى طلحة، وأهل الكوفة إلى الزبير، ومال أهل مصر - وعلى رأسهم ابن سبأ - إلى على بن أبى طالب.

وقد كان رجحان رأى مصر، فقتل عثمان بن عفان فى ١٨ ذى الحجة سنة ٣١هـ. وتولى على بن أبى طالب الخلافة.

المهم، أن أهل مصر تشيعوا لعلى بن أبى طالب، ولآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وكان هذا اقتناعًا منهم منذ دخول الإسلام إلى مصر. وكان انضمامهم محبة ورغبة فى آل البيت. بل هم لم ينضووا تحت ما أعلنه ابن سبأ من نظريات،

أدت فيما بعد إلى تلك الأفكار التى رفضها على بن أبى طالب، والذى نفى ابن سبأ من أجلها بل إن عليًّا أنكر على شيعة ابن سبأ ما نسبوه إليه - أى إلى على - ويقال إنه أحرقهم لتطرفهم. وقد نسبوا إليه الكثير مما لا يدخل فى دين الإسلام فى شىء.

المهم كذلك، أن قلوب أهل مصر هدأت حين انقادت الخلافة لعلى بن أبى طالب، فقد رأوا فيها الشىء الطبيعى، الذى يناسب حبهم للرسول عليه الصلاة والسلام وعترته أهل بيته، ودوحة النبوة المباركة.

وقد ظلت مصر على حبها وتقديرها لأهل البيت مما جعلها تقف دائمًا فى صفهم على طول الخط بل إنها بعد ما حدث لهم أيام الأمويين خاصة بعد كربلاء، وفى أيام العباسيين أيضًا، ظلت على مبدئها فاتحة صدرها لدوحة النبى المباركة تدعمها ما وسعها الجهد.

والدليل على ذلك أنه فى مصر، وبعد مرور ثلاثة قرون ونصف على هجرة الرسول تقريبًا، أى فى عام ٣٦٢هـ. حين قامت الدولة الفاطمية فى مصر، لم يقبل المصريون ولم يلتزموا بدعوات أو مذاهب معينة، وإنما كان حبهم لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خالصًا لله ولرسوله.

وهذا هو السر فى أن الكثير من أغصان دوحة النبى المباركة وأهل بيته جاءوا إلى مصر ليعيشوا فيها، ولتصبح مصر محبة لآل البيت، وهذا بالتالى أبلغ رد على الذين ينكرون ما فى مصر من لآلئ وكنوز من هذه الدوحة المباركة.

تحت القبة شيخ
هل هذا صحيح؟

القاهرة أكثر من غيرها من مدن العالم الإسلامى التى تمتلئ ببيوت الله، والتى تعلوها المآذن والقباب، من العباسية إلى الأزهر إلى مصر القديمة. مبان تناجى الموت فى صمت وسكون. بنيت على مدى قرون طويلة. شاهدة على انتشار الدين الإسلامى وعلى مدى تطور فنونه. خاصة فنون بناء القبة.

وهذه الدراسة التى نقدمها عن القباب، تتناول تاريخها وبدايتها فى العالم الإسلامى، وأصلها، وتطورها حتى الآن، ورأى علماء الآثار والفنون الإسلامية فيها.

وإذا نحن قلنا إن القاهرة مدينة الألف مئذنة، والخمسة عشر ألف مسجد وزاوية، فلا يخطئنا القول إذا نحن أطلقنا عليها مدينة الأضرحة والمشاهد، والتى تعلوها القباب، المختلفة الطرز والألوان والنقوش.

فمنذ أن دخلت جيوش عمرو بن العاص مصر فى منتصف القرن السابع الميلادى، أو على التحديد قبل المنتصف بعدة سنوات، والفنان المصرى الإسلامى يتطور مع تطور العقيدة يبنى القصور والمشاهد والأضرحة التى تعلوها القباب. ووقفة قصيرة على سطح القلعة تجد أمامك فى كل اتجاه (بانوراما) تاريخية عمرها أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان. وآثارًا لا حصر لها. ابتداءً من جامع عمرو ابن العاص، الذى كان أول مسجد جامع فى مصر، إلى جامع ابن طولـون إلى الجامع الأزهر.

والآن تطور بناء المساجد من البساطة والتقشف التى اتصف بها مسلمو صدر الإسلام، إلى الضخامة والترف والبذخ، التى ظهرت أكثر ما ظهرت فى عصر

الأيوبيين والمماليك، إلى مآذن «القلم الرصاص» فى العصر التركى والعثمانى. مثل جامع السلحدار فى حى الجمالية، ومآذن جامع محمد على فى القلعة.

وهذه التطورات الفنية كلها جاءت من مصادر عدة أهمها البلاد الشرقية والتركمانية بالذات. فالفترة المملوكية لها أهمية خاصة فى محيط تطور الفن الإسلامى، إذ أدخلت بلاد النيل فى دائرة الأشكال التركية. وهذا عمل ترتبت عليه انقلابات جوهرية فى فن العمارة، خاصة عمارة المساجد والقباب. لكن للتاريخ، فإن القاهرة لم ترم بنفسها فى أحضان الفنون التركية بدون روية أو تفكير، بل إنها أخذت عنها بعض انطباعات فى البناء والزخرفة، ومزجتها بتقاليد فاطمية، وتقاليد قديمة، وبهذا وجدت مصيرها الحقيقى فى أن تصبح مركزًا لتقبل الأفكار الأجنبية فى فن العمارة والملاءمة بين هذه الأفكار ومركزها الثقافى.

والواقع أنه بطرازين عرفتهما مصر، هما طراز المدرسة المقسمة إلى أربعة أقسام، وطراز الأضرحة ذات القباب من غرب تركستان عن طريق المماليك، استطاعت من خلالهما أن تطور تصميم المساجد والقباب دون أن تعدل عن منهجها.

ويهمنا هنا الأضرحة والمشاهد، ودلالاتها وتطوراتها.

فالأضرحة هى عبارة عن قبور يدفن فيها أولياء الله الصالحون، كما يدفن فيها السلاطين والخلفاء والنبلاء. والقبور تعلوها قباب ذات أهداف معينة، منها إظهار جلال المدفون، أو علامة على علو كعبه فى حياته. أو ربما تخليدًا لذكراه، أو لمحاولة اكتساب الثواب فى الآخرة واستقطاب الناس حوله يدعون له بدخول الجنة خاصة وأن معظم الأضرحة فى الأصل كان ملحقًا بها مدارس وأماكن للصوفية.

على أن القباب لم تقتصر على الأضرحة وحسب ـ وإن كانت القبة علامة على أنه تحتها شيخ حسب المثل الدارج ـ فهناك الكثير من القباب التى ليس تحتها مشايخ أو أولياء صالحون، وإنما قد تنسب لولى أو سلطان من السلاطين.

ويحلو للبعض أن يقول: إن الأضرحة هى امتداد للقبور الضخمة قبل الإسلام، أو حتى ديانات التوحيد. فالأهرامات مثلا هى عبارة عن أضرحة وثنية، بناها

الفراعنة لكى يخلدوا أنفسهم، ولكى تكون أيضًا مكانًا يحفظون فيه رفاتهم للحياة الآخرة. وربما هذا يكون صحيحًا، خاصة وأن الفراعنة كانوا يعتبرون أنفسهم آلهة. ثم إن القبور الضخمة التى بنيت فى الهند القديمة وفى فارس قبل الإسلام وما عليها من أبراج مخروطية الشكل تشبه المآذن أقول ربما أن القباب قد تطورت وأن الفكرة واحدة، وهى فكرة دينية تحاول ربط الأحياء بعالم الموتى، أو تذكيرهم فى كل وقت بأن الكل مصيره إلى زوال.

هذا فضلاً عن أنه فى أوقات المحن والحروب - فى العصور الوسطى - حيث لا يجد المؤمنون ما يلوذون به سوى المعتقد الدينى فيتجه الناس إلى أضرحة أولياء الله الصالحين للزيارة والبركة والدعاء ليكشف الله عنهم السوء، ويرفع البلاء، ومن ثم ظهر ما يعرف باسم «أضرحة الرؤيا» وهى قد تكون تحتها رفات ميت صالح. أو ربما تبنى بناءً على رؤية جاءت فى منام أحد الحكام والسلاطين. وعندئذ يصحى من نومه، ويحاول تحقيق الرؤية. مثلما حدث لضريح السيدة سكينة بحى الخليفة والذى يرجع بناؤه وبناء قبته ومسجده إلى عهد عبد الرحمن كتخدا عام ١١٧٣ هـ. ثم جدد بعد ذلك فى القرن الثالث عشر الهجرى.

وبجانب الأضرحة نشأ فى العمارات الإسلامية ذات الهدف الدينى ما يعرف باسم «الخانقاه»، وهى كلمة فارسية معناها بيت الصوفية. والخانقاه، المفروض فيها أنها تؤدى وظيفة المسجد، حيث هيئت لإقامة الشعائر وصلاة الجمعة والجماعة، وبها كل تفاصيل المسجد، لكنها تزيد عليه بوجود حجرات للصوفية يختلون فيها لعبادة الله. ومن هنا رصدت الوقفيات الكبيرة عليها.

وأهم خانقاه فى القاهرة هى «خانقاه» السلطان فرج بن برقوق وهى أكبر بناء فى جبانات القاهرة شرقى الأزهر. وسبب بناء الخانقاه، أن السلطان الظاهر ابن برقوق، حين أحس بدنو أجله أوصى بأن يدفن مع الفقراء. زهدًا منه، وإيمانًا بأنه سيقترب من الله، بالإضافة إلى أن الذين سيزورون الخانقاه من المصلين والمؤمنين سيدعون له بالجنة والثواب. ولذلك فإن خانقاه برقوق اشترى لها أوقافًا بعشرين ألف دينار، وكانت دائماً - خاصة فى شهر رمضان - يذبح فيها عشرون بقرة

فى اليوم توزع لحومها على الفقراء فى التكايا والربط والزوايا. وهذه الخانقاه تم بناؤها فى ٨١٣هـ. وأتمها ابنه السلطان فرج بن برقوق.

* * *

ولنفصل حديثنا عن القباب. نشأتها وتطورها الفنى. وازدهار عصرها أو انحساره.

تقول الدكتورة سعاد ماهر، أستاذة الآثار الإسلامية بجامعة القاهرة عن نشأة القبة وتطورها فى العالم الإسلامى:

«نشأت فى العمارة الإسلامية دون غيرها، عمائر أقيمت على المقابر عرفت بالقباب وقد كانت القبة فى أول أمرها عنصرًا معماريًّا أريد به إظهار أهمية بعض أجزاء المسجد، كما هو الحال فى المسجد الأموى بدمشق ومسجدى الأزهر والحاكم بأمر الله فى مصر. ففى المسجد الأموى تتقدم المجاز ـ الذى يقسم أروقة القبلة ـ إلى قسمين: قبة حجرية، تبدو كأنها رأس طائر أجنحته الأروقة العرضية وجسمه المجاز، ولذلك أطلق عليها مؤرخو العصور الوسطى اسم قبة النسر أو قبة النصر. أما الجامع الأزهر والحاكم وهما من مساجد العصر الفاطمى فإن رواقيها فى إيوان القبلة فى طرفيها قبتان، بينهما قبة ثالثة فوق المحراب. ومن الواضح أن هذه القباب لم يكن لها وظيفة فى بناء المسجد سوى إظهار أهمية الجزء الذى تعلوه».

وبتطور العمارة الإسلامية، تطورت القبة وأصبحت لها وظيفة هامة، هى تغطية المساحات المربعة. وذلك للاستغناء عن استخدام الأخشاب التى تستوردها مصر من الخارج، ومن ناحية أخرى الإشارة إلى أهمية هذا الجزء المبنى.

وقد أقبل المسلمون على استعمال القباب فى تغطية المبنى المقام على قبور الشخصيات البارزة مثل الملوك والسلاطين، أو قبور أولياء الله الصالحين، حتى أطلق اسم الجزء على الكل، وصارت كلمة «قبة» اسما على الضريح كله، ومن ثم جاء المثل السائر «تحت القبة شيخ».

ومن الجدير هنا أن نذكر أن أقدم ضريح بنى فى الإسلام.. وأجمع عليه مؤرخو

الآثار الإسلامية وأقيمت عليه قبة يرجع تاريخها إلى القرن الثالث الهجرى، وقد عرف هذا الضريح باسم «قبة الصليبية» وهى توجد فى مدينة سامرا بالعراق على الضفة الغربية لنهر دجلة إلى الجنوب من قصر العاشق. وهى تشبه فى تخطيطها إلى حد كبير قبة الصخرة.

ويقول الطبرى إن والدة الخليفة العباسى المنتصر بالله استأذنت فى بناء ضريح منفصل لولدها فأذن لها، إذ كانت العادة قبل ذلك أن يدفن الخليفة فى قصره، فأقامت قبة الصليبية فى شهر ربيع الثانى ٢٨٤ هـ. وبذلك فإن هذه القبة تعتبر أول قبة فى الإسلام.

يلى قبة الصليبية ضريح إسماعيل السامانى المبنى عام ٢٩٦ هـ. فى مدينة بخارى، ثم ضريح الإمام على فى النجف الأشرف وقد بناه الحمدانيون عام ٣١٧هـ. ثم ضريح محمد بن موسى فى مدينة «قم» بإيران سنة ٢٦٦ هـ. ثم ضريح السبع بنات فى الفسطاط سنة ٤٠٠ هـ.

وقد كانت القباب لها أهمية ولها دلالة. إلا أنها تشير إلى الجزء الذى تعلوه فى المسجد.

على أن الذى يهمنا هنا، هو قباب القاهرة. كيف نشأت وما هو تطورها المعمارى؟ وحين نقول (قباب) فإننا نربطها أيضًا بالأضرحة.

وقبل ذلك أيضًا يهمنا أن نتحدث عن العمارة الإسلامية، أو الفن الإسلامى التشكيلى. فالفن الإسلامى التشكيلى ينقسم إلى قسمين: العمارة. ثم الفنون الزخرفية مثل الجص والحجر والرخام والعاج والخشب والخزف والنسيج والسجاد والمعادن والزجاج وغيرها من المواد.

أما عن العمارة فإن أقدم نماذجها الطراز الأموى الذى ازدهر فى القرنين الأول والثانى للهجرة. ففى العصر الأموى أصبحت الخلافة شبه ملك امبراطورى وراثى وتحولت من البساطة إلى البذخ والترف والأبهة. فقد كان انتقال مركز الخلافة من المدينة والكوفة، إلى دمشق إيذانًا بفترة جديدة، شاهد فيها الفن الإسلامى الدور

والقصور الفاخرة، والمساجد التى تقف على قدم المساواة مع الكنائس التى بناها البيزنطيون من قبل.

ومن أهم ما بناه الأمويون المسجد الجامع فى دمشق، بناه الخليفة الأموى الوليد ابن عبد الملك بين عامى ٨٨ هـ و ٩٦ هـ، وقد بنيت له قبة فى عصر متأخر عرفت باسم قبة النسر.

وفى عصر العباسيين تطور الفن الإسلامى، وأصبح أكثر شرقية وتأثرًا بالفن الفارسى أكثر من غيره، حتى أن الأسلوب العباسى شمل العالم الإسلامى، وفن القاهرة. وأهم الأدلة عليه هو جامع ابن طولون الذى أنشئ عام ٢٦٥ هـ، وسط مدينة القطائع ثالث عواصم مصر الإسلامية، بعد الفسطاط والعسكر.

ومما يذكر هنا، أن القباب لم تكن قد اتضحت بعد. وإنما بدأت ملامحها بعد ذلك منذ أواخر عصر الفاطميين، ثم تأكدت فى عصرى الأمويين والمماليك فلقد بحث الفاطميون وجندوا علماءهم للتأكد من المدفونين فى مصر من آل بيت النبى لكى يقيموا قبابًا على أضرحتهم، ثم تبعهم المماليك لكى يتفننوا فى عمارة هذه القباب. وكان هذا بالإضافة إلى ما بنى فوق أضرحة السلاطين والنبلاء وذوى الجاه والسلطان.

والواقع أن الزخارف التى حليت بها القباب فى القاهرة، تعتبر - كما تقول المستشرقة الباحثة الألمانية د. كريستل كيسلر - من أهم الإنجازات التى تمت فى العصور الوسطى. وهى أضرحة نبلاء وحكام مصريين، وهى تنتمى بالتحديد إلى القرن الخامس عشر الميلادى، وبداية القرن السادس عشر.

والقبة - كما تقول أيضا، هذه الباحثة الألمانية فى الآثار - كانت تعتبر جزءًا من المجمع الدينى الملتحمة به. ولكنها كانت وحدة قائمة بذاتها، فقد بنيت لتعبر عن سطوة وتدين منشئها. ولذلك، فمعظمها - الذى نشاهده حاليا - أقيم على مواجهة الشوارع، بصرف النظر عما كانت تواجهه من عقبات فى التخطيط.

وقد كانت المعتقدات السنية - المذهب السنى - لا تبيح تمييز المقبرة إلا بأقل

ارتفاع عن سطح الأرض، وقد تم التغاضى عن هذه السنة أو هذا التشريع - لأول مرة فى مصر - فى عهد مؤسسى القاهرة. وبدأ الفاطميون إقامة مشاهد على مقابر آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم المدفونين فى مصر، حتى أن ما بقى من مشاهد وقبور وقباب هذه الفترة، يدل على أن القبة كانت السمة الرئيسية لهذه النصب التذكارية إن صح التعبير، وكانوا يرتقون ببنائها دون أية حاجة معمارية سوى إضفاء المزيد من الرهبة والجلال. كما زخرفت سطوحها لتأكيد الرهبة.

وطوال العصر الفاطمى، حيث استخدم الطوب فى بناء القباب، كان «التضليع» هو الأسلوب الوحيد المستعمل، لأن التحديب الخارجى والتقعير الداخلى للضلوع يتميز بالإيقاع الزخرفى. كما أنه يمنح الهيكل قدرًا من الثبات والتوازن. وهناك مثل مؤكد على ذلك هو أن هذا الأسلوب استعمل فى مشهد السيدة رقية «٥١٧ هـ - ١١٣٣م» ومع أن الفنان المصرى الإسلامى فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر يستخدم الحجارة فى بناء القباب، إلا أن أسلوب التضليع احتفظ برواجه وانتشاره، ونجد ذلك محققًا فى جميع زخارف القباب الحجرية المبكرة.

ولم تظهر الزخرفة الملائمة للقباب الحجرية إلا فى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر الميلاديين، ففى ذلك الوقت أراد السلطان فرج ابن برقوق أن يحقق وصية أبيه بما يتناسب مع جلال ذكراه، فبنى «خانقاه» رحبة بها قبتان ضخمتان تحيطان جانبى قاعة الصلاة.

وقد كانت قبتا خانقاه بن برقوق بداية، لقباب مثيلة لها، مثل قبة ضريح السلطان المؤيد «٨٢٤ هـ» وبرسباى «٨٢٩ هـ»، وكذلك قبتا ضريح كل من الأمير قانيبك المحمدى «٩١٦ هـ»، وجانى بك «٨٢٠ هـ».

والواقع أنه فى عهد السلطان برسباى حدث تطور فى زخارف القبة، استحدث أسلوب جديد من التنميق والتزويق، أو بما يسمى بالنمط «النجمى» وهو تشابك هندسى، مضفراته منسوجة حول أشكال نجمية، وتعتبر قبة برسباى أول محاولة فى هذا المجال، كما أن قبة قايتباى «٨٧٩ هـ» آخر المحاولات المكتملة فى هذا المجال

أيضا وبعدها بدأ تزيين القباب بالزخارف العثمانية، كما هو واضح فى قبة عبد الله المتوفى حوالى «٨٧٩ هـ»، والقبة الصغيرة التابعة لمدرسة جوهر القونقبانى فى الجامع الأزهر الشريف «قبل عام ٨٤٤ هـ».

على أن فن الزخارف البنائية ظل سائدا، حتى بدأ يتضاءل حين نقل الأتراك العثمانيون الحرفيين المصريين إلى القسطنطينية، ولم يظهر هذا الشكل البنائى بعد ذلك إلا فى قبة ضريح السيدة سكينة «١٣٢٢ هـ» وهكذا نجد أنه بضريحين لسيدتين جليلتين من آل البيت، كانت البداية والنهاية لتاريخ زخرفة القباب فى القاهرة، قبة السيدة رقية كأول نموذج حيث عرف بأسلوبه الطوبى المضلع البسيط، وآخر النماذج القبة الحجرية للسيدة سكينة ذات الزخرفة المركبة الفخمة. ولكن ذلك لا ينسينا أن العصر الذهبى لزخرفة القباب فى القاهرة، كان هو القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر. أى فترة حكم المماليك البرجية رغم أنهم كانوا أقل الناس عناية بزخارف أضرحة آل البيت وأولياء الله الصالحين، لكنهم كانوا يبذرون الأموال فى إقامة أضرحة لهم ولذويهم وتحسينها بغرض الاستعراض وعبادة الذات واجلالها.

وبصرف النظر عن ذلك يأتى السؤال: لماذا كل هذا الاهتمام بكثرة بناء القباب وزخرفتها والصرف عليها سواء بالنسبة لأضرحة آل البيت أو غيرهم؟

فى الشريعة الإسلامية أن زيارة القبور للاتعاظ وتذكر الآخرة. ونحن نعنى هنا زيارة قبور الأهالى، وزيارة أضرحة آل البيت وأولياء الله الصالحين فى المواسم والأعياد الدينية. والدين يبيح زيارة القبور والأضرحة بجميع مذاهبه منها: الشافعية والسنية والحنفية والحنبلية وغيرها. بل إن أئمة الشريعة الإسلامية يحثون المسلمين على زيارة القبور البعيدة والقريبة. والزيارة للرجال، وللنساء العجائز اللاتى لا يخشى منهن الفتنة. وللزيارة أحكام حددتها الشريعة الإسلامية. فالزائر لا يجوز له أن يطوف حول القبر، ولا يقبل حجرًا، ولا عتبة ولا خشبة. والزائر أيضا لا يطلب من الموتى أو الشيخ الذى يزوره شيئًا.



صفحة

رقم الإيداع	١٩٩٨/٩٧٤١
الترقيم الدولى	977-02-5590-4 ISBN

١/٩٨/٣٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)